الإعجاز البياني

في صيغ الألفاظ

دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن

تأليف
الدكتور
محمد الأمين الخضري
استاذ البلاغة والنقد المساعد
في كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر — القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون : ٥١٠٦٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك اللهم أن جعلت أنسى فى مناجاتك ، ومتعتى فى تأمل عجائب كتابك ، ونشوتى فى الكشف عن سر من أسرار بيانه ، وهمتى فى البحث عما دق وخفى من وجوه إعجازه ، وأصلى وأسلم على من رفعت بالقرآن ذكره ، فأعجز ببيانك فرسان البيان ، وأسر ببلاغة نظمك الإنس والجان ٠

وبعد ٠٠٠

فإن القرآن الكريم يتفرد بأن قارئه أو سامعه - مهما كانت فطنته ودرجة تيقظه - لا يستطيع أن يسبق النص القرآنى باستشرافه لمعانيه وأغراضه قبل أن تطرق ألفاظه سمعه ، كما هو شأن أصحاب الأذواق ممن طالت معايشتهم لأساليب الفصحاء ، وأحكموا طرائق التعبير فى نهج الشعراء والأدباء ، فهم كثيرا ما تلتقط أذهانهم أعجاز الأبيات من صدورها ، وتقفز إلى أخلادهم مقاطع الكلام من مطالعه ، ويشتمون رائحة الخبر من أنفاس المخبر ، ويستدلون على المشبه به بما يندس فى أعطاف المشبه ، فالقارئ والمبدع يستبقان فى مضمار واحد ، ويحلقان فى أجواء واحدة ، ويهيمان فى أودية من الخيال متشابهة ، فلا غرابة أن يقع خيال القارئ قريبا مما يحلق خيال المنشئ ٠ ولا كذلك النص القرآنى ، فقد أحكم الله إعجاز نظمه ، بما يجعل المتلقى - على كثرة معرفته بفنون البيان ، وسعة خبرته بضروب التصرف فى أساليبه عاجزا عن ملاحقة النص القرآنى ومواكبته ، فضلا عن مجاوزته والسبق إلى غاياته ٠

وليس ذلك مرده إلى الإغراق والإبعاد ، أو إقامة حواجز من غرائب الألفاظ وخفاء دلالاتها ، أو اصطناع وجوه من البيان لا تعرفها لغة العرب ، وهو الذى أعجزهم ببيانهم ، وأفحمهم بلسانهم ، وإنما مرده إلى كثرة التصرف فى فنون الكلام ، ومباغتة المتلقى بما لا يتوقعه ، والعدول به عما كان يستشرف إلى ما لا يقع منه بخلد ، ولا يسبق إلى خاطر . فبينا هو مرهف السمع إلى خبر يتدبره ، إذا بضرب من الإنشاء ينقله إلى موقع الحدث ، مشاركا فى صنعه ، مسهما فى نتائجه وغاياته ، مثلما تراه فى قوله تعالى : **« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى »** حيث فاجأ النظم الكريم سامعه الذى كان فى موقف المشاهد المستغرق فى أحداث القصة بجذبه جذبا شديدا ، ويلقيه فى خضم الأحداث ليلفى نفسه فى مقام إبراهيم قائما يصلى ، تنفيذا لأمر ربه ، وترك أرباب الصنعة فى حيرة ودهشة ، يتساءلون كيف خرج القرآن عن المعهود من طرق البيان فعطف الإنشاء على الخبر ؟!

وهكذا تجد القرآن يتنقل بك سريعا بين الماضى والحاضر ، ويجوز بك أسوار الواقع إلى آفاق المستقبل ، ويقدم ويؤخر على غير ترقب ، ويعدل بقارئه من التكلم إلى الغيبة ، ويخاطبه وهو يتحدث عن سواه ، إلى غير ذلك من وجوه التصرف ، مما يجعله دائم التوقع لمغايرة فى النظم ، تتوالد بها المعانى ، وتتكاثر بها الأغراض .

والعدول عن الواحد إلى الجمع ، أو مخاطبة الجماعة بخطاب الواحد هو لون من التصرف فى الصيغ ، وفن من فنون الخروج عن ظواهر الأحوال ، يفجأ القارىء بما يفتح بصيرته على لون من سامق البيان ، ويفتح بصيرته على أقباس من أسرار الإعجاز ، ويلقى فى ذوقه شيئا من بلاغة النظم الحكيم . وهو كذلك لون من ألوان المجاز ، يصبغ الواحد

بصيغة الجمع ، فيكثر قليله ، ويعظم حقيره ، ويخرج الجمع فى صورة الواحد ليحيل كثرته قلة ، وتعاظمه ضعة ، وفرقته ائتلافا ووحدة ، وهو قبل ذلك ضرب من ضروب الإيجاز ، تتنامى به المعانى وتتكاثر ، دون أن يزيدك فى لفظه ، غاية الأمر أنه ينقلك من صيغة إلى صيغة ويستبدل بهيئة هيئة أخرى ، فإذا أنت معه مخاطب غائب فى آن ، كثير قليل معا ، فتأمل معى - مما سيجيئك بيانه - قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد** » لترى نفسك واحدا من جموع المؤمنين المخاطبين بالتقوى ، ثم فجأة تتوارى مع هذا الجمع الكثير فى نفس واحدة غائبة ، مستغرقة فى تأمل ما سطر فى صحائفها ، فأنت واحد من جموع المخاطبين ، وأنت كذلك جزء من النفس الناظرة الغائبة . لتفيق من دهشتك على سر من أسرار الإعجاز ، هو ثمرة العدول من صيغة الجمع إلى صيغة الإفراد .

هذا الفن من فنون المجاز ، وهذا الضرب من ضروب الإيجاز ، وذلك اللون من ألوان الخروج على خلاف ظواهر الأحوال ، أين حظه فى حقل الدراسة البلاغية ؟ وهذا الفيض من أسرار الإعجاز ما نصيبه من الدراسات القرآنية ؟ .

ذلك ما تجيب عليه هذه الدراسة من خلال تتبع ما خالف الظاهر من صيغ الإفراد والجمع فى القرآن الكريم ، والكشف عن أسرار الإعجاز فيه . والله أسأل أن يقيل عثراتى ، ويغفر ذلاتى ، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

المؤلف

القاهرة : رجب ١٤١٣هـ

يناير ١٩٩٣م

توطئـــــة

فى عبارة موجزة كشف النابغة الذبيانى عن حكمة اللغـة وفلسفتها فى تعدد صيغ الجمع وتنوع دلالاتها ، وأبان عن وعى العربى ويقظتـه فى اختيار الصيغة القادرة على أن تشيع فى نفس المتلقى ما تحمله من دقائق الاشارات وخفايا المقاصد ، ولفت النظر إلى لون من الدراسـات البيانية والنقدية ، يهدف إلى الربط بين دلالات الصيغ ، إفرادا وجمعا ، قلة وكثرة ، وبين منافذ القول وأغراض المتكلمين ، ويعمد إلى استكناه أسرار النفوس ، للوقوف على أسباب المغايرة بين الصيغ ، ووضع إحداها فى موضع الأخرى ، وفاء بحاجات الكلام ، أو قصورا عن استلهام وحى اللغة والتقاط إشاراتها فى لحظة تفتر فيها نفس المبـدع . فقـد روى المرزبانى أن حسان بن ثابت أنشد النابغة قوله :

لنا الجفنات الغـر يلمعن بالضحى
وأسـيافنا يقطرن من نجـدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محـــرق
فأكرم بنـا خالا وأكرم بنا ابنما

(فقال له النابغة : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك)(١) وعلق الصـولى على ذلك بقوله : (فانظر إلى هذا النقد الجليل الذى يدل عليه نقـاء كلام النابغة وديباجة شعره ، قال له : أقللت أسيافك ، لأنه قال : « وأسيافنا » وأسياف جمع لأدنى العدد ، والكثير سيوف ، والجفنات لأدنى العدد ، والكثير جفان(٢) . فترت نفس حسان لحظة فذهبت ديباجة شعره حين

---

(١) الموشح ٨٢ .   (٢) السابق ٨٣ .

لم يلائم بين مقام الفخر بما يقتضيه من المبالغة فى امتـداح قومه بكثرة القرى وفرط الشجاعة ، وبين صيغة الجمع التى جاء بها دالة على القلة ٠ وكان انقطاع حسان بين يدى النابغة تسليما منه بهذا الإلف العربى فى استعمالات صيغ الجمع وتفاوت دلالاتها ٠

يؤكد صفاء حس النابغة وحسن ديباجته ـ على حد وصف الصولى له ـ أن القرآن فى مقام الامتنان على نبيه سليمان عليه السلام ، وتعديد نعمه عليه ، جاء بصيغة الكثرة « جفان » فى قوله تعالى : « **يعملون له ما يشـاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب** »(٣) لتتلاقى ظـلال الكثرة فى صيغة الجمع مع امتداد ظلال النعم الوفيرة التى شـمل الله بها نبيه الكريم ٠

هذه الحكمة فى لغة العرب ووعى أصحابها بجهات تصرف الكلام يحاول بعض الباحثين المعاصرين تجريدها منها ، والسخرية من النحـاة فى تمييزهم بين صيغ القلة والكثرة ، متنكرين لجهودهم المضـنية فى استقراء كلام العرب ، وما جرت به ألسنة الفصحاء ، بحثا عن الفروق الدقيقة بين دلالات الصيغ المختلفة ٠ يقول الدكتور إبراهيم أنيس رافضا القول بوجود صيغ للقلة وأخرى للكثرة : (إن العربية لتفرق بين الجموع ، فتجعل من الصيغة ما يفيد القلة ، ومنها ما يفيد الكثرة حسب ما يقول النحـاة ، فهم يؤكـدون لنـا أن الجمـع الصـحيح مثـل « مسلمين » و « مسلمات » يفيد القلة ويعبر عن عدد فى حدود العشرة ، كذلك جموع التكسير التى تجىء على مثال : أرغفة ، وفتية ، وأفراس ، وأكعب ، تفيد تلك القلة التى اختلفوا فى حدودها ، ورأى معظمهم أنها لا تكاد تجاوز العشرة عدا ، ثم يحاولون تبرير هذا بقولهم : إن جموع القلة تصغر

---

(٣) سـبأ ١٣ ٠

عنى صيغتها ، فقد يقال : أريغفة ، وافيراس ، ومسيلمين ، ويعاد عليها الضمير مفردا ، مستشهدين بقوله تعالى : « **وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه** » . كذلك قد يوصف المفرد بجمع القلة مثل ثوب أسمال ، وبرمة اكسار ، فى حين أنا إذا شئنا تصغير جمع الكثرة صغرنا المفرد ، ثم جمعناه جمعا سالما .. » إلى أن يقول : « نرى كل هذا فى كتب النحاة ونمر به مرور الشاك فى صحته أو مطابقته للأسلوب العربى ، فالقرآن الكريم مليء بأمثال الآيات « **وهم فى الغرفات آمنون** »(٤) « **إن المسلمين والمسلمات** »(٥) « **ثلاثة قروء** »(٦) مما يبرهن على أن فكرة اختصاص القلة بصيغ ، لم تكن من الظواهر الملزمة فى اللغة العربية ، وليس يشفع للنحاة قولهم فى نهاية الحديث عن صيغ القلة والكثرة : إن العرب قد تستعمل هذه مكان تلك ، أو العكس لحكمة ، لأن مثل هذا القول يحمل فى ثناياه دليل ضعف الرأى الذى ذهبوا إليه)(٧)

من حق الكاتب أن يشك فى صحة ما قاله النحاة ، ومن حقنا عليه أن يقدم لنا الدليل على بطلان ما قالوه ، لكنه مر على أدلة النحاة دون أن يناقشها فضلا عن أن يوهنها ، ذلك أن تصغير جموع القلة على لفظها تجاوبا مع التقليل فى دلالة التصغير ، وإباء جموع الكثرة أن تصغر على لفظها ، إنما هو دليل قوى على أن تصاريف الصيغ تستلهم بوعى كامل التصرف فى دلالاتها ، ومن ثم امتنع تحقير الكثرة لتدافع حاليه كما يقول ابن جنى : (وذلك أن وجود ياء التحقير يقتضى كونه دليلا على القلة ، وكونه مثالا موضوعا للكثرة دليل على الكثرة . وهذا يجب

---

(٤) سبأ ٣٧ .
(٥) الأحزاب ٣٥ .
(٦) البقرة ٢٢٨ .
(٧) من أسرار اللغة ١٣٨ وما بعدها .

معه أن يكون الشئ الواحد قليلا كثيرا ، وهذا ما لا يجوز لأحد اعتقاده)(٨) .

أما قوله بأن القرآن ملئ بصيغ القلة التى أريد بها الكثرة ، وصيغ الكثرة التى أريد بها القلة فهو صحيح ، لكنه لا ينقض ما قاله النحاة من تبادل الصيغ مواضعها لحكمة يدسها المتكلم فى ثنايا الصيغ المستعارة لغيرها ، وليس ذلك دليل ضعف الرأى ، لأن الخروج عن مقتضى الظاهر فى صيغ الألفاظ نهج مسلوك فى لسان العرب ، وفن من فنون البلاغة العربية ، ولا أظن أن هذا الكاتب أو غيره يمكنه القول بأن استعمال الماضى فى موضع المضارع من قوله تعالى : « **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** »(٩) واستعمال المضارع موضع الماضى فى قوله تعالى : « **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه** »(١٠) ووضع الأمر موضع المضارع فى قوله تعالى : « **قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون** »(١١) لا يمكن القول بأن هذا دليل ضعف الرأى فى القول باختلاف معانى الأفعال باختلاف صيغها . ولا أن كثرة ورودها فى القرآن دليل على أن صيغ الماضى والمضارع والأمر فى دلالاتها سواء .

ثم إن الكاتب أغفل - عمدا أو سهوا - ما قاله النحاة من أن اختصاص الجمع بالقلة أو الكثرة إنما هو فيما وجد له صيغتان : إحداهما للقلة والأخرى للكثرة . أما إذا لم يكن له إلا صيغة واحدة ، فإنها حينئذ تستعمل للقلة والكثرة ، والفيصل فى تعيين دلالتها هو القرائن . يقول أبو البقاء الكفوى : (أوزان جمع القلة للقلة إذا جاء للمفرد وزن كثرة ،

---

(٨) الخصائص ١/٣٤٣ .
(٩) النحل ١ .
(١٠) آل عمران ١٥٢ .
(١١) هود ٥٤ .

وإذا انحصر جمع التكسير فهى للقلة والكثرة ، وكذا ما عدا الستة للكثرة ، إذا لم ينحصر فيه الجمع ، وإلا فهو مشترك))(١٢) وعليه فاستدلال الكاتب بقوله تعالى : ((**إن المسلمين والمسلمات**)) غفلة عما قرروه ، إذ ليس للمسلم والمسلمة إلا صيغة جمع واحدة ، فهى هنا للكثرة بدلالة السياق وبقية ما استشهد به من الآيات يأتيك وجه بلاغته فى موضعه .

ويضرب على الوتر نفسه الدكتور محمد أبو الفتوح شريف فى بحث له بمجلة مجمع اللغة العربية ، فيقول (وإذا نظرنا إلى القلة والكثرة فى جموع التكسير نظرة واقعية بعيدة عن افتراضات الصرفيين وجدنا أن هذه القضية يمكن هدمها من أساسها . فجموع التكسير نوع واحد ، لا نوعان ، وهذا هو الأقرب فى رأيى للمنطق وواقع الاستعمال ، حيث لم يتقيد المستعمل العربى الأول للغة العربية قديما بما تخيله الصرفيون...) ويمضى إلى القول : (ومن ناحية أخرى نجد القرآن الكريم، وهو أعلى وأرفع نماذج الكلام العربى الفصيح قد استخدم بعض أوزان القلة التى زعمها الصرفيون فى الدلالة على الكثرة ، كما استخدم بعض أوزان الكثرة التى زعموها كذلك فى الدلالة على القلة، مما يؤكد انهيار هذه النظرة من أساسها ، فمن الأولى قول القرآن : ((**ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام**))(١٣) وقوله كذلك : ((**كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم**))(١٤) وقوله ((**من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة**))(١٥) فالكلمات : أقلام ، وأمواتا ، وأضعافا ، ووزن كل منها أفعال ، وهو من الأبنية التى اعتبرها الصرفيون أبنية قلة ، ودلالة كل منها فى الآيات الكريمة واضحة على الكثرة أيما وضوح ، كما أن لكل من كلمتى : أقلام وأموات جمعا آخر على أحد أبنية الكثرة

---

(١٢) الكليات ٥/٢٠١ .
(١٣) لقمان ٢٧ .
(١٤) البقرة ٢٨ .
(١٥) البقرة ٢٤٥ .

المزعومة ، وهما قلام على وزن فعال ، وموتى على وزن فعلى)(١٦) ٠

فاستشهاده بالآية الأخيرة مردود بما رددناه على صاحبه من قبل ، لأن « اضعافا » هى الصيغة الوحيدة فى جمع الضعف ، فتكون للقلة والكثرة معا ٠

والآية الأولى أوثر فيها جمع القلة « أقلام » على جمع الكثرة « قلام » لأن جمع الكثرة قليل الاستعمال ، فكان أشبه بالمهمل(١٧) والقرآن لا يلجأ إلى قليل الاستعمال إلا إذا كان وراءه غرض معنوى أو تناسب لفظى ، على أن النظم الكريم أحال هذه القلة كثرة بتوحيد الشجرة ، ليجعل كل أغصانها أقلاما ، ولو أنه قال : ولو انما فى الأرض من شجر قلام ، لتوزعت كثرة القلام على كثرة الشجر ، وصارت دون ما عليه النظم فى المبالغة بتكثير الأقلام ، وهو ما أوضحه بجلاء أبو حيان فى تفسيره ، فقال : (وفى هذا كلام من المبالغة فى تكثير الأقلام والمداد ما ينبغى أن يتأمل ، وذلك أن الأشجار مشتمل كل واحدة منها على الأغصان الكثيرة ، وتلك الأغصان كل غصن منها يقطع على قدر القلم ، فيبلغ عدد الأقلام فى التناهى إلى ما لا يعلم به ولا يحيط إلا الله تعالى)(١٨) ٠

أما جمع القلة فى « أموات » فقد رمز القرآن به إلى قلة شأن المخاطبين وهوان أمرهم على ربهم بدءا وإعادة ، فهو من استعارة القلة فى العدد لقلة شأن المخاطبين من الكفار وحقارتهم ٠ وسيجىء تفصيل هذا الموضع واستقصاء جموعه قلة وكثرة فى موقعه من الدراسة ٠

---

(١٦) مجلة مجمع اللغة العربية ج٤٦ ذو الحجة ١٤٠٠هـ ص ٨٦ - ٨٧ ٠
(١٧) انظر روح المعانى ٢١/٩٨ ٠
(١٨) البحر المحيط ٧/١٩٢ ٠

للغة إذاً أوضاعها وموجباتها على ما جرى به العرف العربى ، ولها كذلك بلاغتها فى مخالفة هذه الأوضاع والخروج عنها ، للفت الانتباه إلى غرض يكمن فى هذه المخالفة وترك الأنماط المعتادة فى كلامهم . وهذا الخروج هو كذلك إلف عربى فى بيان الفصحاء ، ومهيع يسلكه العارفون بطرائق لغتهم ومناحى التصرف فيها .

ومن ذلك كما قال ابن جنى : (وضعهم الاسم الواحد على جنسه كقولهم : أهلك الناس الدرهم والدينار ، وذهب الناس بالشاة والبعير . ولله فصاحة الحجاج وكثرة قوله على منبره : ياأيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، ألا تراه لما أشفق أن يظن به أنه يريد رجلا واحدا بعينه . قال وكلكم ذلك الرجل) (١٩) .

مخاطبة الحجاج الجمع بالواحد - لا شك - خروج عن معتاد الكلام ، لكن فيه من جمال الإثارة بجعل كل واحد من المخاطبين هو المقصود وحده بهذا الخطاب ، ما لا يمكن التعبير عنه بالمعتاد من طرائق الخطاب .

عرف هذا فقهاء اللغة وصيارفة الكلام ، وصرحوا بأن هناك قوانين تحكم صيغ الجموع واستعمالاتها ، وأن هناك أحوالا تقتضى الخروج عنها دون أن يكون ذلك هدما لقوانينها العامة ، كما ظنه المتعجلون والواقفون عند ظواهر النصوص . من ذلك ما جاء فى تعليل ابن جنى لقراءة طلحة « فالصوالح قوانت حوافظ للغيب »(٢٠) وموازنته الدقيقة بين جمعى القلة والكثرة فى القراءتين ، واعتذاره لحسان فى تقليل الأسياف قال : (التكسير هنا أشبه لفظا بالمعنى ، وذلك أنه إنما يراد

---

(١٩) المحتسب ٢/١٧٢ .

(٢٠) النساء ٣٤ .

هنا معنى الكثرة ، لاصالحات من الثلاث إلى العشر ، ولفظ الكثرة أشبه بمعنى الكثرة ، من لفظ القلة بمعنى الكثرة ، والألف والتاء موضوعتان للقلة ، فهما على حد التثنية بمنزلة الزيدون من الواحد ، إذا كان على حد الزيدان . هذا موجب اللغة على أوضاعها ، غير أنه قد جاء لفظ الصحة والمعنى الكثرة . كقوله تعالى : « **إن المسلمين والمسلمات** » **إلى** قوله : « **والذاكرين الله كثيرا والذاكرات** » والغرض فى جميعه الكثرة)(٢١) .

فهو يسلم بموجب اللغة على أوضاعها من اختلاف دلالات الصيغ ومقتضياتها ، ويسلم كذلك بأن هناك خروجا عن هذه الأوضاع باستعمال صيغة القلة فى موضع الكثرة ، ولا يرى ذلك هدما لسننها وطرائقها فى التعبير ، وإنما يصرف جهوده لاكتشاف أسرار هذه المغايرة ، فيقول : (وعذر ذلك عندى أنه قد كثر عنهم وقوع الواحد على معنى الجمع جنسا ، كقولنا : أهلك الناس الدينار والدرهم ، وذهب الناس بالشاة والبعير ، فلما كثر ذلك جاءوا فى موضعه بلفظ الجمع الذى هو أدنى إلى الواحد أيضا ، أعنى الجمع بالواو والنون والألف والتاء . نعم ، وعلم أيضا إذا جىء فى هذا الموضع بلفظ جمع الكثرة لا يتدارك معنى الجنسية فلهوا عنه ، وأقاموا على لفظ الواحد تارة ، ولفظ الجمع المقارب للواحد تارة أخرى ، إراحة لأنفسهم من طلب ما لا يدرك ، ويأسا منه ، وتوقفا دونه . فيكون هذا كقوله :

رأى الأمر يفضى إلى آخر
فصير آخره أولا

ومثل الجمع بالواو والنون والألف والتاء مجيئهم فى هذا الموضع

---

(٢١) المحتسب ١/١٨٧ .

بتكسير القلة ، كقوله تعالى : « **واعينهم تفيض من الدمع** » وقول حسان :

وأسيافنا يقطـرن من نجـدة دمـا . . . .

ولم يقل عيونهم ، ولا سيوفنا)(٢٢) .

لله در أبى الفتح ! كم كان دقيق الحس ، نافذ البصيرة ، حين أدرك أن جمع القلة هنا قد نحى به منحى الجنس ، لمقاربته للواحد ، وذلك أشمل من معنى الكثرة ، فكأنه قال : وسيفنا ، وأراد أن سيف كل منهم تسيل عليه دماء أعدائهم ، وكلهم حملة سيوف . وهذا دونه صيغة الكثرة التى تصرف الذهـن إلى معـنى الكثرة فيها ، فتحجب وراءهـا معـنى الجنسية الذى هو أشمل وأعم .

بمثل هذا الوعى لأسرار اللغة ومناحى التصرف فى أفانين القول ، كان إدراك الأولين من فقهاء اللغة وأرباب البيان فيها .

وتسليما منهم باعرافها ، وما جرى به لسانهم فى استعمالات الصيغ ودلالاتها ، عقد ابن قتيبة بابا فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » أسماه « مخالفة ظاهر اللفظ معناه » وذكر فيه كثيرا مما وضعه البلاغيون فى باب الخروج على خلاف مقتضى الظاهر ، كالالتفات ، ووضع صـيغة موضع أخرى ، مثل التعبير بالمـاضى عن المضارع ، وبلفظ الفاعل عن المفعول ، أو العكس ، وجعل منه إطلاق العام وإرادة الخاص ، كقـوله تعالى : « **يا أيهـا الرسـل كلوا من الطيبـات واعملوا صالحا** »(٢٣) (يريد النبى ﷺ)(٢٤) وإطلاق الجمع وإرادة الواحد ، كما فى قوله

---

(٢٢) المصدر السابق ١/١٨٧ ـ ١٨٨ .
(٢٣) المؤمنون ٥١ .
(٢٤) تأويل مشكل القرآن ٢٨٢ .

تعالى : « إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة »(٢٥) (كان رجل من القوم لا يمالئهم على أقاويلهم فى النبى ﷺ ويسير مجانبا لهم ، فسماه الله طائفة وهو واحد)(٢٦) فكانت تسمية الله للواحد طائفة تثقيلا لميزان صاحب الحق فى مواجهة الكثرة من أهل الباطل ، وامتداحا لشجاعته وقوة إيمانه .

وجعل منه إطلاق الواحد وإرادة الجمع ، كقوله عز وجل : « هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله »(٢٧) أى الأعداء(٢٨) .

غير أن البلاغيين الذين ذكروا معظم ما قاله فى تبادل الصيغ مواضعها ، فى باب الخروج على خلاف مقتضى الظاهر ، أو فى باب المجاز ، أغفلوا فى دراساتهم ما ذكره من مخالفة الظاهر فى صيغ الإفراد والجمع ، ولم نجد لهم سوى إشارة عارضة مثلما جاء فى كتاب تحرير التحبير لابن أبى الأصبع فى باب الإفراط فى الصفة من الإشارة إلى بيت حسان بن ثابت وما وجه إليه من نقد لتركه المبالغة فى مقام الفخر ، فقال بعد أن نقل تعريف قدامة للمبالغة : (وأنا أقول : قد اختلف فى المبالغة ، فقوم يرون أن أجود الشعر أكذبه ، وخير الكلام ما بولغ فيه ، ويحتجون بما جرى بين النابغة الذبيانى وبين حسان فى استدراك النابغة عليه تلك المواضع فى قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

---

(٢٥) التوبة ٦٦ .
(٢٦) تأويل مشكل القرآن ٢٨٣ .
(٢٧) المنافقون ٤ .
(٢٨) انظر تأويل مشكل القرآن ٢٨٥ .

والصواب مع حسان ، وإن روى عنه انقطاعه فى يد النابغة)(٢٩) .

لكننا لا نستطيع أن نغفل لونا من الدراسة للإفراد والجمع لا يخلو من الطرافة والمتعة ، يعتمد على الذوق وصدق الحس ، وإرهاف السمع لجرس الألفاظ وموسيقاها ، رائده ابن الأثير الذى أتاح له منهجه فى دراسة الألفاظ أن يعقد فصلا لاختلاف الصيغ ، تحدث فيه عن الألفاظ مفردة ومجموعة ، وكشف فيه عما يعذب مفرده دون جمعه ، وما يحسن فيه الجمع دون المفرد ، معتمدا فى أحكامه على الذوق وحده ، واقفا عند موسيقى الألفاظ وعذوبتها فى السمع ، دون أن يتجاوزها إلى دلالات الألفاظ وإيحاءاتها . يقول ابن الأثير : ((ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ، ولا يستفتى فى ذلك إلا الذوق السليم ، وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره ، فمن ذلك لفظة « اللب » الذى هو العقل ـ لا لفظة اللب الذى تحت القشر ـ فإنها لا تحسن فى الاستعمال إلا مجموعة ، ولم ترد مفردة ، كقوله تعالى: « **وليتذكر أولوا الألباب** »(٣٠) و « **إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** »(٣١) وأشباه ذلك ، وهذه اللفظة ثلاثية خفيفة على النطق ، ومخارجها بعيدة ، وليست بمستثقلة ، ولا مكروهة))(٣٢) .

وعلى الرغم من طرافة هذه الدراسة ، التى ترددت فى بعض مؤلفات علوم القرآن على أنها لون من الإعجاز فى المفردات القرآنية ،

---

(٢٩) تحرير التحبير ١٤٨ .
(٣٠) ص ٢٩ .
(٣١) الزمر ٢١ .
(٣٢) المثل السائر ١/٣٨٤ .

فإنها لم تفتح فى مؤلفات البلاغيين مجالا لدراسة هـذه الصيغ دراسة دلالية ، والبحث عن أسرار النظم فى تراكيبها ، للكشف عن سر إيثارها مفردة والعزوف عن جمعها ، أو اختيار الجمع وتحـاشى مفـرده ، بل إن ما كتبه ابن الأثير لم يجد له موضعا فى مناهج المتأخرين من رجالات البلاغة ، وظلت صيغ المفردات والجموع إلى اليوم خارج إطار الدرس البلاغى ، اللهم إلا ما دار حـول الاستغراق باللام فى المفرد والجمـع ، وأيهما أشمل ، وكله يدور فى فلك ما قـاله السكاكى : (وههنا دقيقة ، وهى أن الاستغراق نوعان : عرفى وغير عرفى ، فلابد من رعاية ذلك ، فالعرفى نحو قولنا : جمع الأمير الصاغة ، أى جمع صاغة بلده وأطراف مملكته فحسب ، لا صاغة الدنيا ، وغير العرفى نحو قولنا : الله غفـار الذنوب ، أى كلها ، واستغراق المفرد يكون أشمل من استغراق الجمع ، ويتبين ذلك بأنه ليس يصـدق : لا رجل فى الـدار فى نفى الجنس ، إذا كان فيها رجل أو رجلان ، ويصدق : لا رجال فى الدار ، ومن هذا يعرف لطف ما يحكيه تعالى عن زكريا عليه السلام : « **رب إنى وهـن العظـم منى** » دون وهن العظـام ، حيث توصل باختيـار اللفـظ إلى الإطناب فى معناه)(٣٣) .

هذا كل حظ الإفراد والجمع فى دراسات علم المعـانى ، وهو الذى ظل يتردد فى كتب التلخيص وشروحها وحواشيها ، مع أن مثل هـــذه النكتة التى أشار إليها السكاكى فى العدول عن الجمع إلى المفـرد كان حريا أن يفتح بابا واسعا للدرس وهو لا شك مفض إلى لطائف لا تتناهى .

لكن نحسن حظ البلاغة أن هـذا البـاب الذى أوصد أمام دراسة

---

(٣٣) مفتاح العلوم ١٢٢ .

الإفراد والجمع فى المؤلفات البلاغية فتحت فى مقابله أبواب كثيرة فيما دار من دراسات حول أسرار الصيغ فى الذكر الحكيم ، ولم تقف عند حد ما جاء فى التفاسير ، وإنما امتدت إلى دراسات تتصل بعلوم القرآن ، من مثل ما عقده بدر الدين الزركشى فى البرهان حول خطاب الجمع بلفظ الواحد(٣٤) وخطاب الواحد بلفظ الجمع(٣٥) . والفصل الممتع الذى عقده ابن القيم فى كتابه بدائع الفوائد ، واستهله بقوله : (فائدة بديعة فى ذكر المفرد والجمع ، وأسباب اختلاف العلامات الدالة على الجمع ، واختصاص كل محل بعلامته ، ووقوع المفرد موقع الجملة وعكسه ، وأين يحسن مراعاة الأصل ، وأين يحسن العدول عنه ، وهذا فصل نافع جدا يطلعك على سر هذه اللغة العظيمة القدر المفضلة على سائر لغات الأمم)(٣٦) .

ثم يقول فى سر العدول إلى صيغة التكسير دون التصحيح فى « شعراء » (فتأمل هذا التفريق وهذا التصور الدال على أن أذهانهم قد فاقت أذهان الأمم ، كما فاقت لغتهم لغاتهم ، وتأمل كيف لم يجمعوا شاعرا جمع سلامة مع استيفائه شروطه ، بل كسروه فقالوا : شعراء ، إيذانا منهم بأن واحده على زنة فعيل ، فجمعوه جمعه ، كرحيم ورحماء لما كان مقصودهم المبالغة فى وصفهم بالشعور ، ثم انظر كيف لم ينطقوا بهذا الوجه المقدر ، كراهية منهم لمجيئه بلفظ شعير وهو الحب المعروف ، فأتوا بفاعل ، ولما لم يكن هذا المانع فى الجمع قالوا شعراء)(٣٧) .

هذا الحس العربى المرهف ، الذى يدفع إلى العدول عن صيغة

---

(٣٤) البرهان فى علوم القرآن ٢/٢٣٣ .
(٣٥) السابق ٢/٢٣٤ .
(٣٦) بدائع الفوائد ١/١٠٨ .
(٣٧) السابق ١/١١٠ .

تختلط بمعنى غير محبب فى مفردها ، إلى صيغة أخرى أكثر امتلاء بمعناها ، ثم العدول بها فى الجمع إلى صيغة التكسير ، حملا لها على زنة مفردها الذى لم ينطق به ، لتشيع نوعا من المبالغة لا يكون فى صيغة التصحيح ، إنما هو دليل بالغ على حكمةواضعها ودقة إحساسه ، وهو ما غفل عنه هؤلاء الذين يزعمون أن العربى حين نطق بصيغ الجموع لم يدر بخلده أن يكون بعضها دالا على القلة ، والآخر دالا على الكثرة .

ويقف ابن جنى وقفات رائعة فى بيان دقائق الفروق بين صيغ الإفراد والجمع ، فيما تعددت قراءاته من النظم الحكيم ، كاشفا عن كثير من النكات البلاغية .

من ذلك تعليله لقراءة الأعمش بإفراد المسكن فى قوله تعالى مصورا هلاك قوم عاد : « تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم »(٣٨) يقول أبو الفتح : (وحسن أيضا أن يريد « بمسكنهم » هنا الجماعة ، وإن كان قد جاء بلفظ الواحد ، وذلك أنه موضع تقليل لهم ، وذكر العفاء عليهم ، فلاق بالموضع ذكر الواحد لقلته عن الجماعة) (٣٩) .

فانظر إلى دقة هذه النكتة وتصويرها لشدة هلاك القوم وانمحاء آثارهم ، حتى لم يعد ما يدل عليهم سوى شبح ضئيل لمسكن واحد استبد به العفاء ، فكانت استعارة الواحد بدلالته على القلة تجسيدا لضآلة أثرهم وتعبيرا عن شدة غضب الله وعظيم انتقامه .

ومنه ما جاء تعليل ابن جنى لقراءة ابن عباس وآخرين « عبدى » بالإفراد فى قوله تعالى : « فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »(٤٠)

---

(٣٨) الأحقاف ٢٥ .
(٣٩) المحتسب ٢/٢٦٩ .
(٤٠) الفجر ٢٩ - ٣٠ .

قال : « هذا لفظ الواحد ومعنى الجماعة ، أى عبادى ، كالقراءة العامة ، وقد تقدم القول على نظيره ، وأنه إنما خرج بلفظ الواحد ليس اتساعا واختصارا عاريا من المعنى ، وذلك أنه جعل عبـاده كالواحد ، أى لا خلاف بينهم فى عبوديته ، كما لا يخالف الإنسان نفسه ، فيصير كقول النبى ﷺ : « وهم يـد على من سـواهم » أى متضافرون متعـاونون لا يقعد بعضهم عن بعض ، كما لا يخون بعض اليد بعضا »(٤١) .

توحـدت قلوب العبـاد حـول معبودهم الواحـد ، فذابت الفوارق بينهم على كثرتهم ، وانمحى كل أثر للخـلاف ، بل واسـتحال ، كمـا يستحيل أن يقع خـلاف بين الإنسان ونفسه ، وكان جزاؤهم كذلك عنـد الله تعالى أن تضمهم جنة واحـدة ، ليكتمل الانس ، وتذوب النفوس فى نفس واحـدة ، فكان إفراد الجنة مع إفراد العبد غاية فى التناسب لفظا ومعنى . أرأيت إلى هـذا المعـنى الشريف كيف شارفته نفس أبى الفتح ورمقتـه ؟ !

ثم يلفت رحمه الله إلى نوع من التجانس ، ربما يبدو فى نظـــر الناس أمرا هينا لا ينبغى أن يفسر به ترك صيغة إلى أخـرى ، ويراه أبو الفتح مقصدا شريفا من مقاصد هـذه اللغـة ، لأن العـربى كما هو حريص على تناسب المعانى حريص كذلك على تناسب الألفـاظ ، ومن أجله ترجح صيغة على أخرى .

يقول تعليلا لقراءة النبى ﷺ وأبى هريرة « قرات أعين » فى (قوله تعالى : ((فلا تعلم نفس ما أخـفى لهم من قـرة أعـين))(٤٢) (القرة مصدر ، وكان قياسه أن لا يجمع ، لأن المصـدر اسـم جنس ، والأجناس أبعد شىء عن الجمعية ، لاسـتحالة المعـنى فى ذلك ، لكن

(٤١) المحتسب ٢/٣٦٠ .　　(٤٢) السجدة ١٧ .

جعلت القرة هذا نوعا ، فجاز جمعها ، كما تقول : نحن فى أشـغال ، وبيننا حروب ، وهناك أحزان وأمراض ، وحسن لفظ الجمع هنا أيضـا إضافة القرات إلى لفظ الجماعة ، أعنى الأعين ، فقولنا إذا : أشـغال القوم أشبه لفظا من أشغال زيد ، وكلاهما صحيح ، غير أن فيه ما ذكرته ، وليس ينبغى أن يحتقر فى هذه اللغة الشريفة تجانس الألفـاظ ، فإن أكثرها دائر عليه فى أكثر الوقت)(٤٣) ٠

وعبارته الأخيرة وحدها درس فى فقـه اللغة ، وتأكيد على لـون من ألوان الجمال فى بياننا العربى ٠ وقد سبقه إليـه شيخه أبو عـلى الفارسى حين قال فى قوله تعالى : « **بلى من كسب سـيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** »(٤٤) : () السيئة فى قوله « بلى من كسب سيئة » يجـوز أن يكون الكفر ، ويجـوز أن يكون كبيرا يوقع ويهلك ، ويجوز أن يكون « من » للجزاء الجازم ، ويجـوز أن يكون للجزاء غير الجازم ، فتكون السيئة وإن كانت مفردة تراد بهـا الكثرة ٠ فكذلك تكون خطيئته مفردة ، وإنما حسن أن تفرد لأنه مضاف إلى ضمير مفرد ، وإن كان يراد به الكثـرة)(٤٥) ويـدلل على ذلك بقوله : (ومما يرجح به قول من أفرد ولم يجمع ، لأنـه مضـاف إلى مفرد ، فأفرد لذلك وكان الوجه ، قوله : « **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه** »(٤٦) فأفرد الأجر لما كان مضافا إلى مفرد ، ولم يجمع كما جمع قوله « **وآتوهن أجورهن بالمعروف** »(٤٧) فكما لم يجمع الأجر فى الاضافة إلى ضمير المفرد ، كما جمع لـا أضيف إلى

(٤٣) المحتسب ٢/ ١٧٤ ٠
(٤٤) البقرة ٨١ ٠
(٤٥) الحجة فى علل القراءات السبع ٢/ ٩٦ ٠
(٤٦) البقرة ١١٢ ٠
(٤٧) النساء ٢٥ ٠

الضمير المجموع ، كذلك ينبغى أن تكون الخطيئة مفـردة إذا أضـيفت إلى الضمير المفرد ، وإن كان المراد به الجميع)(٤٨).

أما التفاسير فقد كانت طويلة الباع فى الكشف عن أسرار الإعجاز فيما تبادلت فيه المفردات والجموع مواقعهـا ، وتناثرت فى ثنـاياها فرائد النكات التى جاءت بهـا قرائح أصـحاب الأذواق الرفيعـة من المفسرين ، وكانت بحاجة إلى من ينظمها بعد أن يجمع شتاتها ، ويقيد أوابدها ، ويضيف إليها ما يفتح الله به عليه مما لم تقـع عليـه أيـدى هؤلاء الأعلام ، وهو لا شك بتوفيق الله وصدق النيـة والعمل ، عـائد بالكثير من الأسرار التى صرف إليها همته ، وجعلها قبلته وغايته ، على أن يثرى ذلك بالنقاش والمناظرة ، والأخذ والرد مسلما بفضل السـبق لأهله ، دون أن يحقر نفسه ما أفاء الله تعالى عليها من فيض أسراره ، هادفا من وراء ذلك إلى إثراء الحقل البلاغى فى مجال صيغ الألفـاظ بدراسة للمعانى البلاغية فى صيغ المفردات والجموع تقف إلى جـانب الدراسات البلاغية فى صيغ الأفعال والمشتقات .

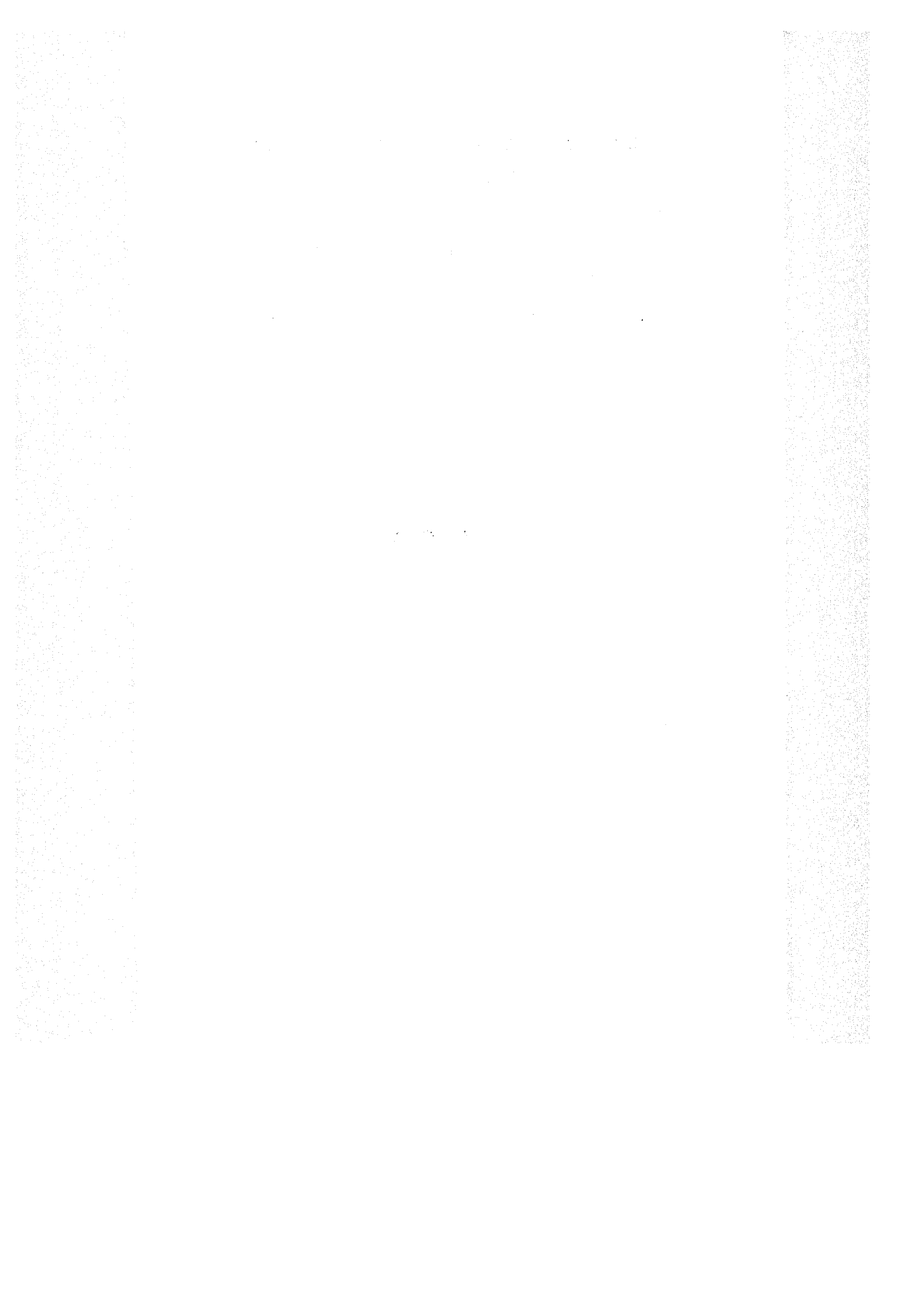
وقد دارت دراسات المفسرين حـول عدة اتجاهات : التجوز بصيغة المفرد عن الجمع ، والتجوز بالجمع عن الواحد ، والتجوز بالقـلة عن الكثرة ، والتجوز بالكثرة عن القلة ، وهى التى ستدور عليها فصـول هذه الدراسة ، تتبع مواطن الخروج عن الظاهـر من هـذه الصـيغ ، مفسرة هذا الخروج تفسيرا بيانيا ، مرهفة السمع إلى همس السـياق ، تجمع النظير إلى النظير ، مفصحة عما يربط بين النظائر من الأغراض والغايات، تقف طويلا أمام مشتبه النظم، راصدة مواضع الاتفاق ، كاشفة عن أسرار المغايرة . تستمع بجلال وتوقير لكل ما ألهم الله به أسلافنا ،

---

(٤٨) الحجة ٢/٩٧ .

وافاض على اقلامهم من أسرار كتابه ، ناسبة لكل ذى فضل فضله ، تقبل ما تقبل مثنية على صاحبه ، وترد ما ترد فى إجلال وتقدير ، مؤمنة بأن الله تعالى وضع فى كتابه المعجز من الأسرار ما أفاض به على من طالت أعناقهم ، وبعدت غاياتهم من أسلافنا الصالحين ، وما لا يحرم منه مثابرا مثلى ، قصر باعه ، وتلاصقت خطواته ، لكنه يرى فى تعلقه باهدابهم ، وترسم خطاهم ، ما يشفع له عند القصور ، ويعذر له عند الخطأ ٠

* * *



الفصل الأول

وضع المفرد موضع الجمع

الإفــراد فى مقــام التعــذيب :

يتكرر فى القرآن كثيرا إفراد الأسماء والضمائر فى الحـــديث عن عذاب الكفار والمجرمين ، وجمعها فى وصف ثواب المؤمنين والطائعين ، وكأنه يرمز بالإفراد إلى مضاعفة ألم العقاب وإطباق الشعور بالوحـدة والاغتراب على أنفاس المعذبين . من ذلك قوله تعالى : « **من كان يريد العــاجة علجنا لــه فيها ما نشاء لمــن نريد ثم جعلنــا لــه جهنم يصلاها مذموما مدحـــورا ومن أراد الآخـــرة وســـعى لهـــا ســعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** »(١) .

يكشف الإفراد عن طبيعة نفس المتعجل للنعيم ، الحـريص على الانفراد به دون الآخـرين ، غير مبال بإزهاق روح الجماعة فى ســبيل الفوز بمغنم دنيوى ، فلا عجب أن يكون جـزاؤه من جنس ما عاشه فى دنياه فهو منبوذ مطرود ، مسجون فى قفصه ، ملقى فى نار يعـذب فيها بلا أنيس يشاركه أنينه ، وكأنما خـلق الله جهنـم له وحـده ، فيـكون لإحساسه بالوحدة والانفراد بالعذاب ما يفوق ألم العـذاب نفسه « فإن له جهنم يصلاها مذموما مدحـورا » . أما المقبـل على الله تعـــالى ، الحريص على أن يأخذ بيـد غيره إلى ما يبتغيه من الخـــير ، فـإنه لا يسعى إلى الانفراد بمغنم ، بل يجـد أنسه ولذته بين إخوانه ، يقطفون معه ثمار ما زرع وزرعوا معه ، وهو فى سعيه للآخـرة يطلبها بتعـاونه مع الجماعة ، وحرصه على إشاعة الخير فيها ، يحرك بســعيه دوافـع الخير فى مجتمعه ، ويفجر طاقات العمل الصـالح فى أمته ، ومن ثـم يتقاسم الجميع منائح الرضـا والثناء من ربهـم « **فأولئك كان ســعيهم**

---

(١) الإســراء ١٧ ـ ١٨ .

مشكوراً » وحسب الساعى إلى الخير شرفا أن يسعى دعاة الحق والخير سعيه . ففى الجمع تشريف وتكريم .

وفى نفس السورة يقول تعالى : **« يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فاولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ومن كان فى هذه اعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا »(٢) .**

فيجرى الحديث عن المؤمن مفردا حين يتلقى كتابه بيمينه ، ثم يتحول إلى الجمع عند البشارة بالنجاة والفوز « فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا » لكنه فى الحديث عن الضال يستمر معه فى صيغة الإفراد ، مطابقا بين عمله فى الدنيا وجزائه فى الآخرة « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى » فالأول يستروح النعيم مؤتنسا بإخوانه ورفاقه ، سعيدا بين أهله وأحبائه ، والثانى بعيد شارد ، يضرب فى دنياه على غير هدى ، وهو كذلك وحيد فى سجن الآخرة ، لا يرى أحدا يشاركه فى جهنم عذابه . أتراه يشير بذلك إلى أن الكافر متمرد على روح الجماعة التى هى صوت الحق ، خارج عن الفطرة التى هى لحمة النسب بين الخلق ؟!

وعلى غرار ذلك جاء قوله تعالى مقابلا بين المجرم والمؤمن : **« إنه من يات ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن ياته مؤمنا قد عمل الصالحات فاولئك لهم الدرجات العلى »(٣) .**

فالأول يساق إلى ربه موسوما بعلائم إجرامه ، يتجرع آلام الوحدة ، لا أمل له فى توزيع ما اقترفه على أصحاب له ، تفتح جهنم ذراعيها لاستقباله ، ثم توصد الأبواب خلفه ، فلا يجد حوله من يتأسى به ،

---

(٢) الإسراء ٧١ - ٧٢ .
(٣) طه ٧٤ - ٧٥ .

جزاء أنانيته وأثرته ، وعزوفه عن روح الخير فى مجتمعه ، فهـو فى دنياه لا يألف ولا يؤلف ، وفى آخرته لا يواسى ولا يأنس ، فإذا قارنته بمقابله ، فإنك لا تقابل فردا بفرد ، وإنما تقابل فردا بأمـة ، ذلك أن المؤمن تصحبه أعماله الصالحات ، فهو يـزف إلى ربـه فى موكب من العمل الصالح ، المحـرك لمنـازع الخير فى أمته . ألا ترى إلى اختصاص المؤمن بهذا الوصف « قد عمل الصالحات » دون الاكتفاء بوصـفه بالإيمان كما اكتفى بوصف الأول بالإجـرام ، فالمجـرم سجين جـرمه ، والمؤمن قرين عمله الصالح ، ولأن الأول يعيش لنفسه ، كافاه الله بالإبعاد والطرد ، وألقاه فى نار يحس فيها بأن أحـدا لا يعـذب سواه « فإن لـه جهنم » ، والثانى فياض بالخير والنفع لمن حـوله فكافاه الله بأن جعله يتوسطهم فى جنة الخلـد ، ينعم بأنسهم فى أعلى درجاتهـا ، وكأنه لا يسره أن يكون فى أعظم درجات النعيم حتى يكون مع أحبائه وبين أصـفيائه « فأولئك لهم الدرجات العلى » .

ومن عجيب ذلك ما تجـده يشير إلى هـذا المعنى بلفظ واحد تتغير صيغته بالإفراد والجمع ، كما فى قوله تعالى : **« ومن يطـع الله ورسوله يدخله جنـات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيـم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عـذاب مهـين »**(٤) .

فقد جمع « خالدين » فى وصف ثواب الطـائعين ، وأفـرده فى وصف عقاب « العاصين » فكان فى الجمع تكريم بالأنس ، وفى الإفراد تعذيب بالوحشـة والاغتراب ، وقـد استشرف هـذا المعـنى العـلامة أبو السعود فكان من بوارق التوفيق والهداية قال رحمه الله : (ولعـل إيثار الإفراد ههنا نظرا إلى ظاهر اللفظ ، واختيار الجمع هنـاك نظرا

---

(٤) النساء ١٣ - ١٤ .

إلى المعنى ، للإيذان بأن الخلود فى دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس ، كما أن الخلود فى دار العذاب بصفة الانفراد أشد فى استجلاب الوحشة)(٥) .

وهذا هو النظم الكريم يجسد الإحساس بالوحشة ويضاعف ألم العذاب بانفراد الكافر فى عذابه ، يطعم وحده شر الطعام ، ويتجرع بمفرده مر الشراب ، فيؤثر ضمير المفرد فى الغيبة والخطاب ، تحقيقا لهذا الغرض : « **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم** »(٦) .

وفاق وتجانس بين دنيا الكافر وأخراه ، إحساس بالتفرد فى العزة ، وإحساس بالتفرد فى العذاب . قابل ذلك بحديث الله عن المؤمن عقب ذلك وكيف ساقه الله بصيغة الجمع ، العاكس لروح الجماعة وضمير الأمة « **إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** »(٧) فكان التقابل والالتقاء نعيما فوق النعيم كما كان الانفراد والاغتراب عذابا فوق العذاب .

ثم انظر كيف عدل النظم الكريم إلى صيغة الجمع فى التمتع بالأكل والشرب من خيرات الجنة إدخالا للأنس والسعادة على نفس المؤمن : « **فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية** »(٨) .

---

(٥) تفسير أبى السعود ١٥٤/٢ .
(٦) الدخان ٤٣ ـ ٤٩ .
(٧) الدخان ٥١ ـ ٥٥ .
(٨) الحاقة ١٩ ـ ٢٤ .

إذ المؤمن بطبعه لا يحب الانفراد بالخير ، ولا يسعد بالعيش منعما مع حرمان إخوانه وأهليه ، فجازاه الله فى جنته بأن أفاض خيره عليه وعلى من أحبه وأسعده فى دنياه ، ليكتمل أنسه وسروره **« كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية »** ٠

فإذا ما تحدث القرآن عن الكافر والعاصى غاير فى نظمه بالعدول إلى الإفراد **« وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غلسين »**(٩) ٠

هل إفراد الضمائر هنا وتاكيدها بنفى الصديق المشارك له فيما يعانيه من سوء العذاب ليأكل وحده شر مأكل ، ويشرب منفردا أسوأ مشرب إلا زيادة فى الإيلام وتضعيف للعذاب ؟ ثم أليس ذلك دليلا على أن المؤمن خيِّر نفاع ، وأرض خصبة تستقبل هدى السماء فترتوى وتفيض بخيرها على الناس حولها ، وأن الكافر ضيق العطن كز النفس تتملكه **الأثرة والأنانية ؟!** ٠

وهذا موطن أخير نسوقه ليتأكد لنا غرض النظم الحكيم من صيغة الإفراد فى تعرية الكافر يوم القيامة من أوليائه ، وسوقه إلى حيث يلاقى مصيره ، مجردا من أعوانه وأنصاره **« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وقال قرينه هذا ما لدى عتيد القيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله إلها آخر فالقياه فى العذاب الشديد »**(١٠) ٠

---

(٩) الحاقة ٢٥ - ٣٦ ٠
(١٠) ق ٢١ - ٢٦ ٠

تتابعت الضمائر مفردة لتبرز الكافر فى ساحة العدل الإلهى ، وكأنه يحاسب وحده من بين الخلق أجمعين ، ثم يلقى فى جهنم فلا يرى حوله من كانوا معه يحادون الله ورسوله ، وكما حبسته أثرته فحجب الخير والنفع عن الناس « مناع للخير » حجب الله الخلق عنه وأبقاه فى محبسه فريدا معزولا : « **فألقياه فى العذاب الشديد** » .

أين ذلك من دخول المؤمن الجنة فى موكب من أصحابه ، يتعالى هتافهم بحمد الله وشكره « **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود** »(١١) .

فإذا كان المؤمن يسره ثناء الله تعالى عليه ، وإبراز مزاياه وفضائله بصيغة الإفراد إلماحا إلى كماله فيها « أواب حفيظ » « من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » فإن سروره لا يكتمل إلا حين يشمل الله بفضله ورضاه أحبته وإخوانه ومن ساروا معه على طريق الهداية ، فكان العدول إلى الجمع « ادخلوها بسلام » تكريما إلى تكريم ، وسعادة دونها كل سعادة .

« وحدة الحق » :

تؤدى صيغة الإفراد دورا هاما فى الإفصاح عن وحدة الحق ، وتوحد السبيل الموصلة إليه ، فى مقابلة تعدد الباطل وأهواء أتباعه ، وتشعب مسالكه ، وحيرة أصحابه ، والعلم فى ذلك قوله تعالى : « **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** »(١٢) .

إفراد الصراط يشير إلى أن منهج الله تعالى واحد ، والسائر على

---

(١١) ق ٣١ - ٣٤ .

(١٢) الأنعام ١٥٣ .

طريقه لا تتوزعه الأهواء ، ولا تضل به المسالك ، وجمع السبل يومئ إلى تعدد طرق الغواية والضلال ، والسائر عليها تلعب برأسه الهواجس، وتتنازعه الظنون والأوهام ·

وتبعا لذلك تعددت ولايات الضلال واتحدت ولاية الحق : **« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات »(١٣)** ·

للمؤمنين ولى واحد ، تتجه إليه قلوبهم ، وتتوحد حوله أهدافهم ، والكافرون تتوزعهم الولايات بتعدد ضلالاتهم وأهوائهم ، فهم أسرى من أضلوهم يسلمون أزمتهم لكل سائق ، لذا أفرد ولى المؤمنين ، وجمع ولى الكافرين ، ولم يشأ النظم الكريم أن يجمع الطاغوت كما جمع الأولياء فيقول : أولياؤهم الطواغيت ، كما يقضى به ظاهر التناسب ، للإشارة إلى أن جميع المضلين يستعبدهم الشيطان ، ويحقق بهم غايته

أما ولاية المؤمن لرسول الله وإخوانه من المؤمنين فهى مستمدة من ولاية الله ، وليست ولاية غيرها ، وهذا هو السر فى وضع المفرد موضع الجمع من قوله تعالى : **« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا »(١٥)** · يقول الزمخشرى : (فإن قلت : قد ذكرت جماعة ، فهلا قيل : إنما أولياؤكم ؟ قلت : أصل الكلام : إنما وليكم الله ، فجعلت الولاية لله على طريق الاصالة ، ثم نظم فى سلك إثباتها لرسول الله ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع ، ولو قيل : إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن فى الكلام أصل وتبع)(١٦) ·

---

(١٣) البقرة ٢٥٧ ·
(١٤) ص ٨٢ ·
(١٥) المائدة ٥٥ ·
(١٦) الكشاف ١/٦٢٣ ·

ومما يدل على أن القرآن قصد بالإفراد هذا المعنى ، ما جاء بعد هذه الآية من النهى عن موالاة الكافرين ، حيث جاء بالأولياء جمعا ، مع أن المفرد فى سياق النهى أشمل من الجمع ، فتركه للغرض المشار إليه « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء** »(١٧) .

وهو تحذير بالغ من تعدد غايات الكفار واختلاف أهوائهم ، فمن يوالهم من المؤمنين فهو مسلم نفسه لرياح مختلفة الهبوب ، ملق نفسه فى أودية من الضلال لا تنتهى إلى غاية .

واتساقا مع هذه النكتة التى قصد إليها النظم الكريم جاء قوله تعالى : « **ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجدلهم أولياء من دونه** » بإفراد المهتدى حملا على لفظ « من » وجمع المضلين حملا على المعنى « فلن تجد لهم أولياء » تأكيدا على ما أسلفناه من وحدة الحق ، وتشعب طرق الضلال . يقول الجمل فى حاشيته نقلا عن السمين : (ووجه المناسبة فى ذلك ـ والله أعلم ـ أنه لما كان الهدى شيئا واحدا ، غير متشعب السبل ناسبه التوحيد ، ولما كان الضلال له طرق متشعبة ، نحو « **ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** » ناسب الجمع الجمع)(١٨) .

ومما هو ذاهب إلى وحدة الحق وتعدد الباطل ما تراه من جمع الظلمات وإفراد النور ، فى اثنى عشر موضعا من كتاب الله ، هى كل المواضع التى اقترن فيها النور بالظلمات وكان فى جميعها ـ ما عدا موضعين ـ يرمز بالنور إلى هداية الإيمان التابعة من المصدر الحق ، ويرمز بالظلمات إلى طرق الغواية ومتاهات الشرك ، كما نجده فى

---

(١٧) المائدة ٥٧ .

(١٨) الفتوحات الإلهية ٢/٦٤٩ .

قوله تعالى : « كتاب انزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور »(١٩) « قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور »(٢٠) « هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور »(٢١) « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات »(٢٢) .

فعلى الرغم من دأب القرآن على رعاية التناسب بين الألفاظ كما نراه فى المناسبة بالإفراد بين الأعمى والبصير ، والظل والحرور ، والمناسبة بالجمع بين الأحياء والأموات ، فإننا نجده خالف ما يقضى به التناسب بين الظلمات والنور ، على النحو الذى أطرد فى كل المواضع ليلفت بهذه المغايرة إلى تعدد الضلالات واختلاف أهواء الواقفين على سبيلها يحذر من إسلام الزمام لقواد الضلال يتجاذبونه ويتلاعبون بمصيره . وقد تناغم الإفراد والجمع على نحو ينادى بالإعجاز فى قوله تعالى : **« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات »(٢٣)** حيث تعانقت وحدة الولاية للواحد الحق ، مع وحدة صراطه المستقيم المعبر عنه بالنور ، وتلافت ولايات الشيطان المتعددة ، مع تعدد سبل الضلال المتمثلة فى ظلمات الشرك ، ومتاهات الغواية . يقول أبو حيان : (وجمعت الظلمات لاختلاف الضلالات ، ووحد النور لأن الإيمان واحد)(٢٤) وذكر الألوسى مثل هذا ، وزاد عليه وجها آخر ، فقال : (وأفرد النور لوحدة الحق ، كما أن جمع الظلمات

---

(١٩) إبراهيم ١ .
(٢٠) الرعد ١٦ .
(٢١) الأحزاب ٤٣ .
(٢٢) فاطر ١٩ - ٢٢ .
(٢٣) البقرة ٢٥٧ .
(٢٤) البحر المحيط ٢/٢٨٣ .

لتعدد فنون الضلال ، أو أن الأول إيماء إلى القلة والثانى إلى الكثرة)(٢٥) .

وليس بين الوجهين تعارض ولا مانع من إرادتهما معا ، فوحدة الحق أمر ثابت ، وقلة أتباعه أمر نطق به الذكر الحكيم « **وقليل من عبادى الشكور** »(٢٦) غير أن الألوسى فى موضع آخر نحى بالقلة والكثرة منحى يذهب بهما إلى أن النور ـ حقيقة أو مجازا عن الإيمان ـ ليس قليلا فى ذاته ، والظلمة الحقيقية ، أو ما تجوز بها عنه من الكفر ليست كثيرة فى ذاتها ، وإنما مدار الكثرة والقلة ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن من استعظام الكفر وإن قل ، واستقلال الخير وإن كثر ، حتى لا يستقيم إلى القليل من العمل ، كما أن الظلمة لكراهة النفس لها يستكثر قليلها ، والنور لطلب النفس الاستزادة منه يستقل كثيره ، وهذا الوجه ناظر إلى حال المخاطب لا إلى حال الخطاب . يقول الألوسى : (ومن اللطائف أن الظلمة حيثما وقعت فى القرآن وقعت مجموعة ، والنور حيثما وقع وقع مفردا ، ولعل السبب هو أن الظلمة وإن قلت تستكثر ، والنور وإن كثر يستقل ما لم يضر ، وأيضا كثيرا ما يشار بهما إلى نحو الكفر والإيمان ، والقليل من الكفر كثير ، والكثير من الإيمان قليل ، فلا ينبغى الركون إلى قليل من ذاك ، ولا الاكتفاء بكثير من هذا)(٢٧) .

وأحسب أن فى هذا الوجه من التكلف ما يجعله دون الأول ، والوجه عندى أن جمع الظلمات شأنه شأن جمع السبل فى التعبير عن تشعب طرق الضلال ، وتوحيد النور كتوحيد السبيل والولى فى الإيماء إلى وحدة الحق . يقول ابن قيم الجوزية : (والمقصود أن طريق الحق

---

(٢٥) روح المعانى ٣/١٤ .
(٢٦) سبأ ١٣ .
(٢٧) روح المعانى ١/١٩٨ .

واحد ، إذ مرده إلى الله الملك الحق ، وطرق الباطل متشعبة متعددة ، فإنها لا ترجع إلى شيء موجود ، ولا غاية لها توصل إليها ، بل هي بمنزلة ثنيات الطريق ، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود ، فهي وإن تنوعت فأصلها طريق واحد ، ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل ، والنور بمنزلة طريق الحق ، بل هي هي أفرد النور وجمعت الظلمات)(٢٨) .

والموضعان اللذان يحتملان إرادة الحقيقة في الظلمات والنور ، هما قوله تعالى في تمثيل حال المنافقين : « **مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون** »(٢٩) وقوله تعالى : « **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور** »(٣٠) .

ففي الموضع الأول ألمح القرآن بإفراد النور وجمع الظلمات إلى تكاثر شبهات الباطل في نفوس المنافقين ، وغلبة الأهواء على ومضة الحق التي تلتمع في قلوبهم ، ثم سرعان ما تتلاشى وسط ظلام الباطل المتكاثف ، شأن من استوقد نارا في ليل بهيم ، فلما انطفأت ناره تضاعف الإحساس بالظلمة ، وشدة وطأتها على النفوس ، فهي (وإن كانت ظلمة واحدة لكنها لشدتها استعير لها صيغة الجمع مبالغة)(٣١) ففي جمع الظلمات مجاز بالاستعارة ، استعيرت فيه الكثرة للدلالة على الشدة .

والموضع الثاني : يحتمل إرادة الحقيقة ، فيكون جمع الظلمات دليلا على أن المعتم من الأجرام الضخمة في الكون المنظور ، والمسافات

---

(٢٨) بدائع الفوائد ١١٩/١ .
(٢٩) البقرة ١٧ . (٣٠) الأنعام ١ .
(٣١) روح المعاني ١٩٧/١ .

المعتمة بين الأجرام أكثر من الأجرام والمسافات المضيئة ، ولا مانع من إرادة المجاز فيهما وقد أشار البيضاوى إلى الوجهين فقال : (وجمع الظلمات لكثرة أسبابها أو الأجرام الحاملة لها ، أو لأن المراد بالظلمة الضلال ، وبالنور الهدى ، والهدى واحد ، والضلال متعدد)(٣٢) على أن فى الآية ضربا من التناسب بين الألفاظ هو من ألوان الجمال فى نظم القرآن ، حيث ناسب بين جمع الظلمات وإفراد النور ، وبين جمع السموات وإفراد الأرض .

ومما نحن فيه بسبب ، إفراد الرعد والبرق بعد جمع الظلمات فى قوله تعالى : « **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى أذانهم من الصواعق حذر الموت** »(٣٣) فكمال التناسب يقتضى جمعهما ، ومقام المبالغة فى تصوير شدة ما أصابهم من الذعر والفزع يقتضى الجمع كذلك ، إلا أن القرآن خالف مقتضيات التناسب اللفظى ع وظاهر الحال من التناسب المعنوى ، مبقيا على تكاثف الظلمة وشدتها ، مع شدة الصواعق وكثرتها المعبر عنها بالجمع ، لتعطيل أسماعهم وأبصارهم معا ، فكما سدوا مسامعهم بأصابعهم ، أطبقت الظلمة على أبصارهم ، فلم تعد لهم آذان تسمع ولا أبصار ترى ، ولو جمعت الرعود والبروق لكان من ضوئهما ما يقلل من تكاثف الظلمات .

وحين وقعت على هذا الغرض من النظم حسبته ضربا من السبق ، حتى وجدت الشهاب الخفاجى قد سبقنى إليه ، فها أنذا أنسبه إلى صاحبه.يقول الشهاب : (ثم إن هنا نكتة سرية فى إفرادهما هنا ، وهى أن الرعد كما ورد فى الحديث ، وجرت به العادة يسوق السحاب من مكان

---

(٣٢) تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٧/٤ .
(٣٣) البقرة ١٩ .

لآخر ، فلو تعدد وكثر لم يكن السحاب مطبقا،فتزول شدة ظلمته،وكذا البرق لو كثر لمعانه لم تطبق الظلمة ، كما يشير إليه قوله « **كلما أضاء لهم مشوا فيه** » فإفرادهما متعين هنا ٠ وهذا مما لمعت به بوارق الهداية فى ظلمات الخواطر)(٣٤) ٠

وما ذهب إليه الزمخشرى وتابعه فيه غيره(٣٥) من أن البرق والرعد مصدران فى الأصل ، والمصدر لا يجمع ، مما لا يكشف عن بلاغة النظم الحكيم ، فما أكثر المصادر التى وردت مجموعة فى كلام العرب وفى الذكر الحكيم ، وقلما كان يقنع جار الله بمثل هذه التخريجات التى لا تتجاوز الحكم بصحة الإفراد ٠ يقول الزمخشرى : (**فإن قلت** : هلا جمع الرعد والبرق أخذا بالأبلغ كقول البحترى :

يا عارضا متلفعا ببروده

يختال بين بروقه ورعوده

وكما قيل : ظلمات ؟ قلت: فيه وجهان : أحدهما أن يراد العينان ، ولكنهما لما كانا مصدرين فى الأصل ، يقال : رعدت السماء رعدا ، وبرقت برقا ، روعى حكم أصلهما بأن ترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع ، والثانى أن يراد الحدثان ، كأنه قيل : إرعاد وإبراق)(٣٦) ٠

ومن الإفراد للدلالة على وحدة الحق قوله تعالى : « **أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون** »(٣٧) ٠

---

(٣٤) حاشية الشهاب على البيضاوى ١/٣٩٧ ٠
(٣٥) انظر البحر المحيط ١/٨٦ ٠
(٣٥) انظر البحر المحيط ١/٨٦ وتفسير البيضاوى ١/٣٩٧ ٠
(٣٦) الكشاف ١/٣١٥ ٠ (٣٧) النحل ٤٨ ٠

فاليمين يرمز به إلى وجهة الحق وأهل الإيمان ، والشمال يومأ به إلى وجهة الباطل وأهله ، ولما كان الحق واحدا ، والباطل تتعدد مذاهبه أفرد اليمين وجمع الشمائل . هذا ما ذهب إليه ابن القيم : (ولما كانت اليمين جهة الفلاح ، وأهلها هم الناجون أفردت ، ولما كانت الشمال جهة أهل الباطل ، وهم أصحاب الشمال جمعت فى قوله « عن اليمين والشمائل » فإن قيل : فهلا كذلك فى قوله : « **وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال** » وما بالها جاءت مفردة ؟ قيل : جاءت مفردة ، لأن المراد أهل هذه الجهة ، ومصيرهم ومآلهم إلى جهة ، وهى جهة الشمال مستقر أهل النار)(٣٨) .

والحق أننى لم أجد لهذا التعليل من قبول النفس ما وجدته فى افراد النور والسبيل ، وجمع الظلمات والسبل ، وذلك لأمرين : أولهما أن المقابلة بين النور مفردا والظلمات جمعا تطرد فى القرآن الكريم ، بخلاف اليمين والشمائل ، فلم يأت الشمائل جمعا إلا فى الآية موضع الحديث ، والثانى : أن اليمين والشمائل ليست هنا مجازا عن الحق والباطل ، ولا يوما بهما إليهما .

ولابن كثير وجه فى إفراد النور واليمين يقول : (فجمع الظلمات ووحد النور لكونه أشرف ، كقوله تعالى : « **عن اليمين والشمائل** »)(١٠) ولعله قصد بشرف الإفراد أنه من باب واحد كالف ، فالمفرد فيهما لشرفه يفوق الكثير من مقابله . وهذا الوجه كذلك مما لا ينقع للظامىء غلة . ودونه ما قاله البيضاوى : (ولعل توحيد اليمين وجمع الشمائل باعتبار اللفظ والمعنى ، كتوحيد الضمير فى « ظلاله » وجمعه فى قوله « **سجدا لله وهم داخرون** »(٤٠) وكذلك ما قاله ابن عاشور : (المخالفة بالإفراد والجمع تفنن)(٤١) لأن مثل هذه التعليلات مصححة

---

(٣٨) بدائع الفوائد ١/١٢٠ . (٣٩) تفسير ابن كثير ٢/١٢٣ .
(٤٠) تفسير البيضاوى ٥/٣٢٦ . (٤١) التحرير والتنوير ١٤/١٦٩

لا مرجحة ، فإنه يقال : لم روعى فى أحدهما اللفظ وفى الآخر المعنى(٤٢) .

وقد جمع الألوسى من الآراء وأضاف إليها ما فاق العشرة . وخير ما قيل - من وجهة نظرى - ما نقله أبو حيان عن ابن الصائغ من استعارة اليمين والشمائل لمشرق الشمس ومغربها : (أفرد وجمع بالنظر إلى الغايتين ، لأن ظل الغداة يضمحل حتى لا يبقى منه إلا اليسير ، فكأنه فى جهة واحدة ، وهو بالعشى على العكس ، لاستيلائه على جميع الجهات ، فلحظت الغايتان فى هذه الآية ، هذا من جهة المعنى ، وفيه من جهة اللفظ المطابقة ، لأن « سجدا » جمع ، فطابقه جمع الشمائل لاتصاله به ، فحصل فى الآية مطابقة اللفظ للمعنى ولحظهما معا ، وتلك غاية الإعجاز)(٤٣) .

وسر ترجيحى لهذا الوجه أمران : أولهما : أنه يتجاوب مع قوله تعالى : **« والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال »(٤٤) .**

فجعل سجود الظلال مقترنا بمشرق الشمس فى أول النهار ، وبمغربها فى رحلة الغروب ، وخير تفسير للقرآن هو القرآن نفسه ، والثانى : إفراد الغدو وجمع الآصال تكثيرا للظلال فى نهاية النهار ، فكان إيثار الإفراد فى اليمين والغدو ، وجمع الشمائل والآصال سائرا إلى غاية واحدة ، هى تكاثر الظلال فى رحلة الغروب ، واضمحلالها فى رحلة الشروق ، وهو على ما قال ابن الصائغ سر بديع من أسرار الإعجاز .

---

(٤٢) حاشية الشهاب ٣٣٦/٥ .
(٤٣) البحر المحيط ٤٩٧/٥ .
(٤٤) الرعد ١٥ .

وحـدة الهـدف واتحـاد الغـاية :

ومما خولف فيـه ظاهر الحال بالعدول إلى الإفراد فى مقام الجمع قوله تعالى فى وصف عباد الرحمن : « **والذين يقولون ربنـا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما** »(٤٥) إذ الداعـون جمع ، ومقتضى الظاهر أن يقال : واجعلنا للمتقين أئمة ، لكن لمـا كان المتقون يصدرون فى إمامتهم عن مشـكاة واحدة ، ويسعون إلى هـدف واحـد ويستنيرون ببصيرة تستمد هديها من وحى السماء ، جاء توحيد الإمام مناديا بوحدة دعوة الحق ، والتقاء دعاته على طـريق واحـد ، وهو أحـد الأوجه التى ذكرها البيضاوى : (لأنهم كنفس واحدة ، لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم)(٤٦) .

وحدة الهدف والالتقاء على كلمة الله الصادرة من الحق ، هى التى وحدت صفة الإمامة فى الدعاة إلى الله ، وهى ذاتها التى جعلت الرفقاء فى دار الحق بامتزاج أرواحهم وصفاء نفوسهم رفيقا واحـدا ، فى قوله تعالى : « **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا** »(٤٧) .

صفت الأنفس ، وطابت الأرواح ، واتحـدت القـلوب ، فصـار الرفقاء رفيقـا واحدا ، هـذا ما يومىء إليـه الإفراد ، فانظر كيف يضيع هذا الغرض الشريف لو جىء به جمعا فقل : وحسن أولئك رفقاء ؟ وانظر كيف تفلت هذا المعنى من بين يدى من قال : (ولم يجـمع لأن فعيـلا يستوى فيه الواحد وغيره ، أو اكتفاء بالواحد عن الجمع لفهم المعنى ، وحسنه وقوعه فى الفاصلة)(٤٨) .

---

(٤٥) الفرقان ٧٤ ؛
(٤٦) تفسير البيضاوى ٤٣٨/٦ .
(٤٧) النسـاء ٤٩ ؛
(٤٨) حاشية الشهاب ١٥٣/٣ .

فمع يقيننا فى حرص القرآن على جمال الإيقاع ، وحسن التناسب بين الألفاظ ، لا نقنع بأن مراعاة الفاصلة وحدها هى التى دعت إلى الإفراد ، وإن كان حسنها ظاهرا مع حسن الغرض الذى ذكرناه ، والقول بالاكتفاء بفهم معنى الجمع من الواحد ليس سوى تصحيح للإفراد ، وهو ما كان الشهاب نفسه يرفضه فى مقام البحث عن بلاغة النظم حين يختار أحد المتساويين .

وقد ألمح صاحب الكشاف إلى أن إيثار الواحد فى موضع الجمع يومىء إلى التوحد وشدة التناصر ، حتى كأن الجمع ذاب فى نفس واحدة ، وذلك فى قوله تعالى : « **وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح الميمنين والملائكة بعد ذلك ظهير** »(٤٩) . قال الزمخشرى : (والملائكة على تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم «بعد ذلك» بعد نصرة الله وناموسه وصالحى المؤمنين « ظهير » فوج مظاهر له ، كأنهم يد واحدة على من يعاديه)(٥٠) .

توحيد اللفظ إيماء إلى توحد الهدف وتضافر الأيدى والنفوس لنصرة النبى عليه السلام ، ذلك هو الغرض من الإفراد ، لكن العجيب أن هذا الذوق البيانى الرفيع الذى كشف عن نكتة الإفراد هذه يتوارى تماما حين يتساءل الزمخشرى عن سر إفراد « صالح المؤمنين » فى هذه الآية نفسها ، فيقول : (فإن قلت : صالح المؤمنين واحد أم جمع ؟ قلت : هو واحد أريد به الجمع ، كقولك : لا يفعل هذا الصالح من الناس ، تريد الجنس)(٥١) ولم يقل لنا الزمخشرى ماذا وراء إرادة الجنس ، ولم عدل عن الجمع إليه ؟ أو ليست إرادة الجنس صالحة فى « ظهير » كذلك ؟ فلم لم يقل بها ليطرد كلامه ؟ ولماذا لا يكون

---

(٤٩) التحريم ٤ .

(٥٠) الكشاف ١٢٧/٤ .

(٥١) الكشاف ١٢٧/٤ .

توحيد صالح المؤمنين دليلا على توحد الصالحين وتضافرهم على نصرة نبيهم ، حتى كأنهم يد واحدة فى وجه من يعاديه ، كما هو شأن الملائكة ؟ إن هذا هو ما نراه وننسب فضله إلى الزمخشرى وإن لم يقل به ، قياسا على ما قال فى إفراد « ظهير » .

ومن روائع الإعجاز فى وضع الواحد موضع الجمع ، للإيحاء بوحدة الهدف والغاية ، ما نراه من إفراد الضيف حيثما ورد ذكره فى القرآن ، وذلك فى خمسة مواضع : اثنان كان المضيف فيهما إبراهيم عليه السلام ، هما قوله تعالى : **« ونبئهم عن ضيف إبراهيم »**(٥٢) وقوله **« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين »**(٥٣) وثلاثة فى ضيافة لوط عليه السلام ، وهى قوله تعالى : **« فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى »**(٥٤) **« قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون »**(٥٥) **« ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم »**(٥٦) والضيف فى كل هذه الآيات هم رسل الله المكلفون ببشارة إبراهيم وسارة بإسحاق عليه السلام ، وهم أنفسهم المكلفون بتنفيذ أمر الله تعالى فى قوم لوط **« قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين »**(٥٧) فكان إفراد الضيف دليلا على وحدة الغاية التى من أجلها أرسلوا ، وهم وإن تعددت أشخاصهم فهم كشخص واحد كلف بمهمة لا تقبل الاختلاف أو التعدد ، ومن ثم نجد الرسل فى دنيا الناس يتحدث باسمهم شخص واحد ، وهو فى نظر المرسل إليهم لسان الجميع ..

وإذا كانت العرب تستعمل الضيف بمعنى الواحد والجمع فإن وراء استعماله للجمع غرضا ، يجب أن يبحث عنه ، وإلا فلماذا تركوا ما هو

---

(٥٢) الحجر ٥١ .
(٥٣) الذاريات ٢٤ .
(٥٤) هود ٨ .
(٥٥) الحجر ٦٨ .
(٥٦) القمر ٣٧ .
(٥٧) الذاريات ٣٢ - ٣٣ .

صريح فى الجمع ، وللضيف صيغ جمع للقلة الكثرة ؟ جاء فى لسان العرب : (وقد يكسر فيقال : أضياف وضيوف وضيفان . قال :

إذا نزا الأضياف كان عذورا
على الحى حتى تستقل مراجله(٥٨)

وانطلاقا من وحدة المصدر والغاية فى رسالات النبيين كثيرا ما عبر القرآن عن وحيه إليهم بالكتاب مفردا ، كقوله تعالى : « **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** »(٥٩) .

فلا شك فى أن المراد بالكتاب هنا جميع ما أنزل الله من كتب على أنبيائه ، إذ لا يصح إيمان بغير ذلك . وما قيل من أن استغراق الواحد أشمل من استغراق الجمع ليس هو النكتة فى الإفراد ، فقد قرىء بالإفراد والجمع فى قوله تعالى حديثا عن مريم عليها السلام : « **وصدقت بكلمات ربها وكتبه** »(٦٠) وفى قوله : « **آمن الرسول بما أنزل من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** »(٦١) .

قال الزمخشرى فى تفسير الآية الأخيرة : (وقرأ ابن عباس « وكتابه » يريد القرآن أو الجنس ، وعنه الكتاب أكثر من الكتب ، فإن قلت : كيف يكون الواحد أكثر من الجمع ؟ قلت : لأنه إذا أريد بالواحد الجنس ، والجنسية قائمة فى وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شىء ، فأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع »(٦٣) .

ولا يمكن لأحد أن يدعى فى قراءة الجمع من الآيتين عدم استغراقه لكل ما أنزل الله من كتاب ، لأن الاستغراق بلام الجنس فى الإفراد والجمع

---

(٥٨) لسان العرب مادة ضيف .
(٥٩) البقرة ٧٧ .
(٦٠) التحريم ١٢ .
(٦١) البقرة ٢٨٥ .
(٦٢) الكشاف ١/٤٠٧ .

يعتمد على القرائن وحدها ، والقرينة هنـا قاطعـة بإرادة الاسـتغراق على القراءتين .

فالنكتة فى إفراد الكتاب هى الإيماء إلى وحدة أصول الأديان ، والتقائها حـول غاية واحدة ، وكان كل ما أنزل الله من كتب على أنبيائه بمثابة كتاب واحد ، فيما تضمنته من توجيه الخلق إلى مراد الحـق ، وفى هـذا تعريض بأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كفروا بمـا أنزل على غير نبيهم من كتاب ، فكان كفرهم هـذا بمنزلة كفرهم بكتابهم نفسـه ، وإلى هذا ذهب صاحب المنار فى تعليل الإفراد من قوله تعالى : **« ولكن البر من آمن بالله واليـوم الآخـر والملائكة والكتاب والنبيين »** حيث قال : (واختير لفظ الكتاب على الكتب ، للإيماء إلى أن كلا من اليهود والنصارى لو صح إيمانهم بكتابهم وأذعنـوا له لـكان فى ذلك هداية لهـم ، وإن جهلوا وحـدة الدين ، فلم يعرفوا حقية جميع الكتب الإلهيـة ، على أن المقصود لازمه ، وهو أنهم لم يؤمنوا حـق الإيمـان بكتابهم)(٦٣) .

وهكذا تكرر فى القرآن الكريم توحيد الكتاب فى مقـام الجـمع تنبيها على وحـدة الأديان ، وتركيزاعلى أن المرسلين ينهلون من مـورد واحـد ، ويدعون إلى رب واحـد . قال تعالى : **« فبعث الله النبيـين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق »**(٦٤) **« لقـد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنـا معهم الكتاب والميزان ليقـوم الناس بالقسـط)**(٦٥) فالحق والعـدل شريعة كل كتاب ، وغاية كل رسول ، وفى توحيد الكتاب

---

(٦٣) تفسير المنار م١ ، ج ٢/ ٩٢ .
(٦٤) البقرة ٢١٣ . (٦٥) الحديد ٢٥ .

والميزان دليل على وحدة الحق الذى هو منبع كل كتاب ، وتوحد صورة العدل فى دعوات المرسلين .

وذهابا إلى ذات الغرض جاء قوله تعالى : « **وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام** »(٦٦) فكما أنهم أرسلوا لغاية واحدة ، وأنزل عليهم كتاب تتحد أصوله ، فهم جسد واحد ائتلافا واتفاق كلمة ، وتوحد غاية ، لذا تجنب القرآن جمع الجسد للدلالة على وحدة المرسلين فى بشريتهم ، ومنهجهم فى الدعوة إلى الله ، وهو المعنى الذى تمثله الرسول عليه السلام فى قوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد » وأظننى بعد ذلك لا أرى فى القول بأن الإفراد لإرادة الجنس المنتظم للكثير ، أو بأن هناك مضافا محذوفا تقديره : ذوى جسد (٦٧) لا أرى فى مثل ذلك إلا تبريرا لصحة المفرد ، وهو دون ما نقصد إليه من الكشف عن بلاغة الإفراد فى موضع الجمع .

الكفر كله ملة واحدة :

كثر فى القرآن بشكل لافت توحيد العدو فى مقامات يقتضى ظاهرها الجمع ، فيما أربى على العشرين موضعا ، فى حين جاء مجموعا مطابقا لظاهر الحال فى سبعة مواضع ، وباستقصاء مواضع المخالفة جميعها ، نجد القرآن يلفت بهذه المغايرة نظر المسلمين إلى أن الكفر كله ملة واحدة ، وأن أعداء الحق مهما اختلفت مذاهبهم واتجاهاتهم يلتقون حول هدف واحد ، هو القضاء على الحق وأهله ، وأن ما بينهم من خلافات وعداء يذوب أمام عدوهم المشترك ، فهذا

---

(٦٦) الأنبياء ٧ — ٨ .   (٦٧) انظر تفسير أبى السعود ٦/٥٧ .

القرآن يجمع الأولياء ويوحد العدو فى قوله تعالى : « **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو** »(٦٨) مشيرا بجمع الأولياء إلى اختلاف أهواء المضلين ، وتشعب ضلالاتهم ، ولافتا بتوحيد العدو إلى توحدهم فى مواجهة الحق وأنصاره ، وتناديهم جميعا لحرب أهل الإيمان ، فلا ينبغى أن يغتر المسلمون بما يرونه من تصارع أهل الهوى وأرباب الضلال ، فإنهم سرعان ما يبتلعون خصوماتهم للتفرغ لضرب حملة مشاعل الحق .

وهكذا توالت الآيات مؤكدة هذا المعنى : « **إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا** »(٦٩) « **هم العدو فاحذرهم** »(٧٠) « **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن** »(٧١) فهم مختلفو الأجناس والأهواء ، متباينون فى غاياتهم وأهدافهم ، لكنهم يد واحدة على المؤمنين ، فإذا ما نالوا منهم نيلا ، وظفروا بهم فى معركة ، توزعت أنفسهم بتوزع أطماعهم ، وتمايزت وجهاتهم ، وظهر تصارعهم على المغانم ، وهذا ما جسده القرآن تجسيدا حيا بصيغتى الإفراد والجمع ، فى قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء** »(٧٢) .

---

(٦٨) الكهف ٥٠ .
(٦٩) النساء ١٠١ .
(٧٠) المنافقون ٤ .
(٧١) الأنعام ١١٢ .
(٧٢) الممتحنة ١ ــ ٢ .

ألا ترى كيف وحد العدو فى صدر الآية الأولى « **لا تتخذوا عدوى وعدوكم** » ثم عدل إلى الجمع فى صدر الآية الثانية « **إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء** » فى إشارة كاشفة عن دخائل أنفس أهل الكفر ، الذين تراهم عدوا واحدا فى معركتهم مع المؤمنين ، فإذا ما ظفروا بموقعة ، فرقت بينهم مطامعهم ، فصاروا أعداء ، كما هو شأنهم دائما فى تعدد نحلهم ومذاهبهم .

لكن المفسرين لم ينفذوا إلى هذا السر من أسرار الإعجاز ، ووقفوا عند حد الصحة فى التعبير بالإفراد والجمع كما نراه فى تفسير القرطبى لقوله تعالى : « **وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو** »(٧٣) **قال :** فإن قيل : كيف قال عدو ولم يقل أعداء ، ففيه جوابان : أحدهما أن بعضا وكلا يخبر عنهما بالواحد على اللفظ ، وبالجمع على المعنى ، وذلك فى القرآن . قال الله تعالى : « **وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** »(٧٤) على اللفظ ، وقال تعالى : « **وكل أتوه داخرين** »(٧٥) على المعنى . والجواب الآخر : أن عدوا يفرد فى موضع الجمع . قال الله عز وجل « **وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** »(٧٦) .

فهو يحدثنا عن صحة وقوع المفرد موقع الجمع ، ولم يقل لنا لماذا روعى اللفظ تارة ، والمعنى تارة أخرى ؟ ولم أفرد العدو فى موضع الجمع ؟

وقد كان الرضى رحمه الله فى شرحه للكافية أطول عنقا ، وهو يرمق سماء الذكر الحكيم ، حين قال : (وقد يقع المفرد موقع الجمع ، كقوله

---

(٧٣) البقرة ٣٦ .
(٧٤) مريم ٩٥ .
(٧٥) النمل ٨٧ .
(٧٦) تفسير القرطبى ٢٣٧/١ .

تعالى : « **ويكونون عليهم ضدا** » ، وقوله تعالى : « **وهم لكم عدو** » وذلك لجعلهم كذات واحدة فى الاجتماع والترافد ، كقوله ﷺ : « المؤمنون كنفس واحدة »(٧٧) غير أن وحدة المؤمنين وحدة غاية ومصير ، فهى دائمة بدوام إيمانهم ووحدة الكافرين وحدة وسيلة ، سرعان ما يمزقها تحقيق كل فريق لغايته وأطماعه .

وهذا ما وجه به الزمخشرى إفراد الضد فى قوله تعالى : « **كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا** »(٧٨) فقال : (فإن قلت : لم وحد ؟ قلت : وحد توحيد قوله عليه الصلاة والسلام : « وهم يد على من سواهم » لاتفاق كلمتهم ، وأنهم كشىء واحد ، لفرط تضامهم وتوافقهم)(٧٩) هذا هو الوجه ، وبمثله يجب أن يقال فى إفراد العدو لاتحادهم فى عداء المسلمين ، واتفاق كلمتهم على محاربتهم والنيل منهم . يضاف إلى ذلك خفة المفرد وعذوبته فى مقابلة الجمع « أضداد » لما فيه من الثقل وصعوبة الانتقال من الضاد الساكنة إلى الدال ، كما يشهد به الذوق السليم ، وكم تجنب القرآن جموعا ومفردات لعدم عذوبتها ، مع أنها أخف من هذا الجمع وأسلس كما سيجىء فى موضعه من هذه الدراسة .

أما قوله تعالى فى هذه السورة « **وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** »(٨٠) فلم تكن مراعاة لفظ « كل » نكتة الإفراد ، وإنما هى وحدة السياق ، ووحدة الغرض من إثبات وحدانية الله ، ونفى الشرك فى عبادته ،

---

(٧٧) شرح الكافية للرضى ٢/١٧٧ .

(٧٨) مريم ٨٢ .

(٧٩) الكشاف ٢/٢٢٤ .

(٨٠) مريم ٩٥ .

ومسئولية الفرد عن أعماله مسئولية ذاتية لا يحمل وزرها غيره ، حين يقف أمام الله تعالى وحيدا مشغولا بنفسه عمن سواه ، بعد أن فر من حوله الأنصار والخلان ، فلنتأمل موقع الآية فى سياقها لنرى روح الوحدة والتفرد آخذة بمجامع النظم فى النص الكريم : « **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** »(٨١) ٠

فقد غاير النظم بين حالى المتقين والمجرمين ، فى سوقهم يوم الحشر بالإفراد والجمع ، دلالة على تكريم المتقين ، بجمعهم إلى ربهم فى موكب يغمره رضوان الله وكرامته ، كما يفد الوفاد على الملوك جمعا مكرما محتفى به ، فالوفد هم الركبان المكرمون ، وهو جمع أو اسم للجمع (٨٢) وجاء بالإفراد فى وصف حال المجرمين تحقيرا لهم ، يسوقهم إلى النار كما يساق المجرمون فى الدنيا إلى السجون فرادى ، تحيط بأعناقهم السلاسل وبمعاصمهم القيود ، مع فارق التشبيه بين الحالين ، قال ابن منظور فى تفسير الورد فى هذه الآية (وقال الزجاج أى مشاة عطاشا ، والجمع أوراد)(٨٣) فهو على ذلك من التعبير بالواحد عن الجمع للغرض الذى أشرنا إليه آنفا ٠ ثم يمضى السياق

---

(٨١) مريم ٨٥ – ٩٥ ٠ (٨٢) انظر لسان العرب مادة : وفد ٠
(٨٣) لسان العرب مادة : ورد ٠

مستعملا صيغة الواحد فيما افتراه الكافرون على ربهم « أن دعوا للرحمن ولدا » فوحد الولد ، ومن المجرمين من ادعى أن الملائكة بنات الله كما نطق به القرآن « **ويجعلون لله البنات سبحانه** »(٨٤) لكنه وحد الولد ليكون التنكير على المفترين أشد حين يقع المفرد منفيا فى الرد عليهم « وما نبغى للرحمن أن يتخذ ولدا » إذ من المسلم به أن نفى الواحد باستغراقه آحاد الأفراد أشمل من نفى الجمع لوقوع الاستغراق على آحاد الجموع .

ثم جاء توحيد « العبد » فى مقام الجمع ، وفاء بحق المناسبة ، فى يوم تتقطع فيه العلائق والأنساب ، وينشغل فيه الفرد بنفسه عن سواه ، ويحشر الناس إلى ربهم فرادى ، ويمثلون أمامه وحدانا ، وهو نفس الغرض من توحيد « الفرد » فى قوله « وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » .

ألا ترى معى أن تغيير النظم بوضع الجمع موضع المفرد فى هذا السياق يفرط حبات العقد ، ويذهب رهبة الوحدة ، ويخفت فيه صوت المسئولية الفردية التى أراد القرآن تجسيدها فى هذا الموقف ؟ !

لقد أحسن الأستاذ على النجدى ناصف أيما إحسان ، حين علل إفراد العبد فى هذه الآيات بمقال له فى مجلة مجمع اللغة العربية فقال : (ويومىء لفظ العبد فى الآيات إيماء خفيا إلى مشهد مهيب من مشاهد الآخرة ، مشهدا لا كالمشاهد ، ولا الناس فيه كالناس ، الملك يومئذ لله الواحد القهار ، وكل من فى السموات والأرض خاضع مقهور ، والناس بين يدى ربهم أشباه متساوون ، كأنهم فرد واحد ، تتكرر ذاته ، وتتوحد

---

(٨٤) النحل ٥٧ .

صفاته ، ذهبت من بينهم الفوارق ، فلا علية ولا سوقة ، ورفعت من دونهم الحجب ، فالتقى الأحمر والأسود ، ومحيت الحقب فالتقى الماضى والحاضر ، وتقطعت الأسباب فانفض الأنصار والأعوان ، .. وما كان لذلك كله أو لشىء منه أن يكون ، لولا وضع « العبد » هنا بلفظه المفرد ، مكان العباد أو العبيد ، لكى يؤدى المعنى الذى ذكرناه أداء إشارة وتلويح)(٨٥) .

ومضيا مع الغرض من إبراز اتحاد أعداء الله وتضامنهم فى مواجهة دعوات النبيين ، والاجتماع لحربهم جاء قوله تعالى على لسان المشركين : **« أم يقولون نحن جميع منتصر »**(٨٦) فأخبر عن ضمير الجمع بالمفرد « منتصر » خلافا لمقتضى الظاهر ، وليس ذلك رعاية للفاصلة أو لخفة المفرد عن الجمع على ما قيل(٨٧) كما أن القول بجواز الإفراد والجمع على ما ذهب إليه الفراء(٨٨) لا يفسر إيثار القرآن لأحد الجائزين ، فما هو جائز فى عرف اللغويين واجب مستحسن فى أذواق أرباب البيان ، فكيف إذا كان الوجه المختار واقعا فى أبلغ الكلام وأفصحه ؟!

إن القرآن يرمز بالإفراد إلى توحد كلمة المشركين ويقينهم من النصر على المسلمين فهم على قلب رجل واحد إجماعا على حرب المسلمين ، واستيقانا من الانتصار عليهم ، ومن أجل ذلك نسب القول إلى الجميع مع أن القائل فرد واحد هو أبو جهل على ما جاء فى بعض كتب التفسير(٨٩) ، مما هو دليل على وحدة كلمتهم . ومن ثم جاء رد الله تعالى

---

(٨٥) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٣٢ ذو القعدة ١٩٣٦ ص ١٢ .
(٨٦) القمر ٤٤ .
(٨٧) انظر محاسن التأويل ٥٦٠٤/١٥ .
(٨٨) معانى القرآن ٢٨٥/١ . (٨٩) انظر الكشاف ٤١/٤ .

عليهم مشاكلا لأسلوبهم ، وجريا على طريقتهم فى التعبير زيادة فى التهكم والسخرية « سيهزم الجمع ويولون الدبر »(٩٠) هم أقبلوا كنفس واحدة اجتماعا واتفاقا ، وهم سوف ينهزمون ويفرون فرار رجل واحـد أعطى ظهره لعدوه ، وكأنما أفرغت قلوبهم من التجلد والشجاعة إفراغا واحدا ، وذلك أقسى فى وصفهم بالانهزام وأدعى للتهكم والسخرية ، فكما اتحدت كلمتهم مقبلين ، اتحدت كلمتهم على الفرار مدبـرين . لم يثبت منـهم أحـد . فإذا قال الفراء (وقال : الدبر ، ولم يقل الأدبار ، وكل جائز ، صواب أن تقول : ضربنا منهم الرؤوس والأعين ، وضربنا منهـم الرأس واليد)(٩١) فهو لم يتجاوز حـد التصحيح ، وربما كان ذلك ملتئما مع منهج الفراء ، لكن الغريب أن يكون هذا هو تعليل الزمخشرى ، وهـو ما عرفناه غوصا فى أعماق النص ، وقدرة على استخراج درر الإعجاز ، حيث قال : (« ويولون الدبر » أى الأدبار ، كما قال : كلوا فى بعـض بطنكم تعفوا)(٩٢) وليس ذلك سوى حكم بصحة الإفراد ، ومتى كان الزمخشرى قانعا بالوقوف عند صحة الأسلوب ؟! خاصة إذا كان المفـرد الذى آثره القرآن أثقل من الجمع المتروك ، لما فيه من الجمع بين ضمتين متتاليتين ، والجمع بين حرفى الدال والباء المتقاربين مخـرجا . حتى إن أبا حيان قال تعليقا على ما جاء فى الكشاف : (وليس مثل بطنكم ، لأن مجىء الدبر مفردا ليس بحسن)(٩٣) .

---

(٩٠) القمر ٤٥ .
(٩١) معانى القرآن ٣/١١٠ .
(٩٢) الكشاف ٤/٤١ .
(٩٣) البحر المحيط ٨/١٨٣ .

لذا جاء الدبر جمعا فى القرآن أربع عشرة مرة ، فى حين جاء مفردا خمس مرات فقط يتعين فى جميعها الإفراد ، ما عدا هذه الآية موضع حديثنا ، مما يؤكد أن النظم الحكيم يضع المناسبة المعنوية فوق الأغراض اللفظية ، فيترك الأخف من الألفاظ إذا كان الأثقل أوفى بالغرض ، ما لم يكن الثقل مخلا بفصاحة الكلمة .

ثم إن البيت الذى دأب الزمخشرى على الاستشهاد به دليلا على صحة الإفراد فى موطن الجمع وهو قول الشاعر :

*** كلوا فى بعض بطنكم تعفوا ***

وراء إيثار المفرد فيه غرض بلاغى ، هو وجوب القصد فى الأكل والبعد عن الشره ، حتى لكأنهم جميعا يأكلون فى بطن واحدة .

وأبعد مما ذكره الفراء والزمخشرى ، ما ذكره الزركشى فى سر إفراد « منتصر » حيث قال : (وقد يقع الإخبار بلفظ المفرد عن لفظ الجمع وإن أريد معناه لنكتة ، كقوله تعالى : « **أم يقولون نحن جميع منتصر** » فإن سبب النزول وهو قول أبى جهل : « نحن منتصر اليوم » يقضى بإعراب منتصر خبرا)(٩٤) .

فما جاء فى أسباب النزول يشير إلى إفراد القائل ، لا إلى إفراد المقول ، بدليل قوله « جميع » ، ونسبة قوله إلى المشركين المتحدث بلسانهم ، فليس هذا نكتة لإقامة المفرد مقام الجمع .

ومما يؤكد توحد الكفر ضد الإيمان ، ما جاء من إفراد ملتى اليهود والنصارى بعد أن ذكر ما بينهما من العداء ، وحكى عن كل فريق

---

(٩٤) البرهان فى علوم القرآن ٢/٢٨٨ .

ما يبطل عقيدة الفريق الآخر ، قال تعالى : « **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير** »(٩٥)

فكيف يكون للفريقين ملة واحدة بعد أن حكم كل فريق بفساد ملة صاحبه فيما حكاه الله عنهم قبلا : « **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء** »(٩٦) ؟ أليس ذلك تحذير للمسلمين من اجتماع أهل الكفر على الكيد لهم والسعى لإخراجهم عن دينهم ، وإفساد عقيدتهم ؟ .

إن الكفر فى مواجهة المؤمنين ملة واحدة ، وإن كان أصحابه فيما بينهم نحلا متباينة وأهواء متصارعة ، كما يشير إليه جمع الأهواء « ولئن اتبعت أهواءهم » فلو كانوا حقيقة ملة واحدة لكان لهم هوى واحد .

وقد رمق الطبرى من سماء بلاغة القرآن وجها آخر فى إفراد الملة ، فذهب إلى أن الغرض من توحيدها الدلالة على استحالة إرضاء اليهود والنصارى فى آن وهما نقيضان . يقول الطبرى : (ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم ، لأن اليهودية ضد النصرانية ، والنصرانية ضد اليهودية ، ولا تجتمع النصرانية واليهودية فى شخص واحد ، فى حال واحدة ، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك إلا أن تكون يهوديا نصرانيا ، وذلك مما لا يكون أبدا ، لأنك شخص واحد ، ولن يجتمع فيك دينان متضادان فى حال واحدة)(٩٧) .

---

(٩٥) البقرة ١٢٠ . (٩٦) البقرة ١١٣ .

(٩٧) تفسير الطبرى ٢/٥٦٣ .

فهما ملتان متعاديتان ، ولكن أصحابهما يتمالآن على حرب الرسول والقضاء على دينه بحسبانه عدوهما المشترك .

ولنفس الغرض جاء توحيد قبلة أهل الكتاب مع أن لكل طائفة قبلتها ، قال تعالى : **« ولئن اتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين »(٩٨)** فقبلة أهل الكتاب واحدة فى مواجهة الرسول عليه السلام : « وما أنت بتابع قبلتهم » إيماء إلى توحدهم فى عدائه ، وتداعيهم لحربه ، أما فيما بينهم فلكل قبلته « وما بعضهم بتابع قبلة بعض » ولكل مطامعه وغاياته « ولئن اتبعت أهواءهم » .

وليس ما قلته ببعيد عما رآه الألوسى غرض إفراد القبلة فى قوله : (وأفرد القبلة وإن كانت مثناة ، إذ لليهود قبلة ، وللنصارى قبلة ، لأنهما اشتركتا فى كونهما باطلتين ، فصار الاثنان واحدا من حيث البطلان)(٩٩) . إنها وحدة الباطل فى مواجهة أنصار الحق .

التقليل والتهوين :

كثيرا ما يستعير القرآن الواحد للتقليل من شأن الجمع وتحقير أمره . من ذلك إفراد الطفل فى مقام الجمع ثلاث مرات ، اثنتان فى سياق وصف أطوار البشر ، خطابا لمنكرى البعث ، المتمردين على خالقهم ، وهما : قوله تعالى : **« يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير**

---

(٩٨) البقرة ١٤٥ .

(٩٩) روح المعانى ١١/٢ .

مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا »(١٠٠) وقوله فيما أمر به رسوله أن يرد على المشركين : « **قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا »(١٠١)** ٠

وكلا الموضعين ورد فيهما الطفل مفردا ، فى مقام التقليل من شأن المخاطبين وتحقيرهم ، بعد أن استعظموا إعادتهم بعد موتهم ، وتناسوا كيف بدأ الله خلقهم من ماء مهين ، وهو السر الذى من أجله آثر السياق الإفراد فى النطفة والعلقة والمضغة ، تحقيرا لمادة الخلق ، وتعظيما للخالق الذى يستكثرون عليه أن يعيدهم كما بدأهم ٠ فإذا جاء المفسرون وفى مقدمتهم الزمخشرى ليعللوا الإفراد بمثل قولهم : (وحده لأن الغرض الدلالة على الجنس)(١٠٢) أو بمثل ما نقل عن المبرد من أنه (اسم يستعمل مصدرا كالرضا والعدل ، فيقع على الواحد والجمع)(١٠٣) فما فعلوا أكثر من تقرير الحكم بجواز الإفراد ، وليس لمثل ذلك تنبرى أقلام الباحثين عن الإعجاز ٠

لقد كان ابن جنى أكثر تحليقا فى سماء البلاغة القرآنية حين كشف عن وجه الحسن فى إفراد الطفل قائلا : (وحسن لفظ الواحد هنا ، لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان وتحقير لأمره ، فلاق به ذكر الواحد ، لقلته

---

(١٠٠) الحج ٥ ٠
(١٠١) غافر ٦٦ - ٦٧ ٠
(١٠٢) الكشاف ٣/٦ ٠
(١٠٣) تفسير القرطبى ٧/٤٤٠٣ ٠

عن الجماعة ، ولأن معناه أيضا نخرج كل واحد منكم طفلا ، وقد ذكرنا نحو هذا ، وهو مما إذا سئل الناس عنه قالوا : وضع الواحد موضع الجماعة ، اتساعا فى اللغة ، وأنسوا حفظ المعنى ، ومقابلة اللفظ به ، لتقوى دلالته عليه ، وتنضم بالشبه إليه)(١٠٤) لا يكفى فى نظر ابن جنى أن يقال : وضع الواحد موضع الجمع للاتساع ، فإن الاكتفاء بمثل ذلك من ضيق العطن ، بل لابد من البحث عن غرض معنوى فى مقابلة الخروج باللفظ عن موقعه المقرر له . وإذا كان هذا واجبا فى كلام الناس فهو فى كلام أحكم الحاكمين أوجب .

والموضع الثالث والأخير الذى أفرد فيه الطفل فى مقام الجمع ، جاء أثناء الحديث عمن يباح لهم النظر إلى زينة المرأة « **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** »(١٠٥) .

ففى إفراد الطفل دون ما عطف عليه ، إشارة إلى قلة خطر الأطفال الذين لا يعرفون ما العورة ولا يميزون بينها وبين غيرها ، فاستعير الإفراد بدلالته على القلة ، للتهوين والتقليل من شأن الأطفال فى اطلاعهم على زينة النساء ، وهو نفس السر الذى من أجله أخروا فى الذكر عمن قبلهم ، لأنهم الأقل أهمية . ألا ترى كيف عدل القرآن إلى الجمع حين بلغ الأطفال مبلغ الرجال ، وميزوا بين العورات ،

---

(١٠٤) المحتسب ٢/٢٦٩ .	(١٠٥) النور ٣١ .

وبدأ خطر اختلاطهم ، فى قوله تعالى : ((**وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا**))(١٠٦) ؟ • لقد استحالوا ببلوغ الحلم رجالا ، وتسميتهم بالأطفال تسمية مجازية ، باعتبار ما كانوا عليه قبل البلوغ ، فكان الجمع تنبيها إلى خطر اختلاطهم ، وعدم الاستهانة بهم فى الاطلاع على العورات •

ومما جاء الإفراد فيه للتقليل والتحقير قوله تعالى : ((**قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين**))(١٠٧) •

فقد تضمنت الآية الأخيرة لونين من التغاير فى طريقة النظم ، الأول : الالتفات من الخطاب إلى الغيبة « أن تقول نفس » إعراضا من الله تعالى عن هذه الأنفس التى لم تقبل منحة الله تعالى فى الإقبال عليها بالخطاب ، ودعوتها إلى التوبة وعدم القنوط ، فكان انقطاع خطابه معها ، وحديثه عنها حديث الغائب احتقارا لها وتهوينا من شأنها ، واللون الثانى هو العدول من الجمع إلى الإفراد ، حيث كان الظاهر أن يقال : أن تقولوا ياحسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله ،

---

(١٠٦) النور ٥٩ •

(١٠٧) الزمر ٥٣ - ٥٦ •

فكان توحيد النفس مع كثرة القائلين إيحاء بقلتهم وهوانهم على الله ، وعدم المبالاة بكفرهم وما يلحقهم جراءه من عذاب ٠

ومما عبر فيه بالواحد عن الجمع للتقليل ، وإن لم يكن تهوينا وتحقيرا قوله تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد**))(١٠٨) حيث عدل القرآن إلى الإفراد ، وكان الظاهر أن يقول : ولتنظروا ما قدمتم لغد ، فأسند النظر إلى النفس مفردة منكرة ، إشارة إلى قلة الأنفس الناظرة فيما تقدمه للآخرة ، لكثرة المشتغلين بدنياهم ، اللاهين بها عن العمل لما بعدها ، وإلى ذلك أشار الزمخشري، فقال : (فإن قلت : ما معنى تنكير النفس والغد ؟ قلت : أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة ، كأنه قال : ولتنظر نفس واحدة في ذلك)(١٠٩) ففي النفس وضع للمفرد موضع الجمع ، والتنكير موضع التعريف لإفادة التقليل ٠ وليس التنكير وحده هو الذي أفاد التقليل ، وإلا لكان قوله : ((ولتنظر نفس)) وقولنا : ولتنظر نفوس سواء ، وهو ظاهر البطلان ٠

ومما جاء الإفراد فيه دالا على التقليل : قوله تعالى فيما حكاه على لسان الغاوين وهم يختصمون في الجحيم : ((**تالله لقد كنا في ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم**))(١١٠) فكان في جمع الشافعين وإفراد الصديق إشارة إلى ندرة الصديق المخلص في نصحه ومودته ، بخلاف الشافعين الذين لا يعز وجودهم ، بل إنك لا تعدم رجلا يتطوع بالشفاعةلمن

---

(١٠٨) الحشر ١٨ ٠

(١٠٩) الكشاف ٨٦/٤ ٠

(١١٠) الشعراء ٩٧ - ١٠١ ٠

لا يعرفه تأثراً بدافع إنسانى فالشفاعة لا تكلف الشفيع ما يتكلفه الصادق فى وده المخلص لخليله . يقول الزمخشرى : (فإن قلت : لم جمع الشافع ووحد الصديق ؟ قلت : لكثرة الشفعاء فى العادة وقلة الصديق . ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته ، رحمة له وحسبة ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة ؟ وأما الصديق وهو الصادق فى ودادك ، الذى يهمه ما أهمك فأعز من بيض الأنوق)(١١١) .

هذا كلام جيد وهو من الزمخشرى لا يستغرب ، وإنما الذى يستغرب منه أن يقول بغيره فى قوله تعالى : « **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم** »(١١٢) إذ نجده يعلل إفراد الصديق بما لا يفصح عن سر إيثاره على الجمع قائلا : (فإن قلت : فما معنى صديقكم ؟ قلت : معناه أو بيوت أصدقائكم ، والصديق يكون واحدا وجمعا(١١٣) مع أن دلالة الإفراد على قلة الصديق فى هذه الآية واضحة إذا قارناه بمن عطف عليه من الجموع ، فكلهم يمتون إليه بنسب قريب ، ولا يكاد أحد يعدم هؤلاء الأقارب الذين يباح له أن يأكل فى بيوتهم ، بخلاف الصديق الذى يقضى اشتقاقه من الصداقة أن يتحلى بصدق المودة والنصيحة(١١٤) وهو جد عزيز فى دنيا الناس . وهذا ما دفع ابن المنير

---

(١١١) الكشاف ١١٩/٣ . (١١٢) النور ٦١ .

(١١٣) الكشاف ٧٧/٣ . (١١٤) انظر لسان العرب مادة صدق .

إلى الرد على الزمخشرى فى تفريقه بين الموضعين ، مع أن الموضعين كليهما يطرد فيهما سر الإفراد الذى ذكره الزمخشرى فى آية الشعراء(١١٥) .

ومن الإفراد للتقليل والتحقير قوله تعالى فى مقام الإنكار على من اتخذ إبليس وذريته أولياء من دون الله : **« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا »(١١٦)** فأفرد العضد فى مقام الجمع تهوينا من شأن هؤلاء المضلين الذين عبدهم الناس من دون الله وهم مخلوقون ضعفاء ، لم يشهدهم الله خلق السموات والأرض ، بل لم يشهدهم على خلق أنفسهم ، فهم أقل شأنا وأحقر حالا ، وأهون على الله من أن يكونوا جميعا بمثابة معين واحد ، فضلا عن أن يكونوا أعوانا ، ليلتقى التحقير بصيغة الواحد مع التحقير بتسليط النفى على الاتخاذ دون العضد ، فهو تعالى لا ينفى كونهم أعوانا ، وإنما ينفى أن يكونوا بمثابة من يتخذ عونا ، وذلك أدل على حقارتهم وهوانهم .

وما ذهب إليه المفسرون فى تعليل الإفراد بدلالته على العموم فى سياق النفى كما ذهب إليه الشهاب فى حاشيته(١١٧) ليس كشفا عن سر الإفراد ، فكثيرا ما يوقع النظم الكريم الجمع فى سياق النفى ، ويؤدى الجمع ما يؤديه المفرد من إفادة الشمول فرقا بين قوله تعالى : **« وما للظالمين من نصير »(١١٨)** وقوله : **« وما للظالمين من أنصار »(١١٩)** ؟ لابد إذن من غرض وراء الإفراد والجمع غير القول

---

(١١٥) الإنصاف ٣/٧٣ .

(١١٦) الكهف ٥١ .

(١١٧) حاشية الشهاب ٦/١١٠ .

(١١٨) الحج ٧١ .

(١١٩) البقرة ٢٧٠ .

بإرادة العموم ، ولو قيل : وما كنت متخذ المضلين أعضادا ، ما تغير الأمر فى إفادة العموم . كما أن القول بالإفراد مراعاة للفاصلة فيه إهمال للغرض المعنوى الذى أشرنا إليه ، وهو وجه ذكره الألوسى . وإن ذكر بعده وجها آخر لا يبعد عما ذهبت إليه من إفادة التقليل والتحقير قال : (والإفراد لرؤوس الآى ، وقيل : إنما لم يجمع ، لأن الجميع فى حكم الواحد فى عدم الصلاحية للاعتضاد)(١٢٠) .

ولنحو من هذا الغرض جاء توحيد النفس فى قوله تعالى : **« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا »(١٢١) .**

حيث كان مقتضى الظاهر أن يقال : « أنفسا » بجمع التمييز لجمع المميز ، والإفراد جائز عند النحاة فى مثل هذا التركيب لأمن اللبس ، وهو كل ما قيل فى سر إفراده هنا على ما جاء فى تفسير الألوسى : (ومصحح الإفراد عدم الإلباس - كما هنا - لأنه لا يتوهم أن لهن نفسا واحدة ، ومرجحه أنه الأصل مع خفته ، ومطابقته لضمير منه)(١٢٢) فما ذكره الألوسى لا يجوز إفراده إلا عند أمن اللبس ، وأما كونه أخف من الجمع فهذا شأن المفردات بوجه عام ولو كان هذا مرجحا لأفردت معظم الجموع .

وأرى - والله أعلم بمراده - أن القرآن يستثير فى الرجال دوافع العفة عن أموال النساء ، ويكره إليهم الجور على حقهن فى المهور ، ويسد أبواب الاحتيال على هضمهن هذا الحق ، معلقا إباحة أخذ شىء من هذه المهور على طيب أنفسهن ، ولما كان شأن النساء بما فيهن من

---

(١٢٠) روح المعانى ١١١/١٥ .
(١٢١) النساء ٤ . (١٢٢) روح المعانى ١٩٩/٤ .

طبيعة الحرص على أموالهن أن لا تطيب أنفسهن إلا نادرا ، كشف القرآن عن دخائل أنفسهن - وهو العليم بما ركب فى طبائع البشر - وأفصح عن قلة من يجود بمهره راضيا من النساء ، خاصة أن للمهر فى نفس المرأة منزلة ليست لسائر أموالها ، وكان التعبير بإن الشرطية الدالة على قلة احتمال طيب الأنفس ، وإفراد النفس إيماء إلى قلة من تطيب بذلك نفسه منهن ٠

الإفـراط بالعـكس :

من أعجب مواقع تبادل الصيغ وأطرفها ، وأدلها على ثراء اللغة وقدراتها على تطويع صيغها لاستيعاب المعانى المتناقضة التى تمتلىء بها نفوس المتكلمين ، ونقلها فى نظم شديد التلاؤم والاتساق ، أن تحمل الصيغة الواحدة فى سياقين مختلفين معنيين متناقضين ، دون أن يعجز المتلقى اليقظ عن التقاط إشارات المتكلم ٠ فهذا المفرد الذى استعير آنفا للدلالة على القلة والتحقير ، يستعيره القرآن للدلالة على عكس ذلك ، فيحمله معنى التكثير والمبالغة ٠ وذلك ما كشف عنه جار الله الزمخشرى فى قوله تعالى : « **إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت** » إلى قوله « **علمت نفس ما أحضرت** »(١٢٣) ٠

قال : (فإن قلت : كل نفس تعلم ما أحضرت ، كقوله : « **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** »(١٢٤) لا نفس واحدة ، فما معنى قوله : « علمت نفس » ؟ قلت : هو من عكس كلامهم الذى يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه ، ومنه قوله عز وجل : « **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** »(١٢٥) ومعناه معنى كم ، وأبلغ منه ٠

---

(١٢٣) التكوير ١٤ ٠

(١٢٤) آل عمران ٣٠ ٠

(١٢٥) الحجر ٢ ٠

وقول القائل :

* قد اترك القرن مصفرا اناملـه *

وتقول لبعض العساكر : كم عندك من الفرسان ؟ فيقول : رب فارس عندي ، أو لا تعدم عندي فارسا ، وعنده المقانب ، وقصده في ذلك التمادي في تكثير فرسانه ، ولكنه أراد إظهار براءته من التزيد ، وأنه ممن يقلل كثير ما عنده ، فضلا أن يتزيد ، فجاء بلفظ التقليل ، ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين)(١٢٦) .

نحن أمام نوع من المجاز يستعار فيه اللفظ لضد معناه ، للدلالة على المبالغة ، وهو ما صرح به صاحب الكشف فيما نقله الألوسي : (الأصل في هذا الباب أن استعارة أحد الضدين للآخر تفيد المبالغة للتعكيس)(١٢٧) .

لكن كيف يستفاد معنى الكثرة مما هو عنوان القلة ؟ ومن أين تأتي المبالغة في استعارة الواحد للجمع ؟ هذا ما اختلفت الآراء في توجيهه كما حكاه ابن المنير : (فمنهم من وجهه بما ذكره الزمخشري آنفا من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك الإيذان بأن المعنى قد بلغ الغاية حتى كاد أن يرجع إلى الضد ، وذلك شأن كل من انتهى لنهايته أن يعود إلى عكسه ، وقد أفصح أبو الطيب عن ذلك بقوله :

ولجدت حتى كدت تبخل حائلا

للمنتهى ومن السرور بكاء

وكلا هذين الوجهين يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها ، والعمدة في ذلك على سياق الكلام ، لأنه إذا اقتضى مثلا تكثيرا

---

(١٢٦) الكشاف ٣٢٣/٤ .　　(١٢٧) روح المعاني ٨/١٤ .

فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل ، استيقظ السامع بأن المـراد المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين)(١٢٨) ٠

وذكر الشهاب هنا وجها آخر فى نكتة استعمال ما يدل على القـلة والخصوص ، والكثرة والعموم على سبيل العكس فقال : (كانه تهـويل لذلك اليوم ، وإظهار لكبرياء الله وعظمته ، حتى كأن جميع النفـوس البشرية فى جنب ما خلقه من الأجرام العظـام أمور قليـلة ، ونفـوس حقيرة)(١٢٩) ٠

وأحسب أن هـذا الوجه الذى ذكره الشهاب ذاهب إلى أن الغرض من الاستعارة هو التقليل من شأن الأنفس ، بإزاء ما خلق الله تعـالى من الأجرام العظام ، وقدرته على التصرف فى هذا الخـلق العظيم من الشمس والنجوم والجبال ، وتبديلها ذواتا وصفات ، ليكون هذا التقليل وسيلة إلى تعظيم ما يحدث فى ذلك اليوم ، والتهويل من شأنه ، وهو - فيما أعتقد - عكس ما ذهب إليه الزمخشرى فى الآية من جعـل الإفراد دليـلا على الإفراط فى كثرة النفوس ٠

ومهما يكن من اختـلاف فى توجيـه المبالغة والتكثير ، المدلـول عليه بلفظ الواحد ، فإن التعبير به دون الجـمع ، واسـتعارته لعكس معناه يتجاوب مع الانقلاب الهائل الذى يحـدث فى جميـع ظواهـر الكون ، والانعكاس فى حـركة الخلق ٠

ومما وضع فيه المفرد موضع الجمع للإفراط والمبالغة ٠ قوله تعالى : **« ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر**

---

(١٢٨) الإنصاف ٣٨٦/٢ ٠

(١٢٩) حاشية الشهاب على البيضاوى ٣٢٨/٨ ٠

ما نفدت كلمات الله »(١٣٠) فقد عدل النظم عن اسم الجمع « شجر » إلى المفرد « شجرة » للتكثير والمبالغة ، فى مقام أريد به وصف كلمات الله تعالى بعدم التناهى ، وكما اختلفت الآراء فى وجه إفادة الكثرة من إفراد النفس ، فى قوله تعالى **« علمت نفس »** اختلفت الآراء هنا أيضا ، فذهب الزمخشرى إلى أن المفرد أريد به التفصيل . وقصد كل شجرة شجرة ، وهو أشمل من الإجمال بالجمع : (فإن قلت : لم قيل من شجرة على التوحيد ، دون اسم الجنس الذى هو شجر ؟ قلت : أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة ، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلاما)(١٣١) والآلوسى يعلل الإفراد بقوله : (واختيار « شجرة » على أشجار أو شجر ، لأن الكلام عليه أبعد عن اعتبار التوزيع ، بأن تكون كل شجرة من الأشجار أو الشجر قلما ، المخل بمقتضى المقام من المبالغة بكثرة كلماته تعالى شأنه)(١٣٢)

وكيفما كان الوجه فإن المقام قاطع بإرادة الكثرة من الواحد على سبيل التعكيس ، وهو كثيرا ما يسلكه القرآن ، كقوله تعالى : **« ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون »**(١٣٣) ففى إفراد الدابة إشارة إلى أنه ليس فى كون الله دابة واحدة تستعصى على الانقياد لربها ، بخلاف الجمع الذى يدل صراحة على خضوع أفراد المجموع ، ويحتاج إلى القرائن لشمول الآحاد .

يقول أبو حيان فى تعليقه على إفراد الشجرة فى آية لقمان : (وهذا النوع مما أوقع فيه المفرد موقع الجمع ، والنكرة موقع المعرفة ،

---

(١٣٠) لقمان ٢٧ .
(١٣١) الكشاف ٣/٢٣٦ .
(١٣٢) روح المعانى ٢١/٩٧ .
(١٣٣) النحل ٤٩ .

ونظيره « ما ننسخ من آية » « ما يفتح الله للناس من رحمة » « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة » وتقول العرب : هو أول فارس ، وهذا أفضل عالم ، يريد : من الآيات ، ومن الرحمات ، ومن الدواب ، وأول الفرسان ، أخبروا بالمفرد والنكرة ، وأرادوا به معنى الجمع المعرف بأل ، وهو مهيع فى كلام العرب معروف)(١٣٤) .

التوحيد رمز لعدم التفاوت :

إذا كان التعدد يرمز إلى تمايز المعدودين ، فإن الإفراد يومىء إلى التوحد وعدم التفاوت ، وعليه جاء قوله تعالى فى وصف الكافرين :
« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة »(١٣٥)
فقد وحد السمع مخالفا ما يقضى به ظاهر التناسب من جمعه كما جمعت القلوب والأبصار ، إيماء إلى وحدة الأسماع وعدم تفاوتها فى إدراك الأصوات ، بخلاف القلوب التى تتمايز فى إدراكها لمعانى الأصوات ومدلولاتها ، وقدرتها على الوعى والاختزان ، واستقبال هذه المعانى بمشاعر الرضا ، والتهيؤ لقبولها أو الإعراض عنها ، وكذلك الأبصار تتفاوت فى إدراك المبصرات طبقا لقدرتها على الرصد والتركيز ، والتقاط دقائق الأجزاء ، وإعانة المخيلة على تصورها ، كما أن المبصرات تتفاوت كذلك كثرة ونوعا ، لذا آثر القرآن إفراد السمع فى كل موضع اقتضى جمعه ، مما وقع فيه معطوفا على جمع أو معطوفا عليه جمع ، كقوله : **« هو الذى انشاكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة »**(١٣٦) . وقوله : **« وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وافئدة »**(١٣٧)

---

(١٣٤) البحر المحيط ١٩٢/٧ .

(١٣٥) البقرة ٧ .

(١٣٦) الملك ٢٣ .

(١٣٧) الأحقاف ٢٦ .

وما قاله الزمخشرى فى تعليل إفراد السمعفى آية البقرة لا يرقى إلى سماء البلاغة القرآنية ، ولا يتجاوز ما قاله النحاة تبريراً لإيقاع الواحد فى موقع الجمع ، قال : (ووحد السمع كما وحد البطن في قوله: « كلوا فى بعض بطنكم تعفوا » يفعلون ذلك إذا أمن اللبس ، فإذا لم يؤمن كقولك : فرسهم وثوبهم ، وأنت تريد الجمع رفضوه ، ولك أن تقول : السمع مصدر فى أصله ، والمصادر لا تجمع ، فلمح الأصل)(١٣٨)

وقد كفانا الألوسى مشقة الرد على الزمخشرى ، حيث وصف تعليله بوجهيه ، بأنه ليس بشىء ، وهو مصحح لا مرجح(١٣٩) .

وخير ما قيل فى سر إفراد السمع ، ما نقله صاحب المنار عن الإمام محمد عبده : (وأنا أرى فى مسألة هذا الجمع والإفراد رأيا آخر ، إذ لو صح ما قيل فإن البصر أيضا مصدر ، فلماذا جمعه ، والذى أراه أن العقل له وجوه كثيرة فى إدراك المعقولات ، فليس الناس فيه سواء ، فجمع لاختلاف الناس فيه ، وأنواع تصرفهم فى وجوهه بخلاف السمع ، فإن أسماع الناس تتساوى فى إدراك المسموعات ، فلا تتشعب تشعب العقول فى إدراك المعقولات ، وأما الأبصار فهى مثل العقول فى التشعب ، وأعظم معين للعقول فى إدراكها ، لأن أنواع المبصرات كثيرة ، فتعطى للعقول مواد كثيرة ، والسمع لا يدرك إلا الصوت)(١٤٠) .

ومما يلفت النظر فى هذه المسألة أن القرآن الذى آثر إفراد السمع فى كل مقام اقتضى جمعه ، نراه يجمع الأذن فى كل موضع اقتضى جمعها من مثل قوله تعالى : **« وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه**

---

(١٣٨) الكشاف ١٦٤/١ .

(١٣٩) انظر روح المعانى ١٣٦/١ . (١٤٠) تفسير المنار ١٢١/١ .

وفى آذاننا وقر »(١٤١) وقوله : **« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها »**(١٤٢) وهو من بدائع النظم الحكيم وأسراره التى يمثلها أعجز البشر عن محاكاته ، فالآذان هنا قصد بها آلات السمع التى خلقها الله تعالى مستعدة للإدراك ، وهى فى ابدان الناس متفاوته ، شأنها شأن كل الحواس ، مثل الأبصار والقلوب ، وهؤلاء قد عطلوا هذه الآلات عما خلقت له ، بدليل الوصف « لا يفقهون بها » « لا يبصرون بها » « لا يسمعون بها » . فلما كان الغرض إلى آلات السمع وهى متفاوتة جاءت الآذان جمعا ، وحين كان القصد إلى إدراك المسموعات وذلك مما لا يتفاوت فيه السامعون ، أفرد السمع حيث وقع فى القرآن الكريم ، ولهذا كان اختيار السمع أبلغ فى قوله تعالى : **« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم »** مما لو قيل : وعلى آذانهم ، فإن أجهزة السمع عندهم صحيحة سليمة ، تصل إليها الأصوات ، كما تصل إلى غيرها ، وإنما الفساد فى إدراكها للمسموعات ، إذ لو كان الإدراك سليما ، لاقتحم القلوب والأفهام . ألا ترى كيف آثر القرآن الآذان فى قوله تعالى : **« فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا »**(١٤٣) ؟ ولم يقل : على سمعهم . حيث كان الغرض إلى منع الأصوات من الوصول إلى الآذان مع سلامتها ، وصحة إدراكها ، فأحاطها الله تعالى بسياج محكم ، لا تنفذ منه الأصوات ، وهو ما عبر عنه بالضرب ، استعارة من ضرب الخباء على ساكنه ، فكأنما أقام الله حواجز مانعة من تسرب الأصوات إلى الآذان ، مما جعل بعض المفسرين يقدرون مفعولا محذوفا ، على أن المعنى ضربنا عليهم حجابا يمنع السماع(١٤٤) .

---

(١٤١) فصلت ٥ .
(١٤٢) الأعراف ١٧٩ .
(١٤٣) الكهف ١١ .
(١٤٤) انظر البحر المحيط ١٠٣/٦ .

وكما تفاوتت القلوب فى إدراكها للمعانى ، والأبصار فى إدراكها للمبصرات ، تفاوتت الجلود فى نقلها للإحساس فجمعت كذلك ، وبقى السمع مفردا إيماء إلى وحدة الإدراك . قال تعالى : « **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** »(١٤٥) « **ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** »(١٤٦) .

ومما أفرد فيه اللفظ دلالة على عدم التفاوت فى الوصف قوله تعالى فى بيان مصير الظالمين : « **فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين** »(١٤٧) فأومأ بإفراد الحصيد إلى أن هلاك الظالمين كان هلاك إبادة لم تتمايز فيه أشخاص الهالكين ، ولو جاء جمعا كما قضى به ظاهر السياق فقيل : « محصودين » لوقعت أعيننا على صرعى متمايزين ، حل بهم ضرب من الهلاك ، وهو دون ما يوحى به الإفراد من شدة ما أنزل الله عليهم من عذاب .

ووحد اللفظ للدلالة على عدم التفاوت فى قوله تعالى : « **ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم** »(١٤٨) فأفرد الأجل ، لأنه معبر عنه عن الموت والهلاك ، وهو مما لا يتفاوت فيه الهالكون ، ولذا لم يأت الأجل فى القرآن جمعا أبدا ، مما جعل المفسرين يذهبون إلى أن إضافته إلى الجمع أكسبته العموم ، على حد قول الألوسى فى قوله تعالى « **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** »(١٤٩) (فإظهار الأجل مضافا إلى ذلك الضمير لإفادة المعنى المقصود ، الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ،

---

(١٤٥) فصلت ٢٢ . (١٤٦) الزمر ٢٣ .
(١٤٧) الأنبياء ١٥ .
(١٤٨) يونس ١١ . (١٤٩) الأعراف ٣٤ .

ومجيؤه إياها بواسطة اكتساب الأجل بالإضافة عموما يفيده معنى الجمعية ، كأنه قيل : إذا جاء آجالهم بأن يجيء كل واحدة من تلك الأمم أجلها الخاص بها)(١٥٠) فلو كانت إضافته إلى الجمع تكفى نكتة فى تفسير الإفراد ، لكانت هى نفس النكتة فى إفراد السمع المضاف إلى ضمير الجمع ، وهو ما لم يقل به الألوسى نفسه هناك ، ورأى أن الإفراد دليل على وحدة مدركات السمع دون القلوب والأبصار(١٥١) ، وكان الأولى بالقياس على ذلك أن يقول : وحد الأجل لأن استئصالهم وهلاكهم لا يتفاوتون فيه ، فالناس لا يموتون إلا موتة واحدة ، مهما اختلفت أسباب الهلاك .

التوحيد رمز للإنفراد بالحدث :

من عجيب أدب القرآن وبلاغة نظمه ، أن يتخذ من الإفراد وسيلة لتأديب المسلمين بآدابه ، وإرشادهم بطرف خفى إلى وجوب التستر والتخفى فى مواضع العورات ، وأن يلجأ إلى أسلوب يظهرهم فيه ملتزمين بآداب السلوك ، متلفعين ببرود الحياء ، وذلك قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا** »(١٥٢) .

ففى الآية أقيم الواحد مقام الجمع مرتين :

الأولى قوله « ولا جنبا » أى إن أصابتكم الجنابة بإنزال الماء أو بالتقاء الختانين(١٥٣) وقد عدل عن الجمع أجناب ، أو مجنبين ،

---

(١٥٠) روح المعانى ١١٣/٨ .
(١٥١) روح المعانى ١٣٥/١ .
(١٥٢) النساء ٤٣ .
(١٥٣) المفردات ١٠٠ .

للإلماح إلى أن هذا الوصف مما ينفرد به الإنسان عند حدوثه ، ويتخفى به ويتستر عند قضاء حاجته مع حليلته ، كما يقضى به حياء المؤمن ، أو تفرضه آداب الإسلام ، بخلاف المعطوف عليه قبله ، وهو « وانتم سكارى » والمعطوف بعده وهو المرضى والمسافرون ، ممن شأنهم التجمع التلاقى عند الشرب أو السفر أو نزول المرض بهم . وما علل به ابن منظور وغيره إفراد الجنب مما لا يرقى إلى الكشف عن نكتة الإفراد . يقول ابن منظور : (والرجل جنب من الجنابة ، وكذلك الاثنان والجمع ، والمؤنث ، كما يقال : رجل رضا ، وقوم رضا ، وإنما هو على تأويل ذوى جنب ، فالمصدر يقوم مقام ما أضيف إليه . ومن العرب من يثنى ويجمع ، ويجعل المصدر بمنزلة اسم الفاعل . وحكى الجوهرى : أجنب ، وجنب بالضم ، وقالوا : جنبان وأجناب وجنبيون وجنبات . قال سيبويه : كسر على أفعال ، كما كسر بطل عليه حين قالوا أبطال ، كما اتفقا فى الاسم عليه ، يعنى نحو : جبل وأجبال وطنب وأطناب)(١٥٤) .

فقياس جنب على عدل ورضا يتجاهل وجه البلاغة فى إقامة المصدر مقام اسم الفاعل فى عدل ورضا ، وهو المبالغة فى وصف القوم بالعدالة والرضا ، حتى لكأنهم صاروا نفس العدل والرضا ، وهو ما لا يصح القول به فى الوصف بالجنب ، ووجود جمع فى لغة العرب لهذا المفرد ، كما أكده الجوهرى وسيبويه يحتم أن يكون فى تركه إلى المفرد سر علمناه أو جهلناه ، والدليل على ذلك أن ابن قتيبة عده من مخالفة الظاهر ، فقال فى مقام تعديد أنواع مخالفة الظاهر : ومنه أن تصف الجميع بصفة الواحد ، نحو قوله تعالى : « وإن كنتم جنبا

---

(١٥٤) لسان العرب مادة : جنب .

فاطهروا »(١٥٥) وإن لم يبين سر المخالفة فيه ، كما لم يبينها فى كثير مما ذكره من أنواع المخالفة ، وإلى مثل ذلك ذهب الثعالبى فى فقه اللغة ، حيث جعل الآية من إقامة الواحد مقام الجمع(١٥٦) . فلو كان مما يستوى فيه الواحد والجمع ، لما عد من مخالفة الظاهر أو إقامته مقام غيره . وإنما هو أدب هذه اللغة الذى أذكاه القرآن ورقى به نظمه الكريم .

الموضع الثانى : قوله تعالى : **« لو جاء أحد منكم من الغائط »** حيث غوير فيه النظم ، وخولف مقتضى الظاهر بأن يقال : أو جئتم من الغائط ، ليكون فيه ضربان من البلاغة ، أحدهما : إفراد « أحد » للدلالة على عادة الناس فى الانفراد عند قضاء الحاجة ، وما يلمح به النظم الكريم من وجوب ستر العورة ، والتحلى بآداب الإسلام ، فى إخفاء ما لا يحل لأحد الاطلاع عليه ، وهو يؤكد ما أسلفنا فى إفراد الجنب . وهذا الوجه مما وقع عليه الشهاب الخفاجى ، حيث قال : (وفى ذكر أحد دون غيره إشارة إلى أن الإنسان ينفرد عند قضاء الحاجة كما هو دأبه وأدبه)(١٥٧) .

والضرب الثانى : ما فى « أحد » من الإبهام تجنبا لمواجهة المخاطبين بما يستهجن ذكره ، وإلى هذا الوجه أشار أبو السعود فقال : (وإسناد المجيء منه إلى واحد منهم من المخاطبين دونهم ، للتفادى عن التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا منه أو يستهجن التصريح به)(١٥٨) .

---

(١٥٥) تأويل مشكل القرآن ٢٨٥ .
(١٥٦) انظر فقه اللغة ٣٢٩ .   (١٥٧) حاشية الشهاب ١٤١/٣ .
(١٥٨) تفسير أبي السعود ١٨٠/٢ .

ومما نحن فيه من إفراد اللفظ للانفراد عند وقوع الحدث قوله تعالى : « **كتب عليكم إذا حضر احدكم الموت إن ترك خير الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف** »(١٥٩) « **وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان ياتى أحدكم الموت** »(١٦٠) « **حتى إذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت** »(١٦١) ففى كل هذه الآيات وغيرها تحاشى القرآن إيقاع الموت على الجماعة ، كما يقضى به ظاهر النظم ، فيقول : حضركم الموت - من قبل أن يأتيكم الموت - حتى إذا جاءهم الموت ، لأن غالب ما نراه فى دنيانا هو أن المنايا تغتال الناس فرادى ، فكأن الإفراد إشارة إلى انفراد الميت عند حلول الموت به ، ووراء ذلك من إلهاب الميت وتهييجه إلى المبادرة والاستعداد له ، وتخويفه مما يهجم عليه وحيدا فى موقف لا تناصر فيه ، ما لا ينهض به الجمع لو جاء النظم على ظاهره .

الإفـراد للتعظيم :

من روائع ايثار المفرد على الجمع ، ما نجده فى مجال التذكير بنعم الله تعالى وتعديد آلائه ، حيث أورد القرآن النعمة مفردة فى سبعة وأربعين موضعا ، ولم ترد مجموعة إلا فى مواضع ثلاثة : احدها بصيغة الكثرة ، واثنان بصيغة القلة ، وسيأتى الحديث عن هذه المواضع الثلاثة فى الفصل الذى نعقده للجمع إن شاء الله .

ووراء إيقاع المفرد موقع الجمع اسرار يهمس بها النظم فى كل أذن ترهف السمع لنداءات البلاغة فيه .

---

(١٥٩) البقرة ١٨٠ .
(١٦٠) المنافقون ١٠ .
(١٦١) المؤمنون ٩٩ .

في تذكير بنى إسرائيل بنعم الله عليهم يقول تعالى : **« يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون »**(١٦٢) ونعم الله على بنى إسرائيل لا تحصى ، عدد منها القرآن بعد ذلك : إنزال التورة على موسى ، وإنجاءهم من فرعون ، وفرق البحر بهم وإغراق عدوهم ، وتوبته عليهم بعد عبادة العجل ، وتظليل الغمام عليهم ، وإنزال المن والسلوى ، وتفجير الماء بعصا موسى ، وغير ذلك مما خصهم الله به من النعم ، وما يشتركون فيه مع غيرهم من الناس ، وكل ذلك يعبر عنه القرآن بلفظ النعمة مفردا .

وموسى عليه السلام فى خطابه لبنى إسرائيل يقول فيما حكاه القرآن : **« وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت احدا من العالمين »**(١٦٣) فوحد النعمة مع أنه عدد منها ثلاثا على سبيل الإجمال ، وفى الأخيرة من النعم ما لا يحيط به التفصيل ، وهو قوله **« ما لم يؤت احدا من العالمين »** .

والله تعالى يعدد نعمه على عباده فيقول : **« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »**(١٦٤) .

---

(١٦٢) البقرة ٤٠ .
(١٦٣) المائدة ٢٠ .
(١٦٤) إبراهيم ٣٢ – ٣٤ .

فذكر العديد من النعم تفصيلا ، وما لا يحيط به العد والاحصاء إجمالا ، فى قوله « **وآتاكم من كل ما سألتموه** » ومع ذلك افرد النعمة ولم يجمعها .

ويذكر الله تعالى عيسى عليه السلام بما انعم عليه وعلى والدته ، فيقول : « **إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرىء الأكمة والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى ..** »(١٦٥) فيذكر عددا كثيرا من النعم فى هذه الآية وما بعدها ، ويعبر بالنعمة مفردة .

وسليمان عليه السلام بعد أن امتن الله تعالى عليه وعلى والده بإتيائهما العلم وحشر الجنود من الجن والإنس والطير لسليمان ، وإفهامه لغة النملة بعد إسماعه حديثها ، وهى نعم متعددة ، توجه إلى الله بالدعاء راجيا أن يوفقه لشكره على ما انعم به عليه وعلى والديه فقال : « **رب اوزعنى أن أشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى** »(١٦٦) فافرد النعمة فى مقام الجمع أيضا .

فماذا قال الباحثون فى أسرار النظم ؟ يقول الراغب : (والنعمة للجنس ، يقال للقليل والكثير)(١٦٧) . وقال القرطبى : (والنعمة هنا اسم جنس ، فهى مفردة بمعنى الجمع ، قال الله تعالى : « **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » أى نعمه)(١٦٨) .

فإذا كانت النعمة بدلالتها على الجنس تؤدى معنى الجمع ، فلم

---

(١٦٥) المائدة ١١٠ .
(١٦٦) النمل ١٩ .
(١٦٧) المفردات ٤٩٩ .
(١٦٨) تفسير القرطبى ١/٢٨٢ .

عدل عن الجمع الذى هو أصل ، وهو أقل لفظا وأكثر معنى ؟ . خاصة أن القرآن نطق بالجمع بصيغتيه : القلة والكثرة ؟!

إن سر إيثار المفرد فى كل آيات القرآن ـ ما عدا المواضع الثلاثة التى سترد فى حينها يكمن فى أن إضافة النعمة إلى الله تعالى تكسوها ثوبا من التعظيم ، مما يجعل تذكر واحدة منها كافيا فى أن يخر المنعم عليه ساجدا لربه شكرا عليها ، فكيف بتذكر نعمه كلها أو بعضها ؟ كما يومىء الإفراد إلى أن الإنسان مهما أطاع ربه وانقطع له ، وأوغل فى عبادته لا يستطيع أن يؤدى حق الشكر على نعمة وحدة ، إذ أن التوفيق للطاعة والعبادة ، هو فى حد ذاته نعمة تستدعى الشكر عليها . وأين الإنسان من معرفة كل ما أنعم الله تعالى عليه ، وهو يجهل من نعم الله فى نفسه أكثر مما يعلم حتى يمكنه الشكر على كل النعم ؟ .

لقد نقل الشهاب الخفاجي عن بعض الفضلاء ما نراه الوجه الأليق بالنظم الكريم فى إيثاره الإفراد على الجمع ، وذلك حين قال تعليقا على قول البيضاوى : « ولا تطيقوا عد أنواعها فضلا عن أفرادها ، فإنها غير متناهية » قال الشهاب (وقال بعض الفضلاء : المعنى إن تشرعوا فى عد أفراد نعمة من نعمه تعالى لا تطيقوا عدها ، وإنما أتى بإن ، وعدم العد مقطوع به ، نظرا إلى توهم أنه يطاق ، وفيه مخالفة لكلام المصنف رحمه الله تعالى ، وهو أدق منه ، إذ فيه إشارة إلى أن النعمة الواحدة لا يمكن عد تفاصيلها)(١٦٩) فنعمة الله الواحدة لعظمها بمثابة النعم العديدة التى يعجز الإنسان عن حصرها .

---

(١٦٩) حاشية الشهاب ٥/٢٧٠ .

وكما كان إفراد النعمة سبيلا إلى تعظيمها ، كان إفراد الخطيئة سبيلا إلى تعظيم جرمها ، فى قوله تعالى : « **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** »(١٧٠) فأفرد الخطيئة مع تعدد خطايا المخلدين فى النار ، وجعلها ـ وهى واحدة تحيط به وتشمله ، إيماء إلى تعظيم خطيئة الشرك ، القادرة وحدها على أن تطبق عليه ، وتأخذه من جميع نواحيه لتلقيه فى جهنم ، وتحول دون خروجه منها . وفى ذلك من تعظيم إثم الاجتراء على الله تعالى ، والتحذير من احتقار الذنوب ما لا مزيد عليه . وليس قول من قال : « ومن أفرد الخطيئة أراد بها الجنس ، ومقابلة السيئة ، لأن السيئة مفردة »(١٧١) بكاف فى الكشف عن سر الإفراد .

ومما جاء الإفراد فيه دالا على التعظيم ما تكرر فى القرآن من إسناد القتل إلى فاعله جمعا ، وإيقاعه على المفعول مفردا ، فى قوله تعالى : « **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** »(١٧٢) وقوله فى وصف عباد الرحمن : « **ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق** »(١٧٣) ففى إسناد القتل إلى الجماعة إيماء بمسئوليتها مسئولية متضامنة عن إزهاق الأنفس بغير حق ، فإذا ما تراخت فى الضرب على أيدى سفاكى الدماء ، ومنعهم من العدوان على الأنفس البريئة كان المجتمع بكامله شريكا فى القتل . وفى إفراد النفس مع جمع القاتل تعظيم لحرمتها ، فهى تعادل عند الله نفوس الناس جميعا ، وهذا هو ما صرح به القرآن فى قوله تعالى : « **ومن قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا** »(١٧٤) .

---

(١٧٠) البقرة ٨١ .
(١٧١) البحر المحيط ١/٢٧٩ .
(١٧٢) الأنعام ١٥١ .
(١٧٣) الفرقان ٦٨ .
(١٧٤) المائدة ٣٢ .

رقة اللفظ وحسن جرسه :

ذهب ابن الأثير إلى أن صيغ الألفاظ تتفاوت فى حسنها وخفتها بتفاوت هيئاتها ، فيكون فى صيغة المفرد من الحسن وقبول النفس له ما ليس فى جمعه ، والعكس صحيح ، ومن أجل ذلك يعدل أرباب البيان عن صيغة إلى أخرى طلبا لخفة اللفظ وحسن وقعه على السمع ، ومدار الحكم بحسن اللفظ أو قبحه هو الذوق السليم الذى مرن على أساليب الفصحاء . وبذلك علل ترك القرآن لكثير من الجموع ، ووضع مفرداتها بدلا منها . يقول ابن الأثير : ((ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ، ولا يستفتى فى ذلك إلا الذوق السليم . وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره))(١٧٥) .

ويذكر من ذلك (ما ورد استعماله من الألفاظ مفردا ، ولم يرد مجموعها ، كلفظة « الأرض » فإنها لم ترد فى القرآن إلا مفردة ، فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها فى كل موضع من القرآن ، ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل : ((**ومن الأرض مثلهن**)) فى قوله تعالى : ((**الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن**))(١٧٦) .

لا شك فى أن هنـاك سرا من أسرار الإعجاز وراء إفراد الأرض حيث وقعت فى القرآن . وقد وردت إحدى وستين وثلاثمائة مرة ، من بينهما مائة وستة وسبعون موضعا اقترنت فيها بالسموات مجموعة ، وكان مقتضى التناسب بين الصيغ أن تجمع الأرض كما جمعت السموات ، من مثل قوله تعالى : ((**لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض**))(١٧٧) وقوله ((**لخلق السموات والأرض أكبر من خلق**

---

(١٧٥) المثل السائر ١/٣٨٤ .
(١٧٦) السابق ١/٣٨٧ .
(١٧٧) سبأ ٣ .

الناس »(١٧٨) وفى بعضها تصريح بعدد السموات مع الإبقاء على الأرض مفردة كقوله : « **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن** »(١٧٩) وفى الموضع الذى قصد فيه إلى بيان عدد الأرضين غير القرآن طريقة السبك ليتحاشى ذكر الجمع فقال : « **الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن** »(١٨٠) مما يؤكد أن القران يعمد إلى تجنب هذا الجمع ويتحاشاه .

والآن هل هذا السر هو خفة المفرد وحسنه ، كما ذهب إليه ابن الأثير ، أو أن هنالك غرضا آخر يتصل بالمعنى يلمح إليه بهذه المغايرة ؟

يقول الألوسى : (وجمع سبحانه السموات ، وأفرد الأرض مع أنها على ما تقتضيه النصوص المتعددة متعددة أيضا ، والمؤاخاة بين الألفاظ من محسنات الكلام ، فإذا جمع أحد المتقابلين أو نحوهما ينبغى أن يجمع الآخر عندهم ، ولذا عيب على أبى نواس قوله :

ومالك فاعلمن فينا مقالا
إذا استكملت آجالا ورزقا

حيث جمع وأفرد ، إن جمع لنكتة سوغت العدول عن ذلك الأصل ، وهى الإشارة إلى تفاوتهما فى الشرف ، فجمع الأشرف اعتناء بسائر أفراده ، وأفرد غير الأشرف ، وأشرفية السماء ، لأنها محل الملائكة المقدسين على تفاوت مراتبهم ومعراج الأرواح الطاهرة)(١٨١) .

إلا أن هذه النكتة غير مسلم بها ، لأن القرآن أفرد الأشرف ، وجمع مقابله فى قوله : « **وجعل الظلمات والنور** »(١٨٢) ولا خلاف

(١٧٨) غافر ٥٧ . (١٧٩) الإسراء ٤٤ .
(١٨٠) الطلاق ١٢ .
(١٨١) روح المعانى ٧/٨٠ . (١٨٢) الأنعام ١ .

فى شرف النور سواء أكان حقيقيا أم متجوزا به عن الهداية والإيمان ، ثم إن ابن كثير ذهب إلى عكس مذهب الألوسى ، فعلل جمع الظلمات والشمائل وإفراد النور واليمين بشرف المفرد(١٨٣) .

وللسهيلى فى نتائج الفكر رأى طريف تابعه فيه ابن القيم ، وقد أطال الكلام فيه مما يمكن تلخيصه فى أن لفظة الأرض جارية مجرى المصدر ، فهى بمنزلة السفل والتحت ، فكما لا يجمع السفل والتحت لا يجمع ما جرى مجراه ، أما السماء فهى وإن كان مثالها فى المصادر كالعلاء فهى بأبنية الأسماء أشبه ، فلذلك جمعت ، هذا فرق ما بينهما من جهة اللفظ ، وأما من جهة المعنى (فإن الكلام متى اعتمد على السماء المحسوسة التى هى السقف ، وقصد به إلى ذاتها دون معنى الوصف ، صح جمعها جمع السلامة ، لأن العدد قليل ، وجمع السلامة بالقليل أولى) ثم يقول : (وأما الأرض فلم تجىء فى القرآن مقصودا إلى ذاتها ، ولا معبرا عنها إلا بما هو بمعنى السفل ، والتحت ، تنبيها من الله تعالى على ذمها وإعراضا عن ذكرها ، وترك الاعتناء بها ، إذ كانت دار الحياة الدنيا)(١٨٤) .

هذا التعليل الذى احتشد له ابن القيم ، وبالغ فى الاستدلال عليه لا يروق لى ، لأنه يذهب إلى أن الأرض متى كان القصد إلى وصفها بالدنو والسفل عوملت معاملة المصدر فلا تجمع ، وإن قُصد إلى ذاتها جمعت على حد قول السهيلى : (ألا ترى كيف وردت مجموعة فى نحو قوله عليه الصلاة والسلام « طوقه يوم القيامة من سبع أرضين » لما اعتمد الكلام على ذوات الأرضين وأنفسها على التفصيل)(١٨٥) .

---

(١٨٣) انظر تفسير ابن كثير ١٢٣/٢ .
(١٨٤) نتائج الفكر ص ١٥٧ - ١٦٠ .
(١٨٥) نتائج الفكر ١٥٩ .

فهذا القول بأن الأرض لم يقصد إلى ذاتها فى القرآن كله يرده قوله تعالى : « **الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن** » إذ لا شك فى القصد إلى ذات الأرض وإلى تفصيل عددها ، ومع ذلك غير القرآن طريقة السبك ليبقى على الأرض مفردة .

وما أراه : هو أن القرآن آثر الإفراد لخفته ، بعد أن أقام من القرائن ما يقطع بإرادة الجمع ، من الاستغراق بأل الجنسية وجمع السموات ، وإيثار الأخف من الألفاظ ، الذى يسبق بسلاسته وعذوبته إلى القلب ، قبل أن يسبق بحسن جرسه إلى السمع ضرب من الفصاحة ، وهو فى النظم الكريم ضرب من ضروب الإعجاز .

يبقى بعد ذلك ما يمكن أن يعترض به على ما ارتضيناه سرا لإفراد الأرض ، وهو أن الرسول عليه السلام نطق بالأرض مجموعة فيما رواه الإمام أحمد عن النبى ﷺ قال : « أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض ، تجدون الرجلين جارين فى الأرض - أو فى الدار - فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعا ، فإذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة »(١٨٦) فكيف جمعها الرسول وهو أفصح العرب ، غير مراع ما فى المفرد من الحسن ؟

والجواب على ذلك أنه عليه السلام لا مندوحة له عن الجمع ، إذ لو قال « من الأرض » لما دل على أنه يطوقها من السبع ، فليس فى الإفراد دليل على استغراقه للأرضين السبع ، ألا ترى حينما قصد القرآن بيان عدد الأرض إتى بما يدل عليه صريحا فى قوله « ومن الأرض مثلهن » ولم يتقدم فى الحديث الكريم ذكر السموات السبع ، ليدل على عدد الأرض بالمماثلة كما فى الآية الكريمة .

---

(١٨٦) المسند ١٧٣٢١ .

ثم إنه عليه السلام قصد إلى ثقل الجمع مع ثقل الفعل « طوق » بحروفه وصيغته ليشاكل بين الألفاظ ودلالاتها ، فكان ثقل الألفاظ متآخيا مع ثقل الجزاء وشدته ، كما نجده فى ملاءمة القرآن بين ثقل الفعل « زحزح » وصعوبة جريانه على اللسان ، وبين وطأة العذاب وشدته فى قوله تعالى « **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** »(١٨٧) .

ومما هو بين فى العدول عن الجمع إلى المفرد لخفته وعذوبته كما يشهد به الحس ، إفراد الكأس فى قوله تعالى : « **يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين** »(١٨٨) حيث خالف ظاهر ما يقضى به المقام من تكثير الكؤوس ، وحسن التناسب بين المعطوفات فى صيغة الجمع ، مكتفيا بدلالة المفرد على الجنس ومعونة القرائن مؤثرا حسن المفرد وخفته . والدليل على ذلك أن الكأس لم يرد مجموعا فى الذكر الحكيم أبدا ، كما فى قوله تعالى : « **إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواكب أترابا وكأسا دهاقا** »(١٨٩) فهو مفرد فى مقام الجمع بدلالة عطفه على جموع قبله .

ومثل ذلك استعمال لفظ السفينة مفردا لخفته وحسنه ، وترك الجمع لثقله بتقارب مخارج حروفه ، وثقل تتابع الضمة ، لذلك تكرر المفرد كثيرا ، كما فى قوله تعالى : « **وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا** »(١٩٠) وقوله « **فأنجيناه وأصحاب السفينة** »(١٩١) فلما أراد الجمع لم يجمع لفظها ، وإنما جاء بجمع من معناها ، قال تعالى : « **حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة** »(١٩٢) وقال : « **وترى الفلك مواخر فيه** »(١٩٣) . والفلك كما قال الراغب :

---

(١٨٧) آل عمران ١٨٥ .
(١٨٨) الواقعة ١٧ – ١٨ .
(١٨٩) النبأ ٣٤ .
(١٩٠) الكهف ٧٩ .
(١٩١) العنكبوت ١١٥ .
(١٩٢) يونس ٢٢ .
(١٩٣) النحل ١٦ .

السفينة ، ويستعمل للواحد والجمع)(١٩٤) وهــو هنــا دال عــلى الجمع بدلالة عودة الضمير جمعا فى « جرين » والجمع « مواخـــر » ، كما استعمل الجوارى للـدلالة على السـفن أيضـا ، فى قوله تعـالى : **« ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام »**(١٩٥) فاستغنى بهذه الجموع ولم يستعمل « السفن » أبدا وهذا لون من ألوان الإعجاز فى الكتــاب الحكيم يجب أن تنصرف إليه همم الباحثين عن أسرار الصيغ .

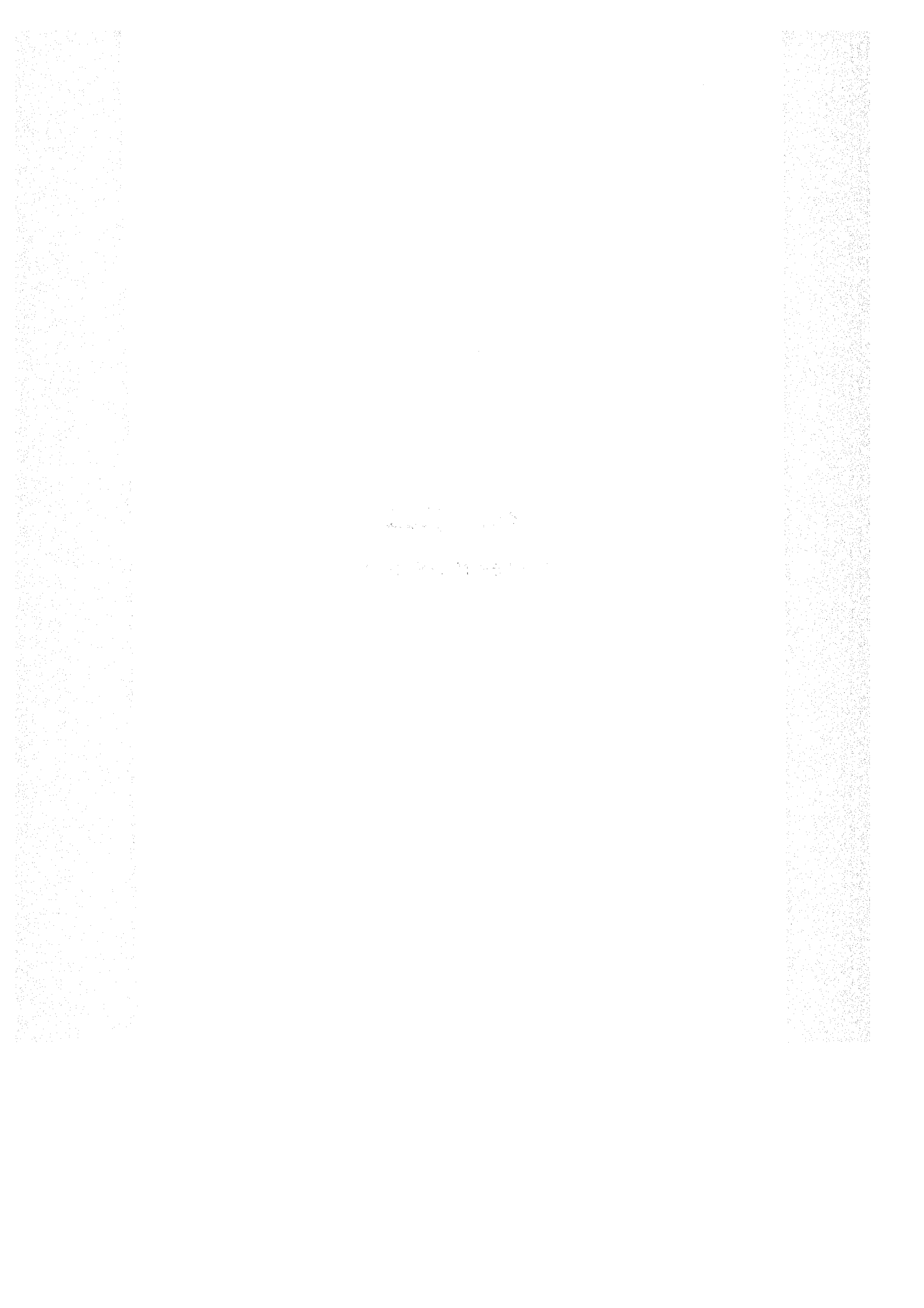
***

(١٩٤) المفردات ٣٨٥ .

(١٩٥) الشورى ٣٢ .

الفصل الثانى

وضع الجمع موضع المفرد



خفة الجمع وعذوبته :

رأينا فى الفصل السابق كيف عدل القرآن عن بعض الجموع واستغنى عنها بمفرداتها لما فيها من العذوبة والحسن ، مكتفيا بالقرائن الدالة على الجمع ، ونراه هنا يعدل عن بعض المفردات إلى جموعها لنفس السبب ٠

يقول ابن الأثير : (فمن ذلك لفظة اللب ، الذى هو العقل - لا لفظة اللب الذى تحت القشر - فإنها لا تحسن فى الاستعمال مجموعة ، وكذلك وردت فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة وهى مجموعة ، ولم ترد مفردة ، كقوله تعالى : « **وليتذكر أولوا الألباب** »(١) و « **إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** »(٢) وأشباه ذلك ٠ وهذه اللفظة ثلاثية خفيفة على النطق ، ومخارجها بعيدة ، وليست بمستثقلة ولا مكروهة ٠ وقد تستعمل مفردة بشرط ان تكون مضافة أو مضافا إليها ، أما كونها مضافا إليها ، فكقولنا : لا يعلم ذلك إلا ذو لب ، وإن فى ذلك لعبرة لذى لب ٠ وعليه قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله أركانا

وأما كونها مضافة فكقول النبى ﷺ فى ذكر النساء : « **ما رأيت ناقصات عقل ودين اذهب للب الحازم من إحداكن يامعشر النساء** »)
ثم يقول : (وإذا تأملت القرآن الكريم ، ودققت النظر فى رموزه وأسراره وجدت مثل هذه اللفظة قد روعى فيها الجمع دون الإفراد ، كلفظة « كوب » فإنها وردت فى القرآن مجموعة ، ولم ترد مفردة ،

---

(١) ص ٢٩ ٠ (٢) الزمر ٢١ ٠

وهى وإن لم تكن مستقبحة فى حال إفرادها ، فإن الجمع فيها أحسن ، وكذلك لفظة « رجـا » بالقصر ، و « الرجـا » الجانب ، فإنها لم تستعمل موحدة ، وإنما استعملت مجموعة ، كقـوله تعـالى : ((**والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية**))(٣) فلما وردت هـذه اللفظة مجموعة ألبسها الجمع ثوبا من الحسن لم يكن لهـا فى حـال كونها موحـدة)(٤) .

حسن الجموع الثلاثة فى نظر ابن الأثير ليس راجعـا إلى علـل محـددة يمـكن معها الحـكم باستكراه مفرداتها ، وإنما هو حسن مرجعه إلى الذوق السليم وحده . لكن المرحوم مصطفى صادق الرافعى يـرى أن مفردات هذه الجموع ثقيلة مستكرهة بما اجتمـع فيهـا من حـروف ليست مؤتلفة فى نسجها ، مما أدى إلى صعوبة الانتقال بينها ، فـكان عدول القرآن عنها ضربا من الإعجاز فى اختيار ألفاظه . يقول الرافعى (ومما لا يسعه طوق إنسان فى نظم الكلام البليغ ، ثم مما يـدل عـلى أن نظم القرآن فوق الصنعة ومن وراء الفكر ، وكأنها صبت على الجملة صبا ، أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعا ، ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فإذا احتاج إلى هـذه الصيغة استعمل مرادفها ، كلفظة « اللب » فإنهـا لم ترد إلا مجموعة ، كقـوله تعـالى : ((**إن فى ذلك لذكرى لأولى الألبـاب**)) وقـوله ((**وليتذكر أولوا الألباب**)) ونحوهما - ولم تجىء فيـه مفردة ، بل جاء فى مكانها القلب ، وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع ، ولا يفضى إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية ، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسـبة بين الرخـاوة والشدة ، تحسن اللفظة مهما كانت حـركة الإعراب فيها ،

---

(٣) الحاقة ١٧ .   (٤) المثل السائر ١/٣٨٤ وما بعدها .

نصبا أو رفعا أو جرا ، فاسقطها من نظمه بتة ، على سعة ما بين أوله وآخره ، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة ، وهذا على أن فيه لفظة « الجب » وهى فى وزنها ونطقها ، لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة فى الجيم المضمومة ، وكذلك لفظة الكوب ، استعملت فيه مجموعة ، ولم يأت بها مفردة ، لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها فى النطق من الظهور والرقة والانكشاف بحسن التناسب ، كلفظ « أكواب » الذى هو الجمع . و « الأرجاء » لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعا ، وترك المفرد وهو الرجا – أى الجانب – لعلة لفظه ، وأنه لا يسوغ فى نظمه كما ترى)(٥) .

هذا التعليل المادى الملموس لم أر مثله لغير الرافعى ، وكل من تناول عدول القرآن عن مفردات هذه الجموع قبله أو بعده كان يرجع عدم حسنها إلى الذوق والحس ، يقول الزركشى : (مما يبعث على معرفة الإعجاز اختلاف المقامات ، وذكر فى كل موضع ما يلائمه ، ووضع الألفاظ فى كل موضع ما يليق به ، وإن كانت مترادفة ، حتى لو ابدل واحد منها بالآخر ذهبت تلك الطلاوة ، وفاتت تلك الحلاوة)(٦) ثم يذكر مفردات عذبت دون جموعها كالأرض والبقعة ، ولفظ اللب الذى عذب جمعه دون مفرده . دون أن يعلل لما فى المفرد أو الجمع من عذوبة ولما فيه من الطلاوة . ولعله يرجع ذلك إلى الذوق جريا على نهج ابن الأثير .

والدكتور أحمد بدوى لم يعلل كذلك لعذوبة الجمع ورقته فى كلمتى « الألباب » و « الأرجاء » وإن كان قد رأى أن قلة الاستعمال وراء هجر مفرديهما يقول : (واستخدم الأرجاء فى قوله سبحانه :

---

(٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٣٢ .
(٦) البرهان فى علوم القرآن ١١٨/٢ .

« **والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ٦٩ : ١٧** »

والألباب فى قوله تعالى : « **إن فى ذلك لعبـرة لأولى الألباب** »(٧) ولم يستخدم مفرد هذين الجمعين ، وهما رجا ولب ، والمفـرد الأول قل استعماله ، والمفرد الثانى قل استعماله بالنسـبة لجمعه ، وجمـع الكلمتين أرق على اللسان من مفرديهما ، والمقـام يستدعيه فيما ورد فيه)(٨) فما قاله من رقة الجمع تكرار لما قبله ولم يعلل لهذه الرقة ، وكأنه يرجع ذلك إلى الذوق أما دعواه قلة الاستعمال فما أورده ابن الأثير من اللب مفردا مضافا أو مضافا إليـه يرد هذه الدعـوى . والحقيقـة التى لا خـلاف عليها هى أن القرآن تجنب مفـردات هـذه الجموع ، واستعاض عنها بمرادفاتها ، وهذا يؤكد ما حكمت به الأذواق السليمة من عذوبة هذه الجموع وحسنها دون مفرداتها .

فقد استعمل القرآن « الألباب » جمعـا ست عشرة مرة ، كقـوله تعالى : « **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون** »(٩) وقوله « **إنما يتذكر أولو الألباب** »(١٠) ولم ترد مفردة البتـة . فلمـا تعين المفرد عدل عنه إلى مرادفه فى قوله تعالى : « **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** »(١١) فاستبدل القلب باللب . والقلب هو أقرب المرادفات إلى معنى اللب ، وما درج عليـه المفسرون من تفسير الألباب بالعقول فيه ضرب من التسـامح ، لأن العقـل أداة التفكير مجردا عما يحمله القلب واللب من فيض الشعور والإحساس ، المصاحب للتفكير ، والدافع إلى التهيؤ للعمل بما يقتنع به من الفـكر ،

---

(٧) صحة الآية « إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » الزمر ٢١ .
(٨) من بلاغة القرآن ١٤١ .
(٩) البقرة ١٧٩ .   (١٠) الرعد ١٩ .
(١١) ق ٣٧ .

ولعل أحدا لم يشر إلى أن القرآن لم يستعمل العقل مفردا ولا جمعا ، وإن كان قد استعمل فعله ماضيا ومضارعا ، كما فى قوله تعالى : **« وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون »**(١٢) فما عقلوه كان بعيدا عن استقباله بإحساس يلهب صاحبه ، ويدفعه للعمل بما هداه إليه فكره . وقد كان الإمام عبد القاهر سباقا إلى التنبيه عن الغفلة فى تفسير القلب بالعقل عند الحديث عن قوله تعالى : **« إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب »** فقال : (فأما تفسير من يفسره على أنه بمعنى « من كان له عقل » فإنه إنما يصح على أن يكون قد أراد الدلالة على الغرض على الجملة ، فأما أن يؤخذ به على هذا الظاهر ، حتى كأن القلب اسم للعقل ، كما يتوهمه الحشو ومن لا يعرف مخارج الكلام فمحال باطل ، لأنه يؤدى إلى إبطال الغرض من الآية ، وإلى تحريف الكلام عن صورته وإزالة المعنى من جهته ، وذلك أن المراد به الحث على النظر والتقريع على تركه ، وذم من يخل به ، ويغفل عنه ، ولا يحصل ذلك إلا بالطريق الذى قدمته ، وإلا بأن يكون قد جعل من لا يفقه بقلبه ، ولا ينظر ولا يتفكر ، كأنه ليس بذى قلب ، كما يجعل كأنه جماد ، وكأنه ميت لا يشعر ولا يحس)(١٣) .

فاللب هو الذى يؤدى ما يؤديه القلب لا العقل ، لذلك كانت مادتاهما تحملان فى أصلهما معنى الخالص من كل شىء . يقول ابن فارس فى مادة اللب : (اللام والباء أصل صحيح يدل على لزوم وثبات ، وعلى خلوص وجودة ... اللب معروف من كل شىء ، وهو خالصه وما ينتقى منه ، ولذلك سمى العقل لبا)(١٤) .

---

(١٢) البقرة ٧٥ . (١٣) دلائل الاعجاز ٣٠٤ .

(١٤) مقاييس اللغة ٥/١٩٩ - ٢٠٠ .

ويقول فى مادة القلب : (القاف واللام والباء أصلان صحيحان ، أحدهما يدل على خالص شىء وشريفه ، والآخر على رد شىء من جهة إلى جهة ، فالأول القلب ، قلب الإنسان وغيره ، سمى لأنه أخلص شىء فيه وأرفعه وخالص كل شىء)(١٥) أما العقل فهو (أصل واحد منقاس مطرد ، يدل عظمه على حبسة فى الشىء ، أو ما يقارب الحبسة ، من ذلك العقل ، وهو الحابس عن ذميم القول والعقل)(١٦) .

فلما عدل القرآن عن مفرد الألباب جاء بأقرب الألفاظ وأقدرها على أداء معناه ، وهذا أحد أسباب الإعجاز فى اختيار اللفظ ، ووضعه موضعه الذى ستلهم ما يشيعه اللفظ فى سياقه من إيحاءات ، إلى ما فى اللفظ من العذوبة والرقة .

ومن العجيب أن يستعمل القرآن من مرادفات العقل « النهى » ولا يستعمله إلا جمعا كذلك ، عازفا عن مفرده « نهية » لنفس السبب من عذوبة الجمع وحسنه ، كما يشهد به الذوق وينطق به الحس ، وقد ورد هذا الجمع مرتين فى سورة طه « **كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** »(١٧) « **أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** »(١٨) وكان وراء إيثاره على الألباب والقلوب ما يحمله فى أصل مادته من النهى عن قبيح الأفعال وذميمها ، وهو الملائم لسياق الموضعين ، ففى الموضع الأول : دعوة إلى العقل أن يتدبر آثار المنعم فيما بين أيدى الناس من نعمه ، وينهى صاحبه عن التمرد على من أنعم عليه ، وفى الثانى دعوة إلى التفكر فى تاريخ الأمم وآثار الهالكين ، وتحذير من الوقوع فى مغبة ما أدى بهذه الأمم إلى الهلاك ، وفى ذلك ما يهيب

---

(١٥) مقاييس اللغة ١٧/٥ .
(١٦) السابق ١٩/٤ .
(١٧) طه ٥٤ .
(١٨) طه ١٢٨ .

بالعقول أن تنهى أصحابها عن الاستمرار فيما يدفع بهم إلى مصير هذه الأمم .

و « الأرجاء » استعملها القرآن مرة واحدة فى قوله تعالى : « **والملك على أرجائها** » بمعنى نواحيها وجوانبها ، ولم يستعمل مفردها وهو « رجا » واستبدل به مرادفه وهو الجانب خمس مرات ، كما فى قوله تعالى : « **لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب** »(١٩) وقوله : « **وواعدناكم جانب الطور الأيمن** »(٢٠) واستخدم مرادفا آخر وهو الطرف ، بمعنى الجانب ، كقوله تعالى : « **ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين** »(٢١) وهذا يؤكد منحى القرآن فى اختيار العذب من الألفاظ ، والبعد عما لا يحسن جرسه فى السمع ، ولا يسهل جريانه على اللسان . ذلك ما لا يخطئه الذوق حين يقارن بين الأرجاء جمعا والرجا مفردا ، وإن عجز عن إبداء أسباب الحسن ، كما هو الشأن فى كثير من ألوان الجمال التى أبدعها الصانع الحكيم ، نهش لها ونطرب لرؤيتها أو سماعها ، ثم لا نستطيع التعبير عن أسباب إعجابنا بها ، واستحساننا لها . يشهد لذلك أن فى القرآن نظائر كثيرة للجمع « أرجاء » ومفرده « رجا » استعملت جموعا وأهملت مفرداتها . فهذا القرآن يتكرر فيه ذكر « الآلاء » جمعا بمعنى النعم فى أربعة وثلاثين موضعا . منها قوله تعالى : « **فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** »(٢٢) وقوله « **فبأى آلاء ربك تتمارى** »(٢٣) وقوله « **فبأى آلاء ربكما تكذبان** » وقد تكرر فى سورة الرحمن ثلاث عشرة مرة . ولم يستخدم مفرده « إلىّ » أبدا ، لأنه لا يعذب كما عذب جمعه ، فعدل عنه إلى مرادفه ، وهو النعمة التى

---

(١٩) الصافات ٣٧ .
(٢٠) طه ٨٠ .
(٢١) آل عمران ١٢٧ .
(٢٢) الأعراف ٦٩ .
(٢٣) النجم ٥٥ .

وردت فى القرآن سبعة واربعين مرة ، وليس لذلك تفسير سوى أن القرآن يتخير من الألفاظ أعذبها وأرقهـا . ولا يخفى على ذى ذوق ما فى الآلاء من الخفة والرقة التى يفتقدها المفرد « ألى » فلما استخدم القرآن مفرد الآناء وهو « إنَى » المناظر لمفرد الآلاء حسنه بالاضافة فى قوله تعالى : « **غير ناظرين إناه** »(٢٤) أى وقته وهو الموضع الوحيد الذى ورد فيه مفردا .

أما الأكواب فبالرغم من حسنها وعذوبتها جمعا مما يفتقده مفردها ، فإن القول بأن القرآن أعرض عن مفردها لافتقاده عذوبة الجمع ، مما لا يسنده دليل ، فجميع المواضع التى وردت فيها الأكواب جمعا مما استدعاه المقام ، ولا سبيل إلى العدول عن الجمع ، وهى قوله تعالى : « **يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب** »(٢٥) وقوله : « **يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب وأباريق** »(٢٦) وقوله : « **ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب** »(٢٧) وقوله : « **فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة** »(٢٨) فالأكواب فى كل هذه الآيات معطوفة على جموع ، ويقتضى التناسب أن ترد مجموعة . فلا سبيل إلى القول بأن القرآن هجر مفردها إلا أن يكون قد استعمل الجمع فى مقام الواحد ، أو عدل عن هذا اللفظ إلى مرادفه ، وهذا ما لم يقع فى القرآن ، فلا هو استعمل الجمع فى موضع الواحد ، ولا استعمل مرادفا للمفرد ، فمن أين جاءنا أن القرآن عزف عنه لعدم عذوبته ؟

وكما أن ابن الأثير اعتمد على ذوقه فى الحكم بعذوبة الأكواب دون مفردها ، محتجا بان القرآن لم يستعمله ، دون أن يتحقق من مقتضيات الأحوال فى الجمع والإفراد ، فجانبه الصواب ، وقع فى مثل

---

(٢٤) الأحزاب ٥٣ .
(٢٥) الزخرف ٧١ .
(٢٦) الواقعة ١٨ .
(٢٧) الإنسان ١٥ .
(٢٨) الغاشية ١٤ .

هذا الخطأ حين حكم بأن « الأخبار » مما عذب فيه الجمع دون المفرد - وأن القرآن لذلك لم يستعمله . فقال : (وعلى هذا النهج وردت لفظة « خبر » و « أخبار » فإن هذه اللفظة مجموعة أحسن منها مفردة ، ولم ترد فى القرآن إلا مجموعة)(٢٩) .

لقد جانب التوفيق ابن الأثير فى دعواه عدم عذوبة المفرد ، وفى القول بأن القرآن لم يرد فيه الخبر مفردا ، مع أنه ذكر فى القرآن مرتين إحداهما فى سورة النمل « سآتيكم منها بخبر »(٣٠) ، والثانية بنفس النص فى سورة القصص(٣١) ، فلو كان الخبر مما لا يعذب فى السمع ، أو يتعثر به اللسان ، لكان فى مرادفه وهو النبأ غنية عنه ، وقد ورد النبأ فى الذكر الحكيم مفردا وجمعا .

على أن هناك ما هو أظهر فى الدلالة على أن القرآن يهجر المفرد إذا لم يكن فيه عذوبة جمعه ، مراعاة لحسن جرس الكلمة ، وخفة جريانها على اللسان مستغنيا بمرادف أخف وأرق . مثلما استغنى عن لفظة « جدث » التى استعمل جمعها « الأجداث » فى قوله تعالى : « فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون »(٣٢) وقوله : « يوم يخرجون من الأجداث سراعا »(٣٣) ولم يرد « الجدث » مفردا لما فيه من ثقل اجتماع حرفين متقاربين فى مخرجهما ، وهما الدال والثاء ، فلما فصل بينهما فى الجمع « أجداث » خف وعذب ، لذلك عدل القرآن عن المفرد إلى مرادفه ، وهو القبر لخفته وحسنه ، فقال : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره »(٣٤) ولك أن تقارن بين ما عليه النظم وأن تقول : ولا تقم على جدثه . فإنك حينئذ سوف تسبح بحمد من أعجز الخلق بلسان الحق .

---

(٢٩) المثل السائر ١/٣٨٧ .
(٣٠) النمل ٢٧ .
(٣١) القصص ٢٩ .
(٣٢) يس ٥١ .
(٣٣) المعارج ٤٣ .
(٣٤) التوبة ٨٤ .

أستعارة الجمع للتعظيم :

يرد الجمع فى القرآن مرادا به تعظيم الواحد على طريق المجاز ، فيستعار معنى الكثرة فى الجمع للواحد ، ذهابا إلى تعظيمه . وقد أفرد الثعالبى فصلا للجمع يراد به الواحد ، جاء فيه (من سنن العرب الإتيان بذلك ، كما قال تعالى : « **وما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله** » ، وإنما أراد المسجد الحرام)(٣٥) ويتتبع ما جاء فى القرآن من المساجد جمعا مرادا به الواحد ، يطالعنا من ذلك موضعان ، أولهما : قوله تعالى : « **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين** »(٣٦) وقد اختلف فى المراد بالمساجد فيه ، بين قائل بأنه المسجد الأقصى ، وقائل بأنه المسجد الحرام على ما جاء فى تفسير الطبرى : (إن أهل التأويل فى ذلك مختلفون ، فقال بعضهم : الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم النصارى ، والمسجد بيت المقدس .. وقال آخرون : بل عنى الله عز وجل بهذه الآية مشركى قريش إذ منعوا رسول الله ﷺ من المسجد الحرام)(٣٧) .

وسواء أكان المراد المسجد الحرام أم المسجد الأقصى ، فهو من إطلاق الجمع وإرادة الواحد تعظيما له ، وتحذيرا من أن تخريبه تخريب لكل مسجد فى الأرض .

والموضع الثانى : قوله تعالى : « **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار**

---

(٣٥) فقه اللغة ٣٢٩ .   (٣٦) البقرة ١١٤ .

(٣٧) تفسير الطبرى ٢/٥٢٠ وما بعدها بتصرف .

هم خالدون »(٣٨) والنص فيه على المشركين يعين المراد بالمساجد ، وهو المسجد الحرام ، ويدل له قراءة الإفراد ، والتعبير بالجمع فيه يجسد شرف هذا المسجد ، وما له من منزلة رفيعة فى نفوس المسلمين باعتباره قبلة المساجد كلها . ولا أحسب أن الزمخشرى كشف عن وجه البلاغة فى إيثار الجمع على الواحد حين قال : (فإن قلت : فكيف قيل مساجد الله ، وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد ، هو بيت المقدس أو المسجد الحرام ؟ قلت : لا باس ان يجىء الحكم عاما وإن كان السبب خاصا ، كما تقول لمن آذى صالحا واحدا : ومن أظلم ممن يؤذى الصالحين ، وكما قال الله عز وجل : « ويل لكل همزة لمزة » والمنزول فيه الأخنس بن شريق)(٣٩) فليس فى نص الزمخشرى هذا أكثر من صحة التعبير بالجمع ، والتاكيد على انه إلف جرى به لسان العرب . لكن لماذا كان العدول إلى هذه الطريقة فى التعبير ؟ وما الفرق بين أن تقول لمن آذى صالحا واحدا : ومن أظلم ممن يؤذى صالحا ، وان تقول : ومن أظلم ممن يؤذى الصالحين ؟ اليس فى التعبير الأخير تعظيم لهذا الصالح حين جعل وحده بمثابة أمة من الصالحين ؟ وأن من آذاه فقد آذى الصالحين جميعا ؟

إن الوقوف عند صحة التعبير والاستشهاد له مما لا يرضى طموح الباحث عن أسرار الإعجاز فى النظم الحكيم ، وما كان مثل الزمخشرى بالذى يقنعه أن يقال : لا باس بالعدول إلى الجمع ، لان هذا صحيح جائز .

وفيما نقله القرطبى عن الحسن إشارة دالة على بلاغة الجمع وزيادة التعظيم منه . قال القرطبى : (وقد يحتمل أن يراد بقراءة

---

(٣٨) التوبة ١٧ .　　(٣٩) الكشاف ١/٣٠٦ .

الجمع المسجد الحرام خاصة ، وهذا جائز فيما كان من أسماء الجنس ، كما يقال فلان يركب الخيل ، وإن لم يركب إلا فرسا ، والقرآءة «مساجد» أصوب ، لأنه يحتمل المعنيين • وقد أجمعوا على قراءة قوله **« إنما يعمر مساجد الله »** على الجمع • قاله النحاس • وقال الحسن : إنما قال مساجد ، وهو المسجد الحرام ، لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها)(٤٠) فقد تجاوز الحسن خط الجواز الذى وقف عنده القرطبى ، ليكشف عن وجه البلاغة فى جمع المساجد تعبيرا عن المسجد الواحد ، ورآه تعظيما له وتشريفا لأنه قبلة المساجد ، وإمامها •

والتعظيم بصيغة الجمع والضمائر الدالة عليه غير عزيز فى القرآن ، بل ان أكثر ما تحدث فيه الله عن عظمة ذاته كانت الجموع أو ضمائر الجمع ناطقة بتعظيم المتكلم ، مسبغة على المتحدث عنه من جلال المتحدث ما يوجب تعظيمه • تجد ذلك فى قوله تعالى : **« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »**(٤١) حيث كان للجمع « حافظون » مع ضمائر الجمع للمعظم نفسه بالغ الدلالة فى إبراز قدرته تعالى على حفظ كتابه ، وصيانته من أهواء المحرفين والعابثين ، والإفاضة من عظمة المتكلم على كلامه ما يبعث الجلال والهيبة فيما نطق به •

ألا ترى كيف خلع النظم الكريم بالجمع وضمائره الناطقة بعظمة المتكلم وسلطانه جوا من الطمأنينة فى رحاب معيته ، وأسبغ من جلال المرسل على رسوله ما يبعث فيه الثقة ، ويفجر ينابيع القوة المستمدة من ذات من أرسله ، إذهابا للخوف ودرءا لما قد يعتريه من الضعف البشرى • هذا ما نراه حيا ناطقا فى الحوار بين موسى وربه ، **« قال رب إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى**

---

(٤٠) تفسير القرطبى ٥/٢٩٢٨ •   (٤١) الحجر ٩ •

هارون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون »(٤٢) فهل يمكن التغافل عما أشاعه الجمع « مستمعون » مع ضمائر الجمع السابقة من روح الطمأنينة والثقة فى معية الرب العظيم ؟ ٠

قارن إن شئت بين قوله تعالى خطابا للنبيين الكريمين فى سورة طه : « **قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى »(٤٣)** بضمير المتكلم المفرد ، وبين صيغة الجمع وضميره هنا « إنا معكم مستمعون » ٠ تجد أن الخوف هنا أشد فقابله بروح من الطمأنينة أقوى ، بثته صيغة الجمع وضمائرها ، فقد كان الخوف فى سورة طه من إفراط فرعون وطغيانه ، ولم يصل إلى حد الخوف من القتل ، وهو الذى صرح به فى سورة الشعراء ، ثم إن الخوف هناك كان منصبا على فرعون وحده ، « **قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى »**(٤٤) وهو هنا خوف من فرعون وقومه « **قال رب إنى أخاف أن يقتلون** » فقابل الإفراد بالإفراد ، والجمع بالجمع ، طلبا للتناسب بين الصيغ من جانب ، وزيادة طمأنينة بالجمع فى مقام شدة الخوف ٠ وهو من روائع أسرار النظم الحكيم ٠

وهذه صيغة الجمع تريك جحافل القوة مسرعة لنجدة نبى الله نوح ، وهو يستغيث بالعظيم الجبار ، فيجيبه الله بصيغة التعظيم المنذرة بشدة الانتقام ، الهاتفة بقوة المنتصر : « **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم »**(٤٥) يقول جار الله الزمخشرى : (والجمع دليل العظمة والكبرياء ، والمعنى : إنا أجبناه أحسن الإجابة ، وأوصلها إلى مرادة وبغيته من نصرته على أعدائه ،

---

(٤٢) الشعراء ١٢ - ١٥ ٠

(٤٣) طه ٤٦ ٠

(٤٤) طه ٤٥ ٠

(٤٥) الصافات ٧٥ - ٧٦ ٠

والانتقام منه بأبلغ ما يكون).(٤٦) .

قلت : إن تعظيم المتكلم بالجمع يخلع من عظمته على الكلام ما يكسب وعده أو وعيده روحا من القوة لا يكون له فى الإفراد ، وذلك ما أحسن التعبير عنه جار الله ، حين رأى أن العظمة والكبرياء فى المجيب اكسبت الإجابة قوة وتعظيما ، فصارت أحسن الإجابة ، وصار الانتقام لمن ناداه أعظم انتقام وأبلغه .

وهذه جموع تتوالى مع ضمائرها ، وتتحدر معها فيوضات القدرة ، وسحائب الرحمة والعناية ، المستمدة من عظمة المتكلم وقدرته ، لتحيط النبيين الكريمين ، وتسبغ عليهما من الجلال والسلطان ما يليق بجلال الواهب فى قوله تعالى : « **وداوود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين** »(٤٧) فهذه جموع عبرت عن ذات المتكلم الواحدة (شاهدين - فاعلين - عالمين - حافظين) وهى مع ضمائر الجمع بدلالتها على عظمة القادر وإحاطته بخلقه ، أفاضت على سياقها ضربا من اليقين يزيل كل شك عما يبدو غريبا فى دنيا الناس ، من تسبيح الجبال والطير ، وتعليم نبيه دقائق الصنعة بدون معلم ، وتسخير الريح تجرى رخاء طوع عبد من عباده ، وانطباع الجنس المتمرد على ربه ، المتسلط على خلقه لأمر نبيه يتحكم فيه كيف يشاء . إن هذه لا شك معجزات تنبىء عن عظمة من أجراها ، جسدها القرآن الكريم فى هذه الجموع

---

(٤٦) الكشاف ٣/٣٤٣ . (٤٧) الأنبياء ٧٨ - ٨٢ .

الناطقة بعظمة وكبرياء المتكلم ، الملوحة بأن هـذه العظائم من الأحداث هي من صنع إله أعظم .

هذا الجو من التعظيم والإجلال مس الرسولين الكريمين ، فتحول المثنى إلى جمع في قوله : « لحـكمهم شـاهدين » إذ كانت مراقبة العظيم وشهادته لحكمهما تعظيما لهما بما منحهما من الرعاية والحياطة التي تضمن لهما المثالية في العدالة ، بما يخرج عن طوق البشر إذا ما فارقتهم عنايته وإلهامه .

إن التنـاسب في الألفـاظ بين صيغتي الجمع « لحـكمهم » و « شـاهدين » والتناسب بينهمـا في التجـوز بالجمـع عن الواحـد أو الاثنين ، وما أشاعاه من تعظيم أمـر القضاء بما يتطلبه من تحـرى العدل ، وتعظيم الحـاكم الحـريص على ضبط موازين العدالة ، متمثلا في النبيين العظيمين ، وفـوق ذلك وقبـله تعظيم خير الشاهدين ، إن كل ذلك يضيع حين نقف عند النظرة الضيقة للإفراد والجمع ، ودلالاتهما الظاهرة دون النفاذ إلى أغراض النظم الحكيم ، كما نجده في تعليلات المفسرين مثل قول أبي حيان : (والضمير في (لحكمهم) عائد على الحاكمين والمحـكوم لهما وعليهما ، وليس المصدر هنا مضافا ، لا إلى فاعل ولا إلى مفعول)(٤٨) فهو من أجل تصحيح الجمع في الضمير يخالف المعهود من طرائق التعبير في إضافة المصدر إلى فاعله أو مفعوله ، ليجعل الضمير كاللغو ، ويتناسى من صدر منهما الحـكم ليـكون المعنى كما حـرره أبو حيـان : (وكنا للحـكم الذي صـدر في هـذه القضـية شاهدين)(٤٩) وفي هذا من الإغضاء عن بلاغة إقـامة الجمع مقـام الاثنين ما لا يخـفى . ولو أن القـرآن قـال : « لحـكمهما » لـما قال أبو حيان ما قال .

(٤٨) البحر المحيط ١/٣٣٠ . (٤٩) السابق ١/٣٣١ .

ولا يخفى على المتأمل ما يكاد يكون طريقة معهودة ومسلكا مطردا فى العدول إلى صيغة الجمع ، حين يتحدث الله فى كتابه عن جليل صنعه ، وبديع خلقه ، وإحاطته بما أبدع فى كونه ، ليومىء إلى أن هذا الخلق العظيم وراءه خالق أعظم ، فهذا قوله تعالى : « **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين** »(٥٠) ففى الجمع « فاعلين » تعظيم للفاعل والفعل معا ، وهو السر الذى من أجله لم يقل : إنا كنا قادرين أو خالقين ، مؤثرا مادة الفعل ، ليوجه العقول إلى الربط بين عظائم الأفعال وعظمة الفاعل .

وإليك طرفا من النظم الكريم فيما يتصل بعجائب قدرة الله تعالى وتصويرها بالجمع المنبىء عن جلال الخالق : « **افرايتم ما تمنون أانتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين** »(٥١) « **افرايتم ما تحرثون أانتم تزرعونه أم نحن الزارعون** »(٥٢) « **افرايتم الماء الذى تشربون أانتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون** »(٥٣) « **افرايتم النار التى تورون أانتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون** »(٥٤) .

فتأمل التناسب فى اللفظ بين جموع من يخاطبهم من خلقه ، والجموع الناطقة بعظمته سبحانه ، وكيف بدت جموعهم ضعيفة عاجزة أمام وحدانيته التى بسطت الجموع آثار العظمة فى أفعالها ؟

روح التعظيم هذه كثيرا ما تكتسبها الأفعال من صورة الجمع ، الذى يجعل الآحاد منها تعادل الجموع فى آثارها وخطورتها ، على

---

(٥٠) الأنبياء ١٠٤ .
(٥١) الواقعة ٥٨ - ٦٠ .
(٥٢) الواقعة ٦٣ - ٦٤ .
(٥٣) الواقعة ٦٨ - ٦٩ .
(٥٤) الواقعة ٧١ - ٧٢ .

سبيل العدوى التى تتسرب من معنى الكثرة فى الجمع إلى معنى الزيادة فى الصفة ، يصير بها الواحد عدة . ومنها قوله تعالى : **« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين »**(٥٥) .

فقد تجسدت روح العدالة وتنامت ذاتا وصفة ، بما ابتدأه الله بضمير الجمع « ونضع » ، وحسبك أن يكون الحاكم هو أعدل العادلين ، ثم بالجمع فى « الموازين » تعظيما لها ، وإشعارا بأن الكثرة هى زيادة فى الدقة وتناهى العدل ، ثم بالجمع المنبىء عن المحاسب الأعظم ، الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، « وكفى بنا حاسبين » . يقول الألوسى فى سر جمع الموازين ، وهو الوجه : (والتعدد اعتبارى ، وقد يعبر عن الواحد بما يدل على الجمع للتعظيم)(٥٦) . وبنفس القدر من الإعجاب بجلال النظم فى جمع الموازين الموحى بالمبالغة فى العدل ، يستقبل الحس والذوق إفراد « القسط » المنبىء عن وحدة العدل ، وعدم التفاوت ، ووحدانية العادل الذى لا يظلم نفسا شيئا .

ومما تجوز فيه بالجمع عن الواحد قوله تعالى فى الرد على أهل الكتاب : **« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله »**(٥٧) فالناس الذين حسدهم أهل الكتاب هم النبى عليه السلام ، والفضل هو النبوة . قال ابن كثير : (يعنى بذلك حسدهم النبى ﷺ على ما رزق من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب ، وليس من بنى إسرائيل)(٥٨) فهو من إقامة الجمع مقام الواحد تعظيما للنبى عليه السلام ، وتنزيلا للكثرة فى خصال الخير

---

(٥٥) الأنبياء ٤٧ .

(٥٦) روح المعانى ١٧/٥٤ .

(٥٧) النساء ٥٤ .

(٥٨) تفسير ابن كثير ١/٥١٣ .

منزلة الكثرة فى العدد ، وذلك ما صرح به الفخر الرازى فى قــوله : (وإنما جـاز أن يقع عليـه لفظ الجمع وهو واحـد ، لأنه اجتمع عنده من خصال الخير ما لا يحصل إلا متفرقا فى الجمع العظيم ، ومن هـذا يقال أمة وحده ، أى يقوم مقام أمة)(٥٩) .

وفى مجـال تعظيم جرم المكذبين بالرسل يضع القرآن الجمع موضع الواحد ليومىء به إلى عظم ما يرتكبه الناس من الإثـم حـين يكذبون نبيهم ، فهم لا يكذبونه وحده ، وإنما يكذبون رسل الله جميعا ، مما ينذر بعظيم الانتقام من الله ، وقد تكرر ذلك فى قصص الأمم الهـالكة التى انزل الله تعالى بها من عذابه ما جعلها عبرة للمكذبين . قال تعـالى : « **وقوم نوح لمـا كذبوا الرسل اغرقناهم وجعلناهم للنـاس آية** »(٦٠) وقال : « **كذبت قوم نوح المرسلين** »(٦١) فجمع « الرسل » و « المرسلين » والمكذب هو نوح وحده . وقال تعالى : « **ولقد كذب اصـحاب الحجـر المرسلين** »(٦٢) وقال : « **كذبت ثمود المرسلين** »(٦٣) والمكذب فيهمـا واحـد من المرسـلين هو صـالح عليـه السلام . وقال : « **كذبت عـاد المرسلين** »(٦٤) والمكذب هو هود وحده ، والقـرآن فى ذلك يصـور بشـاعة الجرم فى تكذيب الأمة لنبيها ، فهى لا تكذبه وحده ، وإنما تتنكر لكل رسالات السماء ، وهم بذلك يتحملون وزر تكذيب النبيين جميعا . وإذا كان القاسمى قد صرح بأن الجمع فى قوله تعالى : « **وقـوم نوح لمـا كذبوا الرسل** » لتعظيم رسـالته(٦٥) وأوما إلى مثـله فى تفسير

---

(٥٩) تفسير الفخر الرازى ١٠/١٢٦ .

(٦٠) الفرقان ٣٧ .

(٦١) الشعراء ١٠٥ .

(٦٢) الحجر ٨٠ .

(٦٣) الشعراء ١٤١ .

(٦٤) الشعراء ١٢٣ .

(٦٥) محاسن التاويل ١٢/٤٥٧٨ .

الجلالين حين قال : (بتكذيبهم نوحا لطول لبثه فيهم فكأنه رسل)(٦٦) فإننى أرى أن التعظيم قصد به تفظيع جرم التكذيب ، إذ أن من يكذب جمعا أكثر جرما وأحق بالعذاب ممن يكذب واحدا ، وبذلك تشمل النكتة التعبير بالجمع فى تكذيب هود وصالح عليهما السلام ، وهما لم يطل مكثهما كما طال مكث نوح عليه السلام .

إيثار الجمع للمبالغة :

يعدل القرآن إلى الجمع ليكنى بدلالته الظاهرة على الكثرة عن قوة الصفة على سبيل المبالغة ، وللقرآن فى ذلك عجائب لا تتناهى .

فأنت تجده يطلق العين مفردة ، ويريد بها لازمها من الحفظ والرعاية ، فى قوله تعالى خطابا لموسى عليه السلام : « **والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى** »(٦٧) . ثم تراه يطلق العين جمعا ، فيضيف بالجمع كناية أخرى عن المبالغة فى الحفظ والرعاية ، زيادة فى طمأنة النبى ﷺ والربط على قلبه ، وزيادة تكريم وتشريف له فى قوله تعالى : « **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا** »(٦٨) فيأتى جمع الأعين دليلا على مضاعفة الحفظ والحياطة من الله تعالى لنبيه ، فى مواجهة تزايد حملات المشركين المسعورة وتصاعد كيدهم .

يطرد ذلك فى الحديث عما غمر الله به نوحا عليه السلام من فضل عنايته ، وهو يأمره بصنع الفلك استعدادا ليوم تتفتح فيه أبواب السماء ، وتتفجر ينابيع الأرض عن طوفان مدمر لم تشهد البشرية له مثيلا ، انتقاما من قوم طال كفرهم وعصيانهم ، فكان إقدام نوح على صنع سفينة يتعلق بها مصير عصابة الحق ، على أعين قوم ساهرين على

(٦٦) تفسير الجلالين بهامش الفتوحات الإلهية ٣/٢٥٧ .
(٦٧) طه ٣٩ . (٦٨) الطور ٤٨ .

إفساد كل ما يتخذ من أسباب النجاة ، بحــاجة إلى المزيــد من تثبيت قلبه ، والنفث فى روعه ، أن الله تعالى يحيطه ببالغ رعايته (كان الله معه أعينا تكلؤه أن يزيغ فى صنعته عن الصواب ، وأن لا يحــول بينــه وبين عمله أحــد من أعدائه)(٦٩) لذا جاءت الأعين جمعا فى كل موطن أمر فيه نوح بصنع الفلك ، كما جاءت جمعا تعبيرا عن رعاية الله لها ، وهى تجرى بهم فى أمواج كالجبال ٠ قال تعالى : **« واصــنع الفــلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون »**(٧٠) ٠ **وقال : « وحملنــاه على ذات الــواح ودسر تجــرى باعيننــا »**(٧١) وفى الآية الأخيرة تتعانق الكنايات الثلاث : الكناية عن السفينة بوصفها « ذات الواح ودسر » تنبيها إلى أن النجــاة بقــوة المسبب ، لا بقــوة السبب ، فهم محمولون على آلة ضعيفة مكونة من الواح ودسر ، تجــرى فى غمرات أمواج أطبقت عليها من السماء والأرض ، مما يمكن أن تمزق وحدتها إلى هــذه الأجزاء فلا يبقى من السفينة اسمها ولا رسمها ، لتتعلق الأنظار والقلوب بالحامل الحقيقى المعبر عن ذاتــه بضـمير العظمـــة « وحملناه » ، ثم تجيء الكناية الثانية بالعين عن الحفظ ، لأنها آلته ، تعضدها كناية ثالثة فى جمع الأعين ، المنبيء عن شــدة الحفظ والمبالغة فى الرعاية ٠ يقول البيضاوى : (عبر بكثرة آلة الحس الذى يحفظ به الشيء ويراعى عن الاختــلال والزيـــغ ، عن المبـــالغة فى الحفـــظ والرعاية)(٧٢) ويعلق الشهاب على عبارة البيضاوى بقــوله : (قيل : والملابسة للعين كناية عن الحفظ ، والأعين للمبالغة فيه ، كما أن بســط اليد كناية عن الجود ، وبسط اليدين كناية عن المبــالغة فيه)(٧٣) ٠

---

(٦٩) الكشاف ٢٦٨/٢ ٠

(٧٠) هود ٣٧ ٠ (٧١) القمر ١٣ ـ ١٤ ٠

(٧٢) تفسير البيضاوى ٩٦/٥ ٠

(٧٣) حاشية الشهاب علي البيضاوى ٩٦/٥ ٠

ومن المبالغة بالجمع على سبيل التجوز بالكثرة عن الشدة ، **قوله** تعالى تصويرا لهول ما يحيط بالكافرين من الشدائد عند الموت : **« ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون »(٧٤) ٠**

فكان للجمع « غمرات » أثر بالغ فى تصوير ما أحاط بالظالمين من الشدائد وتكاثرها ، مبالغة فى شدة ما يعانونه من آلام الموت ٠ قال الطاهر بن عاشور : (وجمع الغمرات يجوز أن يكون لتعدد الغمرات بعدد الظالمين ، فتكون صيغة الجمع مستعملة فى حقيقتها ، ويجوز أن يكون لقصد المبالغة فى تهويل ما يصيبهم بأنه أصناف من الشدائد ، هى لتعدد أشكالها وأحوالها لا يعبر عنها باسم مفرد)(٧٥) ٠

والوجه الثانى هو الذى يعض على مثله بالتواجذ ، حيث تتعانق المبالغة باستعارة الغمرات للشدائد ، مع استعارة الجمع المصورة لهول ما أحاط بهم من آلام الموت وعذابه ٠

ومن عجيب نظم القرآن ، وبديع تصرفه فى صيغ الألفاظ أن يتخذ من الجمع وسيلة للمبالغة فى القلة والتهوين ، بعد أن رأيته يستعار للكثرة والتهويل ، وهو ضرب عال من البيان ينقلك فيه اللفظ إلى نقيض معناه ، كما تراه فى الاستعارة التهكمية ٠ من ذلك قوله تعالى على لسان فرعون تحقيرا لجمع موسى وتهوينا من شانهم : **« فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون »(٧٦) ٠**

فقد جعلهم شرذمة ، وهى الطائفة القليلة من الناس ، ووصفهم بالقلة ، وبالغ فى هذه القلة بجمع الوصف الدال على أن كل ما تضمه

---

(٧٤) الأنعام ٩٣ ٠
(٧٥) التحرير والتنوير ٣٧٧/٧ ٠
(٧٦) الشعراء ٥٣ - ٥٤ ٠

هذه الطائفة من جماعات صغيرة هى قليلة ذليلة فى نفسها . ذلك ما كشف عنه جار الله الزمخشرى معددا ضروب المبالغة التى أفادها الوصف بالجمع ، فقال : (الشرذمة ، الطائفة القليلة ، ومنها قولهم : ثوب شراذم للذى بلى وتقطع قطعا ، ذكرهم بالاسم الدال على القلة ، ثم جعلهم قليلا بالوصف ، ثم جمع القليل ، فجعل كل ضرب منهم قليلا ، واختار جمع السلامة الذى هو للقلة)(٧٧) .

هذه الضروب من المبالغات التى التقطتها عين الزمخشرى ووقع عليها حسه الدقيق ، لم تكف ابن المنير ، حتى أضاف إليها لونا آخر من بلاغة الجمع ، لا يقل حسنا وطرافة عما استخرجه الزمخشرى . يقول ابن المنير : (ووجه آخر فى تقليلهم يكون خامسا ، وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد ، قد يكون مبالغة فى لصوق ذلك الوصف بالموصوف ، وتناهيه فيه ، بالنسبة إلى غيره من الموصوفين ، كقوله : معًا زيد جياع ، مبالغة فى وصفه بالجوع ، فكذلك ههنا جمع قليلا ، وكان الأصل إفراده ، فيقال : لشرذمة قليلة ، كما أفرد فى قوله : « كم من فئة قليلة » ليدل بجمعه على تناهيهم فى القلة)(٧٨) .

ومثله ما جاء فى وصف الذرية بالجمع ضعفاء ، فى قوله تعالى : **« أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار وله فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت »(٧٩) .**

فقد تجاوب الجمع « ضعفاء » مع أطراف النظم فى هذا التمثيل المبهر ، المبنى على المبالغة فى طرفيه : مبالغة فى النعيم والرخاء

---

(٧٧) الكشاف ٣/١١٤ .
(٧٨) الإنصاف ٣/١١٤ .
(٧٩) البقرة ٢٦٦ .

تجسدها الجموع : نخيل ، وأعناب ، وكل الثمرات ، ومبالغة فى الضياع على الطرف الآخر ، مهد لها بقوله « وأصابه الكبر » ثم جاء وصف ذريته بالضعفاء ، متضمنا وجهين من المبالغة ، أحدهما ما فى الضعف من شدة الحاجة إلى ما بين أيديهم من الجنة ، وهو الذى من أجله عدل عن وصفهم بالصغار ، المقابل لقوله « وأصابه الكبر » إلى الوصف بالضعفاء ، والثانى : العدول عن الإفراد مراعاة لظاهر اللفظ فلم يقل « ذرية ضعيفة » كما قال **« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة »**(٨٠) بل أتى بصيغة الجمع « ضعفاء » مبالغة فى شدة ضعفهم ، حتى لكأن كل واحد من الذرية تكاثر عليه من الضعف البدنى والنفسى ما لا قبل له بالصمود أمام الفاقة وفقد العائل . ولا يلهينك عن هذه النكتة ما يقوله أرباب اللغة والمفسرون من صحة التعبير بالإفراد مراعاة للفظ ، وبالجمع مرعاة للمعنى . فمن هذا يكون البدء فى استنباط أسرار النظم ، وليس إليه المنتهى .

وفى مجال التنفير من قرب الزنا وتعظيم إثمه يؤدى الجمع دوره فى تضخيم هذه الجريمة ، وإبرازها فى صورة تتضاءل أمامها جميع الآثام ، لتصبح وحدها الفواحش كلها ، وتتوارى خلفها كل الموبقات . قال تعالى : **« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن »**(٨١) فقد تظاهرت آراء المفسرين على أن المراد بالفواحش الزنا ، وهو مفرد عبر عنه بالجمع ، استرشادا بقوله تعالى **« ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة »**(٨٢) وقد اختلفت الآراء حول سر التعبير بالجمع ، فذهب أبو السعود إلى

---

(٨٠) البقرة ٢٤٩ .
(٨١) الأنعام ١٥١ .
(٨٢) الإسراء ٣٢ .

(أنه جيء ههنا بصيغة الجمع قصدا إلى النهى عن أنواعها ، ولذلك أبدل عنها قوله تعالى : « **ما ظهر منها وما بطن** » أى ما يفعل منها فى الحوانيت ، كما هو دأب أراذلهم ، وما يفعل سرا باتخاذ الأخدان ، كما هو عادة أشرفهم)(٨٣) وقال الشهاب : (فجمع الفواحش للمبالغة أو باعتبار تعدد من يصدر عنه)(٨٤) ٠

والذى أراه أن التعبير بالجمع قصد به المبالغة فى تصوير خطر هذه الفاحشة ، وجعلها وحدها الفواحش كلها ، لما يترتب عليها من آثار اجتماعية واقتصادية تحطم أركان الأمة وتقوض بنيانها ٠ وذلك يتجاوب مع المبالغة فى تسليط النهى على القرب دون الفعل ، إذ لم يقل : لا تزنوا ، كما قال : لا تقتلوا ، ليضع فى دائرة النهى كل مقدمات الزنا وأسبابه ٠

والدليل على إرادة الزنا بالفواحش ، ما جاء فى القرآن تعبيرا عن اللواط بالخبائث وهو شقيق الزنا ، حيث جاء بصيغة الجمع كذلك ، مبالغة فى التشنيع على هذه الجريمة النكراء ، وجعلها الخبائث كلها ٠ قال تعالى : « **ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث** »(٨٥) ففسر الراغب الخبائث بقوله : (وقوله تعالى : « **ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث** » فكناية عن إتيان الرجال)(٨٦) وفسر الألوسى الخبائث باللواطة ، وجعل التعبير عنها بالجمع باعتبار تعدد المواد(٨٧) وهو كما ترى يذهب بنكتة المبالغة فى تصوير هذا الجرم وتقطيع أمره ، مما اقتضى التشديد فى العقوبة عليه ٠

---

(٨٣) تفسير أبى السعود ١٩٨/٣ ٠
(٨٤) حاشية الشهاب ١٣٨/٤ ٠
(٨٥) الأنبياء ٢٤ ٠
(٨٦) المفردات ١٤١ ٠
(٨٧) انظر روح المعانى ٧٢/١٧ ٠

ومثلما تجاوبت المبالغة بصيغة الجمع ، مع المبالغة بتسليط النهى عن قرب الفواحش ، تجاوبت المبالغة بصيغة الجمع مع المبالغة بصيغة التكثير فى قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : **« سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب »**(٨٨) حيث دل الغيوب بصيغة الجمع على إحاطة الله تعالى بدقائق الأشياء وجلائلها ، لتتعانق المبالغة بالجمع مع صيغة المبالغة « علام » ، فى الدلالة على سعة علمه ، وشموله لما دق وخفى من أسرار خلقه . هذا التناسب بين الصيغتين بدلالتهما على المبالغة قد اطرد فى القرآن الكريم فى كل ما ورد فيه الغيب جمعا ، وهى أربعة مواضع فى سور : المائدة(٨٩) ، والتوبة(٩٠) ، وسبأ(٩١) . والعجيب أن صيغة المبالغة « علام » لم ترد كذلك إلا فى هذه المواضع الأربعة : فإذا ما أفرد الغيب ، استعمل القرآن معه اسم الفاعل « عالم » كما فى قوله تعالى : **« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »**(٩٢) وذلك فن من فنون البيان فى مراعاة التناسب بين الألفاظ والمعانى لا تجده يطرد فى كلام الناس كما اطرد فى البيان المعجز .

وانظر إلى الجمع كيف يصور تناهى الحمق ، وذهاب الوعى ، فى قوله تعالى : **« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا »**(٩٣) ، حيث جىء بصيغة الجمع أنكاثا ، وكان الظاهر أن يقال : نكثا ، والنكث : (أن تنقض

---

(٨٨) المائدة ١١٦ .
(٨٩) الآية ١٠٩ ، ١١٦ .
(٩٠) التوبة ٧٨ .
(٩١) سبأ ٤٨ .
(٩٢) الرعد ٩ .
(٩٣) النحل ٩١ ـ ٩٢ .

أخلاق الأكسية لتغزل ثانية)(٩٤) فعدل عن المفرد إلى الجمع ، مبالغة فى شدة نقض الغزل ، مما يصور نهاية البله والخرق عند هـذه المرأة ، التى قيل إنها ريطة بنت سعد ، وهى امرأة من قريش كانت تغزل من الغداة إلى الظهر هى وجواريها ، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن(٩٥) وكأنها كانت تبالغ فى النقض ، فلا تكتفى بحل ما أحكمته حتى تقطعه وتتلفه ، وهـذا نهاية الحمق والسفه ، مما يدلك على أن الناقض لعهده مع الله تعالى بعـد إبرامه أبله أحمق ، يوبق نفسه ويضيع رصيدة عند الله تعـالي كما أضاعت المرأة جهـدها سفها وخرقا . هـذا هو سر الجمع كما أفصح عنه صاحب الكشف فيما نقله الألوسى : (وفى الإتيان بـه مجموعا مبالغة ، وكذلك فى حـذف الموصـوف ليـدل على الخـــرقاء الحمقاء)(٩٦) .

الـدلالة على تمكن الوصـف :

وثمة طريقة أثيرة فى الذكر الحكيم يعدل فيها عن الواحد ويسلكه فى الجماعة ، مبالغة فى تأكيد إثبات الصفة لموصوفها ، ويكثر ذلك فى مقامات التهديد والوعيد ، كقوله تعالى على لسان سليمان مهـددا الهدهد : ((**قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين**))(٩٧) عـدل فيـه أولا عن ظاهر ما يقتضيه التناسب فى المقـابلة بين الفعـلين ليقـال : أصدقت أم كذبت ؟ ثم عدل ثانيا عن أن يقول : أصدقت أم كنت كاذبا ، تعبيرا بالواحد على ظاهر الخطاب إلى الجمع ليجعله واحدا من الكاذبين ، مبالغة فى إثبـات الصفة له ، وعـده من المعهـودين بهـذا الوصـف الراسخين فيه ، وهذا أوجب للعقاب وأبلغ فى التخويف والتهديد .

وكم جـرى بهـذا الأسلوب لسـان الطغاة فى توعـدهم أنبياءهم وتهديدهم لهم !! فهـذا فرعون يهـدد موسى عليـه السـلام بقـوله :

---

(٩٤) القاموس المحيط مادة نكث .
(٩٥) انظر البحر المحيط ٥٣١/٥ .
(٩٦) روح المعانى ٢٢١/١٤ .
(٩٧) النمل ٢٧ .

« لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين »(٩٨) تاركا التعبير بالفعل أو الاسم المفرد : لأسجننك ، أو لأجعلنك مسجونا ، ليستحضر فى ذهن موسى عليه السلام هذه الطائفة من المسجونين التى تلاقى من التعذيب فى سجون الطغاة ما لا يغيب عن بال المخاطب ،بغية أن يملأ قلبه رعبا حين يتصور نفسه واحدا منهم يعانى ما يعانونه ٠

وهؤلاء قوم نوح يهددون نبيهم بالرجم ، فيقولون : **« لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين »**(٩٩) مستحضرين أمام عينيه صورة طائفة من الناس حكم عليهم بالرجم ، وصاروا أمثلة مفزعة يهددون بها كل من يشق عصا طاعتهم ٠

وبمثله هدد قوم لوط نبيهم : **« قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين »**(١٠٠) فجاء العدول إلى صيغة الجمع دليلا على سوء حال من يخرجونه حتى قال أبو السعود (وكأنهم كانوا يخرجون من أخرجوه من بينهم على عنف وسوء حال)(١٠١) فكان استحضارهم بصورة الجمع أبلغ فى تهديده وتخويفه ٠ وجاء رد لوط عليهم بذات الطريقة فى التعبير : **« قال إنى لعملكم من القالين »**(١٠٢) ولم يقل : إنى لعملكم قال ، يقول الزمخشرى : (**«من القالين »** أبلغ من أن يقول : إنى لعملكم قال ، كما تقول : فلان من العلماء ، فيكون أبلغ من قولك : فلان عالم ، لأنك تشهد له بكونه معدودا فى زمرتهم ، ومعروفة مساهمته لهم فى العلم ٠ ويجوز أن يريد : من الكاملين فى قلاكم)(١٠٣) ويزيد ابن المنير نكتة العدول إلى صيغة الجمع وضوحا فى تعليقه على ما جاء فى الكشاف ، فيقول : (والسر فى ذلك

---

(٩٨) الشعراء ٢٩ ٠
(٩٩) الشعراء ١١٩ ٠
(١٠٠) الشعراء ١٦٧ ٠
(١٠١) تفسير أبى السعود ٦/٢٦٠ ٠
(١٠٢) الشعراء ١٦٨ ٠
(١٠٣) الكشاف ٣/١٢٥ ٠

والله أعلم ـ أن التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة ، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحدا من جمع ، فإنما يفهم أمرا زائدا على وقوعه ، وهو أن الصفة المذكورة كالصفة لموصوف ثابتة العلوق به كأنها لقب ، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة)(١٠٤) .

ويمضى القرآن على هذا النسق فى وصف ما انتهى إليه أمر لوط مع قومه « **فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين** »(١٠٥) تاركا وصف العجوز بالمفرد « غابرة » إلى جمعها مع أمتها فى هذه الوصف ، مبالغة فيما أصابها من الهلاك الشديد الذى حل بقومها على ما هو مشهور على مر التاريخ .

يقول صاحب الإنصاف : (فاعلم أن السر الذى اقتضى العدول عن أن يقول مثلا : إلا عجوزا غابرة إلى ما ذكر فى المتلو ، هو أن المذكور فى التلاوة يقتضى الإسجال عليها بأنها من أمة موسومين بهذه السمة من الهلاك ، كما قدمته الآن ، فهو أبلغ من مجرد وصفها بالغبور)(١٠٦) .

ويعلل الشيخ طاهر بن عاشور أبلغية الوصف بالجمع بأن وصف الواحد فى جماعة أدل على شدة تمكن الوصف منه ، لما يكتسبه من قوة الجماعة . هذا ما قاله فى سر العدول إلى الجمع من قوله تعالى : « **فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** »(١٠٧) (وأما الإتيان بخبر كان « من الكافرين » دون أن يقول : وكان كافرا ، فلأن إثبات الوصف لموصوف ، بعنوان كون الموصوف واحدا من جماعة ثبت لهم ذلك الوصف ، أدل على شدة تمكن الوصف منه ، مما لو أثبت

---

(١٠٤) الإنصاف ١٢٥/٣ .
(١٠٥) الشعراء ١٧١ .
(١٠٦) الإنصاف ١٢٥/٣ .
(١٠٧) البقرة ٣٤ .

له الوصف وحده ، بناء على ان الواحد يزداد تمسكا بفعله إذا كان قد شاركه فيه جماعة ، لانه بمقدار ما يرى من كثرة المتلبسين بمثل فعله تبعد نفسه عن التردد فى سداد عملها)(١٠٨) ٠

ولكن هل هذا الاسلوب جار على الحقيقة او هو ضرب من الكناية ؟

يتضح من عبارة الزمخشرى فى بعض مواطن الكشاف انه كناية ينتقل فيها من وصف الجمع إلى وصف الواحد على طريق اللزوم ، قال فى تفسير قوله تعالى : **« اصدقت أم كنت من الكاذبين »** (أراد : صدقت أم كذبت ، إلا أن « كنت من الكاذبين » أبلغ ، لأنه إذا كان معروفا بالانخراط فى سلك الكاذبين كان كاذبا لا محالة)(١٠٩) فهو انتقال من الملزوم : كونه منخرطا فى سلك الكاذبين إلى اللازم وهو كونه كاذبا ، ومن ثم كان التعبير بالجمع أبلغ ، لأن الكناية أبلغ من التصريح ٠ وهو ما جرى عليه صاحب التحرير والتنوير فى قوله تعالى : **« قل لا اتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما انا من المهتدين »**(١١٠) قال : (وقد أتى بالخبر بالجار والمجرور فقال : « من المهتدين » ، ولم يقل : وما انا مهتد ، لأن المقصود نفى الجملة التى خبرها « من المهتدين » فإن التعريف فى « المهتدين » تعريف الجنس ، فإخبار المتكلم عن نفسه بانه من المهتدين يفيد أنه واحد من الفئة التى تعرف عند الناس بفئة المهتدين ، فيفيد أنه مهتد ، إفادة بطريقة تشبه طريقة الاستدلال ، فهو من قبيل الكناية التى هى إثبات الشىء بإثبات ملزومه ، وهى أبلغ من التصريح)(١١١) ٠

---

(١٠٨) التحرير والتنوير ١/٤٢٧ ٠
(١٠٩) الكشاف ٣/١٤٥ ٠
(١١٠) الانعام ٥٦ ٠
(١١١) التحرير والتنوير ٧/٢٦٣ ٠

تجنب مواجهة المخاطب بما يكره :

لقد وجد القرآن فى هذا اللون من الكناية بغيته فى عدم مواجهة المخاطب بما يكره من الأوصاف ، إذ أن إدخاله فى جملة موصوفين ، مع تقرر الوصف وتحقيقه أهون عليه من إفراده بوصف يكرهه ، ضرورة أن المصيبة إذا عمت هانت ، وإذا خصت هالت ، ولذا اطرد هذا الأسلوب فى خطاب الله للأنبياء ، عند تحذيرهم مما لا يليق الاتصاف به ، فيترك القرآن التصريح إلى الكناية إعراضا عن تخصيصهم بوصف يكرهونه على طريقته فى أدب الخطاب . من ذلك ما خاطب الله به نبيه عليه السلام ، محذراً إياه من أساليب أهل الكتاب ، وخبث طويتهم : **« ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين »**(١١٢) . فقد ترك القرآن مواجهة النبى بالوصف مفردا ، ولم يقل : إنك إذا لظالم ، جريا على أدب الخطاب فى عدم مواجهة المحب حبيبه بما يكره ، وإن كان ما عليه التلاوة أبلغ فى الوصف بالظلم من الإفراد ، إلا أن الإفراد أقسى فى المواجهة وأشد ، لأن جعله من الظالمين فيه من الإيهام وعدم التعين ما يخفف قسوة الوصف ، ولا أدرى كيف غاب هذا عن رجالات البيان من المفسرين مع أنه ضرب من ضروب البلاغة فى هذا النظم ! على كثرة ما استخرجوه من نكات فى مثل هذا التعبير . يقول الألوسى : (وإيثار « من الظالمين » على ظالم ، أو الظالم ، لإفادته أنه مقرر محقق ، وأنه معدود فى زمرتهم ، عريق فيهم .. وعد أيضا من ذلك عده واحدا من الظالمين مغمورا فيهم ، غير متعين كتعينهم فيما بين المسلمين ، فإن فيه مبالغة عظيمة ، للإشعار بالانتقال من مرتبة العدل إلى مرتبة الظلم ، ومن مرتبة التعين والسيادة المطلقة ، إلى السفالة والمجهولية)(١١٣) .

---

(١١٢) البقرة ١٤٥ .

(١١٣) روح المعاني ١٢/٢ .

إن عدم تعيين المخاطب وجعله مغمورا فى الجماعة الموصوفة بالظلم ، وهو ما جعله الالوسى وجها من وجوه بلاغة هذا الأسلوب هو عينه الإعراض عن مواجهة المخاطب بما يكره من الأوصاف ، على سبيل إفراده وتخصيصه بها ، وهو دأب القرآن الكريم فى مخاطبة المرسلين . كما جاء فى قوله تعالى خطابا لنبيه نوح عليه السلام : **« قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين »**(١١٤) وقوله فى خطاب إبراهيم على لسان ضيفه : **« قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين »**(١١٥) فهل يمكننا أن نتوقع من القرآن - الذى عدل عن مواجهة الرسول بالخطاب فى قوله تعالى : **« عبس وتولى أن جاءه الأعمى »**(١١٦) إلى الغيبة ، كراهة إسناد العبوس والتولى إلى تاء الخطاب - هل نتوقع أن يخاطب الرسول بقوله : إنك لظالم ، أو ولاتك مشركا ، بدلا من قوله **« إنك لمن الظالمين »** وقوله **« ولا تكونن من المشركين »** أو يقول لنوح : **« لاتك جاهلا »** ؟ إن أدب القرآن وبيانه اجل من ذلك وأرفع .

وقد لمح الزمخشرى مثل هذه النكتة فيما هو أخف وأرق من هذه المواجهة ، ورأى أن القرآن أجل النبى عن أن يخاطبه بالإفراد فى قوله تعالى : **« إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون »**(١١٧) ، فذكر الزمخشرى احتمالين فى جمع الحجرات : أحدهما أن يكونوا قد أتوا على جميع الحجرات ، ونادوه من وراء كل حجرة . والثانى (أنهم نادوه من وراء الحجرة التى كان فيها ، ولكنها جمعت إجلالا لرسول الله ﷺ ، ولمكان حرمته)(١١٨) وكان

---

(١١٤) هود ٤٦ .
(١١٥) الحجر ٥٥ .
(١١٦) عبس ١ - ٢ .
(١١٧) الحجرات ٤ .
(١١٨) الكشاف ٣/٥٥٨ .

الدكتور أبو موسى بالغ الدقة حين كشف عن وجه الإجلال بالجمع فيما ذكره الزمخشرى فقال : (فالزمخشرى يدرك الفرق بين أن يكون التعبير : إن الذين ينادونك من وراء حجرتك ، أو من وراء الحجرة ، وبين ما جاء عليه القرآن ، وأن فى كلمة حجرة ، بهذا النص وهذا التحديد ، معنى يكره القرآن أن يواجه به محمد صلوات الله عليه ، إجلالا لحرمته ، فيأتى بصيغة الجمع ليفهم هذا التنصيص ضمن مدلولها ، حتى لا يتجه إليه الفكر منفردا ، وإنما يكتفى باللمسة الخفيفة ، والإشارة التى هى كالوحى فى هذا المقام)(١١٩) وبمثل هذا نقول فيما أوردناه من نصوص القرآن ، ونرى أن اتجاه الفكر إلى المخاطب من الأنبياء منفردا ، فيما يكره من الأوصاف ، هو الذى تحاشاه القرآن ، وعدل عنه إلى صيغة الجمع .

الجمع للإيهام :

مما يتصل بالنكتة السابقة ما يعمد اليه القرآن الكريم من اتخاذ صيغة الجمع والتعبير بها عن الواحد للإيهام ، وعدم تعيين من يرغب عن ذكرهم بالاسم أو الوصف ، إما لعدم الحاجة إلى التعيين ، أو سترا لهم فى موقف لوم أو عتاب ، أو تحقيرا أو غير ذلك من الأغراض ، فيعبر بالجمع ليكون المقصود مغمورا فيه ، مستورا أمره . من ذلك قوله تعالى : ((**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا**))(١٢٠) فقد ذكر الفخر الرازى أن القائل هو نعيم بن مسعود : (وإنما جاز إطلاق لفظ الناس على الإنسان الواحد ، لأنه إذا قال الواحد قولا ، وله أتباع يقولون مثل قوله ، أو يرضون بقوله ، حسن حينئذ إضافة ذلك الفعل إلى الكل)(١٢١) .

---

(١١٩) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ٢٧٦ .

(١٢٠) آل عمران ١٧٣ .

(١٢١) تفسير الرازى ١٠٢/٩ .

علة الجمع هنا هى تواطؤ الجماعة على القول ، وإن كان القائل واحدا ، وليس فى هذا أكثر من إيجاد وجه يصح معه الجمع ، ومثله ما قاله الشهاب الخفاجى : (وإن كان نعيما فأطلق عليه ذلك كما يطلق الجمع واسم الجمع المحلى بالألف واللام الجنسية على الواحد منه مجازا)(١٢٢) فما سر التجوز بالجنس المجموع عن الواحد ؟ هذا ما كنا نطمح أن نراه عند الشهاب ، وهو الذى كشف عنه صاحب التحرير والتنوير حين قال : (وقال بعض المفسرين وأهل العربية : إن لفظ الناس هنا أطلق على نعيم بن مسعود وأبى سفيان ، وجعلوه شاهدا على استعمال الناس بمعنى الواحد ، والآية تحتمله ، وإطلاق الناس مرادا به واحد أو نحوه مستعمل لقصد الإيهام)(١٢٣) ٠

هذا النهج من إطلاق الجمع وإرادة الواحد للإيهام يتكرر كثيرا فى الذكر الحكيم ، كما فى قوله تعالى : **« ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا »(١٢٤)** فقد نزلت الآية فى أبى بكر رضى الله عنه ، حين حلف أن لا ينفق على مسطح بعد أن خاض فى حديث الإفك مع الخائضين ، فكان هذا من الله عتاب المحب ، لذا أبهمه ولم يصرح به مستخدما صيغة الجمع « أولو الفضل » فإن كان قد رأى بعض المفسرين(١٢٥) فى صيغة الجمع ضربا من التعظيم لأبى بكر ، فإننا نرى فيه قصدا إلى الإبهام فى مقام العتاب ، وأن وصفه بالفضل يؤكد ذلك ، لأن من كان فى مثل فضله ، لا يصح أن يدفعه الغضب إلى

---

(١٢٢) حاشية الشهاب ٨٢/٣ ٠

(١٢٣) التحرير والتنوير ١٦٩/٤ ٠

(١٢٤) النور ٢٢ ٠

(١٢٥) انظر حاشية الشهاب ٣٦٧/٦ ٠

حرمان المسيء من فضله .

ونحوه ما أنزل تأنيبا لحاطب بن أبى بلتعة ، حين ارسل إلى قريش كتابا يخبرهم فيه بنبأ خروج الرسول عليه السلام لفتح مكة **« ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم »**(١٢٦) ففى خطاب الجماعة وإرادة حاطب إبهام قصد إليه القرآن ، سترا لضعفه ، وابتعادا عن التشهير به ، وهو من أصحاب رسول الله الذين حضروا بدرا . وذلك من آداب الخطاب في أساليب الذكر الحكيم .

الجمع يكشف دخائل النفوس :

من روائع الإعجاز في صيغة الجمع ما تقوم به من الكشف عن دخائل النفس البشرية ، ورصد ما يعتمل فيها من أمان وأوهام ، وإبراز ما يعيشه بعض الناس من فراغ فكرى يجعل من عقولهم طبلا اجوف ، يضخم لهم الوهم حتي يصير أوهاما ، وتكبر فى نفوسهم الأمنية الزائفة حتى تصير أمانى ، فيكتسى الواحد ثوب الجمع تعبيرا عن تنامى هذا الواحد ، وتكاثره فى رؤى ذوى النفوس المهتزة .

من ذلك قوله تعالى فى الحديث عن أهل الكتاب : **« وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا او نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »**(١٢٧) أمنية واحدة ، أو إن شئت فقل وهم واحد ، هو ما عبروا عنه بعدم دخول الجنة لغير حاملى شارات اليهودية والنصرانية . عاشوا هذا الوهم ليلهم ونهارهم ، فكبر فى عقولهم

---

(١٢٦) الممتحنة ١ . (١٢٧) البقرة ٩٤ .

الجوفاء حتى صار أمانى . ذلك ما ترمز إليه صيغة الجمع « أمانى » فإذا ما تفلت هذا الغرض البديع من بين أيدى المفسرين ، راحوا يبحثون عن مصحح للجمع مهما بدا متكلفا ، كما جاء فى الكشاف : (فإن قلت : لم قيل « تلك أمانيهم » وقولهم : « لن يدخل الجنة » أمنية واحدة ؟ قلت : أشير بها إلى الأمانى المذكورة ، وهو أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأمنيتهم أن يردوهم كفارا ، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم ، أى تلك الأمانى الباطلة أمانيهم ، وقوله : « **قل هاتوا برهانكم** » متصل بقولهم : « **لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى** » و « **تلك أمانيهم** » اعتراض ، أو أريد أمثال تلك الأمنية أمانيهم ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، يريد أن أمانيهم جميعا فى البطلان مثل أمنيتهم هذه)(١٢٨) .

وأترك صاحب الإنصاف ليرد على ما جاء فى الكشاف من محاولة تبرير الجمع بإعادته على مقولات سابقة ، ويعلن عن خاطرته البيانية فى نكتة الجمع ، وهى من روائع ما جادت به قريحة ابن المنير : (فإن البرهان المطلوب ههنا إنما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم ، ويحقق هذا قوله : « **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه** » فإنما يعنى الجنة ونعيمها ، ردا عليهم فى نفى غيرهم عن دخولها ، ففى هذا دليل بين على أن الأمانى المشار إليها ليس إلا ما طولبوا بإقامة البرهان على صحته ، وهو أمنية واحدة والله أعلم . والجواب القريب أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها ، وتأكدها فى نفوسهم جمعت ، ليفيد جمعها أنها متأكدة فى قلوبهم ، بالغة منهم كل مبلغ ، والجمع يفيد ذلك وإن كان مؤداه واحدا ، ونظيره قولهم معا جياع ، فجمعوا الصفة ومؤداها واحدة

---

(١٢٨) الكشاف ٣٠٤/١ .

لأن موصوفها واحد ، تأكيدا لثبوتها وتمكينها .. ووجه إفادة الجمع فى مثل هذا للتأكيد ، أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة فى الآحاد ، فنقل إلى تأكيد الواحد ، وإبانة زيادته على نظرائه نقلا مجازيا بديعا ، فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان)(١٢٩) .

نعم إنه من نفائس صناعة البيان وفن رفيع من فنون المجاز ، لكن أى مجاز هو ؟ هل هو استعارة الزيادة فى العدد المعبر عنه بالجمع للزيادة فى معنى الواحد ؟ أو أنه مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد ؟ كلا المجازين يزاحم صاحبه ، ولا يستطيع أن يزيحه . وإن كنت أرى الشهاب يميل فى تفسيره إلى المجاز المرسل ، كما يبدو من قوله : (ومن فوائد الانتصاف أن أمنيتهم لتأكدها وتكررها منهم عبر عنها بالجمع ، لأنه قد يعبر به لقصد ذلك ، كما قالوا معىً جياع ، لأن الجمع يفيد زيادة الآحاد ، فيستعمل لمطلق الزيادة)(١٣٠) .

على أننى ألمح وجها آخر إلى ما ذكره ابن المنير ، وهو أن الجمع يكشف عن تصارع الأمانى بين اليهود والنصارى ، وأنهم بالرغم من عدائهم للإسلام ، واتحادهم فى محاربته فإن أهدافهم مختلفة ، وأطماعهم متباينة ، ولو أنه قال : تلك أمنيتهم ، لفهم اتفاقهم على دخول الجنسين ، وامتناع غيرهم من أهل الأديان الأخرى ، فكان الجمع دليلا على أن كل فريق متمناه دخول بنى دينه وحدهم . ألم يقل القرآن بعد ذلك : « **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء** »(١٣١) ؟ ثم ألم يقل : « **ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير** »(١٣٢) ؟ تأكيدا على تولى كل فريق وجهة غير وجهة الآخر .

---

(١٢٩) الإنصاف ١/٣٠٤ .
(١٣٠) حاشية الشهاب على البيضاوى ٢/٢٢٤ .
(١٣١) البقرة ١١٣ . (١٣٢) البقرة ١٢٠ .

يقول الراغب : (وقوله : « ولئن اتبعت أهواءهم » فإنما قال بلفظ الجمع تنبيها على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر ، ثم هوى كل واحد لا يتناهى ، فإذا اتباع أهوائهم نهاية الضلال والحيرة) (١٣٣) ٠

ولعل قول الراغب « ثم هوى كل واحد لا يتناهى » ذاهب إلى نحو مما قاله ابن المنير فى الغرض من جمع الأمانى ، إيماء إلى أن هوى كل واحد يصير فى نفس صاحبه أهواء متعددة ٠

ويكشف الجمع عن لحظة من لحظات الضعف البشرى ، تضطرب فيها النفوس وتهتز الرؤى ، وتتنامى مشاعر القلق والخوف ، حتى تنخلع القلوب من صدورها ، فإذا الشىء الواحد فى الأعين أشياء ، والظن يستحيل فى القلوب ظنونا ٠ قال تعالى تصويرا لما أصاب المسلمين من ذعر حين أطبقت عليهم جيوش الأحزاب فى غزوة الخندق : **« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا »**(١٣٤) ٠

تكاثر ظنهم فى تخلى الله عنهم وتنامى ، وتوزعتهم منازع الحيرة ، ولعبت الهواجس بنفوسهم وقلوبهم ٠ ذلك ما تومىء إليه « الظنون » بصيغة الجمع ، ومغايرتها لغالب ما جرى به لسان العرب من إفراد المصدر ، بحكم أنه من قبيل اسم الجنس المبهم الدال على القليل والكثير ٠ يقول ابن هشام : (المصدر المؤكد لا يثنى ولا يجمع باتفاق ، فلا يقال ضربين ، ولا ضروبا ، لأنه كماء وعسل ، والمختوم بتاء الوحدة كضربة ، بعكسه باتفاق ، فيقال : ضربتين وضربات ، لأنه كثمرة وكلمة ، واختلف فى النوعى ، فالمشهور الجواز ٠ وظاهر مذهب سيبويه المنع)(١٣٥) و « الظنون » فى الآية كما هو ظاهر من المصدر المؤكد ،

---

(١٣٣) المفردات ٥٤٨ ٠

(١٣٤) الأحزاب ١٠ ٠

(١٣٥) أوضح المسالك ٢/٢١٥ ٠

فكان لابد لتصحيح جمعه من أن يعد من المبين للنوع على تقدير اختلاف متعلقاته . هكذا قالوا كما جاء على لسان أبى حيان (والظنون جمع . لما اختلفت متعلقاته جمع ، وإن كان لا ينقاس عند سيبويه جمع المصدر إذا اختلفت متعلقاته ، وينقاس عند غيره . وقد جاء الظنون جمعا فى أشعارهم . وأنشد أبو عمرو فى كتاب الألحان :

إذا الجوزاء أردفت الثريا

ظننت بآل فاطمة الظنونا)(١٣٦)

ففى سبيل تصحيح جمع المصدر يتحول المؤكد إلى مبين للنوع ، ويقدر له متعلقات مختلفة ، ولا بأس أن يكون مما لا ينقاس عند إمام النحاة ، لكن لماذا خالف القياس وجرى على غير الغالب من كلامهم ، هذا ما لم تشحذ من أجله الهمم .

إن غير الجمع لا يستطيع أن يجسد استيلاء الخوف على القلوب ، وإفقاد العقول والأبصار توازنها ورؤاها ، وتكاثر سحب الحيرة وتصاعد الأوهام ، وتمزق النفوس ، فى لحظة ضعف بشرى انحصر فيها مؤقتا مد الإيمان ، فى ساعة من ساعات اختبار صدق النفوس وحسن بلائها ، ذلكم هو سر جمع الظن فيما نراه . والقول بأنه (جمع الظن لاختلاف أنواعه ، لأن من خلص إيمانه ظن أن ما وعدهم الله به من النصر حق ، ومن ضعف إيمانه اضطرب ظنه ، ومن كان منافقا ظن أن الدائرة تكون على المؤمنين ، فاختلفت ظنونهم)(١٣٧) ، ليس إلا تخريجا وتبريرا لتصحيح الجمع على ما جرت به القواعد ، وهو بعد إغفال لصريح الخطاب الموجه إلى المؤمنين فى قوله من الآية السابقة : « **ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا**

---

(١٣٦) النهر الماد من البحر ٢١٤/٧ .
(١٣٧) إعراب القرآن الكريم وبيانه ٦١٣/٧ .

لم تروها »(١٣٨) وهى التى جاءت الآية موضع الحديث فى موقع البيان منها ، مما يقطع بأن الخطاب للمؤمنين ، ويؤكده ما أعقبها من قوله تعالى : **« هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »**(١٣٩) ، فما قبلها وما بعدها يؤكدان أن الخطاب للمؤمنين . ولا يذهب إيمان المؤمن إذا ما اعترته لحظة من لحظات الضعف يهتز فيها يقينه بالنصر ، ثم سرعان ما يعود إليه تماسكه ورباطة جاشه ، أما المنافقون فقد جاء الحديث عنهم مصرحا به ، ومفصلا بعد ذلك فى قوله تعالى : **« وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض »**(١٤٠) .

زيادة التشنيع :

فى مقام التسجيل على أهل الشرك والمعاصى ، وتعديد مساوئهم ، يؤثر القرآن الجمع ، مبالغة فى التشنيع عليهم ، وتكثيرا لجرمهم ، وهو ما تجده فى قوله تعالى : **« الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون »**(١٤١) فى الجمع « أندادا » عدول عن ظاهر ما يقتضيه شمول النهى ، إذ من المقرر أن النفى وشبهه وهو النهى ، حين يسلط على المفرد يكون أبلغ فى الشمول من الجمع ، لتناول المفرد الآحاد ، بخلاف الجمع الذى لا يستلزم ظاهره سوى نفى الجموع ، على حد قول السكاكى : (واستغراق المفرد يكون أشمل من استغراق الجمع ، ويتبين ذلك بأن ليس يصدق لا رجل فى الدار فى نفى الجنس ، إذا كان فيها رجل أو رجلان ، ويصدق لا رجال فى الدار)(١٤٢) ، لذلك سلط النهى على المفرد فى قوله تعالى : **« لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا »**(١٤٣)

---

(١٣٨) الأحزاب ٩ .
(١٣٩) الأحزاب ١١ .
(١٤٠) الأحزاب ١٢ .
(١٤١) البقرة ٢٢ .
(١٤٢) مفتاح العلوم ١٢٢ .
(١٤٣) الإسراء ٢٢ .

ولم يقل : لا تجعل مع الله آلهة . فلم عدل هنا عن الأبلغ فى النهى عن اتخاذ الند مع أن القرائن قاطعة باستغراق النهى للآحاد ؟

يقول الزمخشرى وهو من جيد ما قال : (ولما تهكم بهم بلفظ الند شنع عليهم ، واستفظع شأنهم بأن جعلوا أندادا كثيرة ، لمن لا يصح أن يكون له ند قط)(١٤٤) ففى الجمع استسقاط لعقولهم التى جعلت أمر الخلق لآلهة متعددة ، مع أن العقل قاض بأن الكثرة موجبة للفساد ، فلم يقف جهلهم عند حد اتخاذ شريك واحد حتى جعلوا له شركاء ، وهذا نهاية السفه وغاية الحمق . فليس مدار النهى هنا عن الجمع ، وإنما هو تقرير لمواقعهم وزيادة تشنيع عليهم . فلا يقال : النهى عن الجمع لا يستلزم النهى عن المفرد ، لأن القرائن هى التى تحدد شمول الاستغراق وعدمه .

ومما جاء فيه الجمع للتشنيع ، قوله تعالى : ((**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما**))(١٤٥) .

تأمل كيف قابل القرآن بين قبول توبة من يعمل السوء بجهالة ، وبين رفض قبول توبة الذين يعملون السيئات المؤجلين توبتهم إلى الموت ، فأفرد « السوء » فى جانب من قبل توبتهم ، إيحاء بأنهم ليسوا مكثرين من المعاصى ، دائبين عليها ، ثم جمع السيئات تشنيعا على أصحابها ، وإشارة إلى إكثارهم منها ودوامهم عليها ، لذلك رأى البيضاوى أن الذين يعملون السوء هم عصاة المؤمنين ، وأن الذين

---

(١٤٤) الكشاف ١/٢٣٧ .   (١٤٥) النساء ١٧ - ١٨ .

يعملون السيئات هم المنافقون لتضاعف كفرهم وسوء أعمالهم(١٤٦)
وعلق عليه الشهاب بقوله : (جعل عمل السيئات من غيرهم فى جنب عملهم بمنزلة العدم ، فكأنهم عملوها دون غيرهم ، ولا يخفى لطف التعبير بالجمع فى أعمالهم ، وبالمفرد فى المؤمنين على هذا)(١٤٧) ففى التوحيد قصد إلى تهوين ما عمله المؤمنون وتقليله ، وتلاشيه مع شآبيب رحمة الله وعفوه . وفى الجمع قصد إلى التشنيع على أصحاب السيئات من المنافقين ، حتى لكأنهم حازوها كلها ولم يتركوا لغيرهم إلا ما ند منها .

التكثير فى الصفة :

يستخدم القرآن الجمع ليرمز به إلى كثرة المجموع تفخيما فى مقام الثناء والمدح ، وإسجالا فى مقام الذم والتنديم .

من ذلك قوله تعالى : « **والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** »(١٤٨) فقد قابل الله تعالى كثرة صبرهم واسترجاعهم كلما أصابهم من الله محنة وبلاء ، وهو ما تقضى به « إذا » لما فيها من معنى التكرار ، على ما ذكره أبو حيان(١٤٩) قابل الله ذلك بكثرة الثناء عليهم والمغفرة لذنوبهم ، فجاء بالصلوات جمعا تعبيرا عن كثرة الغفران ، وجعلها تحيط بهم وتغشاهم من كل جانب ، على ما يفيده حرف الاستعلاء ، وجعل ابتداءها من ربهم ، وآثر لفظ الرب ، إيماء إلى أن ما يبتلى الرب به عباده من أنواع البلاء ، ليس سوى منائح

---

(١٤٦) انظر تفسير البيضاوى ١١٧/٣ .
(١٤٧) حاشية الشهاب ١١٧/٣ .
(١٤٨) البقرة ١٥٦ - ١٥٧ .
(١٤٩) انظر البحر المحيط ٤٥١/١

اللطف والعناية ، التي يقوى بها إيمانهم ، ويكثر بها درجاتهم ، يقول الراغب الأصفهاني في تفسيره : (وإنما قال « صلوات » على الجمع تنبيها على كثرتها منه ، وأنهـا حاصلة في الدنيا توفيقا وإرشادا ، وفي الآخـرة ثوابا ومغفرة)(١٥٠) .

لذلك درج القرآن على استخدام الجمع في الثناء على المؤمنـين بعملهم الصالح ، كقوله تعالى : « **والذين آمنوا وعملوا الصـالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الـذى كانوا يعملون** »(١٥١) فلم ترد « الصالحات » مفردة أبدا ، مع تكرر ورودهـا جمعـا اثنتـين وستين مـرة في الذكر الحـكيم ، وفي ذلك تكثير للأعمـال الصـالحات ، تمهيدا لمقابلتها من الله تعالى بواسع مغفرته ورضـوانه ، كما رأينـا في الآية السابقة حيث قابل كثرة العمل الصـالح بكثرة تكفيره لسيئاتهم ، والتأكيد على مجازاتهم أحسن الجزاء .

ولا يلهينك عن هذا الغرض ما دار من جدل حـول إرادة الجنس باللام أو الاستغراق فإن أحدا من المؤمنـين ليس بمقـدوره أن يعمـل جميع الصالحات ، وحسبه رضا من الله تعالى أن يأتي ما يستطيعه من العمل الصالح ، فإن غاية ما يؤمله المؤمن هو أن تكثر أعماله الصالحة ، ويثقل بها ميزانه عند ربه .

ومما جاء منه في مقام الثناء على المكثرين من الإنفاق تقـربا إلى الله تعالى ، قوله سبحانه : « **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته** »(١٥٢) فجاء الجمع « قربات » إشارة إلى كثرة ما بذلوه في سبيل الله تقـربا

---

(١٥٠) تفسير الراغب ورقة ١١٩ مخطوط رقم ٩٨ بمعهد المخطوطات .
(١٥١) العنكبوت ٧ .   (١٥٢) التوبة ٩٩ .

إليه ، واستدراراً للمزيد من دعوات الرسول عليه السلام ، وجاء توحيد الله « القربة » فى رده عليهم وجها آخر من وجوه البلاغة ، حيث جعل جميع قرباتهم قربة واحدة ، فى درجة قبولها عنده ، فجمع الله تعالى لهم بين كثرة الإنفاق وسمو درجته وهـذا ما أشار إليه الألوسى حين قال : (وتنوين « قربة » للتفخيم المغنى عن الجمـع ، أى قـربة لا يكتنـه كنهها)(١٥٣) .

لذلك حـين أراد الله أن يحقر من شأن نفقة المنافقين آثـر صـيغة الإفـراد فى الآية التى سبقت هـذه الآية ، فقال : **« ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء »**(١٥٤) ، فعدوا ما أنفقوه مغرما واحدا ، فى مقابل الجمع « قربات » فى نفقـة المؤمنين ، وذلك إشارة إلى ضآلة ما أنفقوه وقلته ، ولو كانت نفقاتهـم كثيرة لاتخذوها مغارم لا مغرما واحـدا . ثم انظر كيف صـور القـرآن ما امتلأت به نفوس المنافقين من أحـلام الترقيب لهزيمة المسلمين ، وكثرة أمانيهم فى ذهاب دولة الإسلام بجمع « الدوائر » فى قوله **« يتربصون بـكم الدوائر »** وكيف جاء رد الله عليهم بالإفراد ، مبـالغة فى شـدة الهلكة ، حيث يكون هلاكهم بدائرة واحـدة ، هى دائـرة السـوء التى لا نجاة معها ، فاجتمع فى الآيتين من التناسب الدقيق فى المقـابلة بين رد الله بالإفراد على المؤمنـين ، ورده بالإفراد كذلك على المنـافقين ما يشهد بإعجاز النظم الحكيم .

وفى مقـام التنديم وزيادة التحسر ، يجسد الجمع كثـرة الأعمال المحبطة ، ويحولها إلى أكوام من الرماد المحترق ، أمام أعين أصحابها ، فى يوم هم أشد ما يكونون حاجة إليها ، وذلك هو سر جمع الأعمـال فى قوله تعالى : **« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الـذين ضـل سعيهم**

(١٥٣) روح المعانى ١١/٧ . (١٥٤) التوبة ٩٨ .

فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »(١٥٥) .
فقل لى بربك هل أنت واجد ما وجدته فى جمع الأعمال من زيادة التنديم والتحسير على كثرة الأعمال الضائعة ، لو جرى النظم على الظاهر من إفراد التمييز ، فقال : الأخسرين عملا ؟ وهل يكون من الوفاء بحق بلاغة النظم أن يقال : إن المصدر يدل على الجنس ، ويصلح للقليل والكثير ؟

الاشتغال بالجماعة عن الفرد :

من بديع أسرار النظم الكريم فى العدول إلى الجمع ما ألهمه الله تعالى جار الله الزمخشرى ، فى قوله تعالى : « **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون** »(١٥٦) ، إذ لا يخفى أن الهدهد مأمور بإلقاء الكتاب إلى بلقيس ، التى أخبر عنها الهدهد ، فيما حكاه الله قبل : « **إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم** »(١٥٧) والخطاب موجه إليها بدليل قولها : « **يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم** »(١٥٨) فكان مقتضى الظاهر أن يقال : اذهب بكتابى هذا فألقه إليها ، لكنه عدل إلى الجمع ، إيماء إلى أن سليمان عليه السلام لم يكن شاغله هذه الملكة ، ولا ملكها ، ولا ما أحاطت به نفسها من هالات المجد ، وإنما كان شاغله هو عبادة هؤلاء القوم لغير الله تعالى ، وهدفه هو إعادتهم إلى عبادة الواحد الأحد ، وما اختصاص الملكة بالكتاب إلا باعتبارها ممثلة لقومها ، وصاحبة الأمر فيهم ، لذا كانت دعوته إلى الإسلام دعوة عامة « **ألا تعلوا على وأتونى مسلمين** »(١٥٩) وما كان يسر سليمان أن تؤمن

---

(١٥٥) الكهف ١٠٤ .
(١٥٦) النمل ٢٨ .
(١٥٧) النمل ٢٣ .
(١٥٨) النمل ٢٩ .
(١٥٩) النمل ٣١ .

بلقيس ويبقى قومها على كفرهم . وهـذا هو الفرق بين دعوة الأنبياء وأطمـاع الملوك ، فربما يرضى الباحثون عن الملك والسلطان بخضـوع زعيم الأمة وملكها ، وإدانته بالسلطان لهم ، ودخوله فى حلفهم ، وليس بمثل هـذا يقنـع الأنبياء ودعاة الإصلاح . قال الزمخشرى : ((فالقى الكتاب إليها وتوارى فى الكوة . فإن قلت : لم قال : ((**فالقـه إليهم**)) على لفظ الجمع ؟ قلت : لأنه قال : ((**وجدتها وقومها يسجدون للشمس**)) فقال : فالقه إلى الذين هذا دينهم . اهتماما منه بأمر الدين ، واشتغالا به عن غيره ، وبنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك))(١٦٠) .

والحـق أن الإفراد والجمع فى هـذه القصـة ، فيـه من الافتتان وغرائب الأسرار ما يدهش القارىء ، ويملك عليـه أقطار نفسه ، فقـد رأينـا كيف عـدل سليمان فى خطـابه إلى الجمع للنكتـة التى ذكرها الزمخشرى ، ثم هو مع ذلك يحرص على صيغة الإفراد فى حـديثه عن نفسه أمام من يخاطبهم ، كما تراه فى ((علىّ)) ((وأتونى)) إيماء إلى خصوصية النبوة وانفراده بها ، وهو حين يهددهم بشن الحرب عليهم ، يستخدم صيغة الجمع المشعرة بالقـوة وروح الجمـاعة ، ليذكرهم بأن وراءه من الجند الكثير ما لا يستطيعون مجابهته ، وأنهم لا يعصـون لـه أمرا ، فهـو يتكلم باسمهم جميعـا ((فلنأتينهم)) ((ولنخرجنهم)) ولم يقل : (لآتينهم ـ لأخرجنهم) لأن صيغة الجمع أولى بمقام التهديد والتخـويف .

ثم ها هى ذى بلقيس تعلن لقومها أن الكتاب من سليمان ، وهـو واحد ، لكنها حين تتحدث عنه تسلك طريق الجمع ، فتقول : ((**وإنى مرسلة إليهم**)) مع أنه حدثها عن نفسه بصيغة المفرد ولم يجمع ، وهى

---

(١٦٠) الكشـاف ٣/١٤٦ .

بذلك تنبىء عن ذكاء سياسى ، لملكة طالت دربتها فى الحكم ، فتقابل صيغة الجمع فى كتابه إليها بصيغة الجمع كذلك فى رسالتها ، إما لضرب من التعظيم كما يعظم الملوك بعضهم بعضا ، أو ادراكا بأن سليمان عليه السلام لا يمثل نفسه ، وإنما يمثل أمة يتولى امرها بمنطق الساسة ورجالات الحكم . وفى نفس الوقت تتحدث عن نفسها بصيغة الإفراد كما صنع سليمان فتقول : « **إنى مرسلة** » تاكيدا على أن هذا هو فكرها وتنفيذها ، ووراء ذلك من التناسب ما لا تجد له نظيرا يطرد فى كلام الناس ، حيث قابل النظم الحكيم إفراد ضمير المتكلم فى حديث بلقيس « **إنى مرسلة** » بإفراد ضمير المتكلم فى رسالة سليمان « الا تعلو على وأتونى » وقابل الجمع فى حديثها « **مرسلة إليهم** » الجمع فى أمره بالقاء الكتاب « فالقه إليهم » .

ويستمر سليمان فى صيغة الجمع حين يخاطب رسلها « **قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم** »(١٦١) مع إفراد ضمير الرسول فى جاء من قوله : « فلما جاء سليمان » ومقتضى الظاهر أن يقول : أتمدنى بمال ، لأنه يوجه حديثه إلى من أرسله ومن هو مشغول بهم من قول بلقيس ، لذا لم يوجه الحديث إلى الملكة فيقول : أتمدنى بمال فما أتانى الله خير مما آتاها . انشغالا عنها بالجماعة ، وهو عين السر الذى من أجله لم يقل : ارجع إليها ، مع أنها هى المرسلة ، مضيا على غايته من إظهار اهتمامه بإيمان القوم واستنقاذهم من ربقة الكفر ، فقال : « ارجع إليهم » .

وفى إفراد ضمير الخطاب فى الأمر « ارجع » مع أن الرسل كانوا جمعا ، كما يدل له قوله تعالى «**فناظرة بم يرجع المرسلون**»(١٦٢)

---

(١٦١) النمل ٣٦ . (١٦٢) النمل ٣٥ .

وما روى من أنها أرسلت إليه منذر بن عمرو فى وفـد(١٦٣) ، إيمـاء إلى أنه هو الرسول أصالة وغيره تبع ، وهو المتحـدث عنها ، والمبلغ رسالته إليها ، وتهيبجا لـه على أن يعى الرسالة ، ويحسن إبلاغهـا ، وهـذا أولى ممـا ذهب إليه قتيبة من أن الجمع فى قـوله تعـالى : « بم يرجع المرسلون » أقيم مقام الواحـد ، مستدلا بإفراد الضمير فى قـوله « إرجع إليهم » .

***

(١٦٣) تفسير البيضاوى ٤٥/٧ .

الفصل الثالث

تعاور الجموع مواقعها

* استعارة القلة للكثرة ٠
* استعارة الكثرة للقلة ٠
* تعاور ابنية الكثرة ٠

استعارة القـلة للكثرة

كثيرا ما تستعار صيغة القلة للكثرة لغرض يقصد إليه النظم الحكيم. من ذلك قوله تعالى فى دعاء عباد الرحمن : « **ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قـرة اعين واجعلنـا للمتقين إماما** »(١) فالداعـون من عبـاد الرحمن كثيرون ، ولكنه قابل كثرتهم بجمع القـلة « أعـين » مـع أن لعين صيغة كثرة هى « عيـون » . يقـول الزمخشرى : (وانمـا قيل اعين ، دون عيـون ، لانه أراد اعين المتقين ، وهى قليلة بالإضافة إلى عيـون غيرهم . قال الله تعالى : « **وقليـل من عبـادى الشكور** »(٢) فالتقليل هنا فى مجال الثناء والمدح اشبه بالتخصيص المنبىء عن التفرد والامتياز ، وهـذا هو السر فى جمعها قلة فى قوله تعالى : « **ولتجـدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما انزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ممـا عرفوا من الحـق** »(٣) فهاهنا ثلاثة جمـوع فى وصف المخلصين من النصارى هى « قسيسين » و « رهبـانا » و « أعين » والمقام يقتضى الكثرة ، كما اشـار إليـه ابو السعود حين قال فى تنكير « رهبانا » : (والتنكير لإفادة الكثرة ، ولابد من اعتبارها فى القسيسين أيضا ، إذ هى التى تدل على مـودة جنس النصارى للمؤمنين ، فـإن اتصاف افراد كثيرة لجنس بخصلة مظنة لاتصاف الجنس بها ، وإلا فمن اليهود ايضا قوم مهتدون)(٤) فإذا كان المقام يتطلب التكثير ، فلمـاذا جىء بصيغتى التقليل : « قسيسين » و « أعـين » مـع أن لـكل منهما صيغة كثرة ؟

---

(١) الفرقان ٧٤ .
(٢) الكشاف ١٠٢/٣ .
(٣) المـائدة ٨٢ ـ ٨٣ .
(٤) تفسير ابى السعود ٧٣/٣ .

السر فى ذلك - والله أعلم - هو ما أشار إليه الزمخشرى آنفا .
وهو أن القسيس كما قال الراغب : ((العالم العابد من رؤوس النصارى))(٥) أما الرهبانية فهى (غلو فى تحمل التعبد من فرط الرهبة)(٦) فلما كان القسيس يجمع بين العبادة والعلم بخلاف الراهب المنقطع للعبادة فحسب ، كان القسيسون أقل وأعز بالنسبة إلى الرهبان لذا جمع الأول جمع السلامة الدال على القلة ، دون أن يقال : قسوس أو قساوسة وهما من جموع الكثرة . ثم إن فيض الأعين بالدموع دليل على غاية الصدق والخشوع ، وقوة التأثر لسماع آيات القرآن ، ومثل هذا الفيض من الشعور والإيمان لا يكون إلا للصفوة من المخلصين وهم قلة كذلك فناسبه جمع القلة « أعين » .

هذا إلى جانب أن القرآن ضمانا لعدم اللبس فى جمع الكثرة « عيون » وهو من قبيل المشترك اللفظى ، لدلالته على جمع الباصرة ، وجمع العين الجارية ، خص جمع الكثرة بالعيون الجارية ، كقوله تعالى : « **إن المتقين فى جنات وعيون** »(٧) واطرد ذلك فى المواضع العشرة التى ورد فيها جمع الكثرة ، وجاءت الأعين دالة على الباصرة فى اثنتين وعشرين موضعا . وهذا الاطراد مما لا تجد له نظيرا فى كلام الناس . وهو آية الإعجاز فى اختيار اللفظ الذى يسبق معناه إلى القلب جرسه فى السمع ، دون أن يكون لظلال الاشتراك أى أثر يبطىء وصول معناه .

ومما وضعت فيه صيغة القلة فى موضع الكثرة ، قوله تعالى : **«وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين»**(٨) فعبربجمع

(٥) المفردات ٤٠٣ .
(٦) السابق ٢٠٤ .
(٧) الذاريات ١٠ .
(٨) الأعراف ١٦١ .

القلة « خطيئات » مع كثرة جرائم بنى إسرائيل ، وتعدد خطاياهم ؛ بدليل جمع الكثرة فى قوله تعالى من سورة البقرة : « **وإذ قلنا ادخلوا هـذه القرية وكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين** »(٩) فلماذا وضـعت القـلة موضع الكثرة فى سورة الأعراف ؟ وما الغرض الـذى أوجب الكثرة فى البقرة ، والقلة هنا ، مع أن الآيتين تحكيان حدثا واحدا من قصة واحدة يعرض الله تعالى فيها جرائم اليهود ؟

يذهب الخطيب الإسكافى إلى أن السر يكمن فى اختلاف الإسناد فى فعـل الحكاية ، فناسب إسناد القول إلى ضمير المعظم نفسه كثرة غفرانه للخطايا ، كما ناسـب جمع القـلة إسناد القـول إلى ما لم يسم فاعله . يقول : (استعمل لفظ الكثير فى الموضع الذى جعـل الإخبـار به عن نفسه ، بقوله : « **وإذ قلنا ادخلوا** » وشرط لمن قام بهذه الطاعة ما يشرطه الكريم إذا وعـد من مغفرة الخطايا كلها ، وقرن إلى الإخبار عن نفسه جـل ذكره ، ما يليق بجوده وكرمه ، وأتى باللفظ الموضـوع للشمول ، فيصير كالتوكيد بالعمـوم ، كما لو قال : نغفر لكم خطاياكم كلها أجمع ، ولمـا لم يسند الفعل فى سورة الأعراف إلى نفسه عز اسمه ، وإنما قال : « **وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية ..** » فلم يسم الفاعل أتى بلفظ الخطيئات وإن كان المراد بها الكثرة كالمراد بالخطـــايا ، إلا أنه أتى فى الأول لمـا ذكر الفاعل بما هو لائق بضمانه من اللفظ ، ولمـا لم يسم الفاعل فى الثانى وضـع اللفظ غير موضعه ، للفرق بين ما يؤتى به على الأصل ، وبين ما يعدل عنه إلى الفرع)(١٠) .

---

(٩) البقرة ٥٨ .   (١٠) درة التنزيل ١٥ .

ما امتن الله به عليهم من النعم دون التصريح بجناياتهم : « **وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وانزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** »(١٦) فناسب التصريح بأمة ترعى الحق والعدل من بنى إسرائيل ، وطى جناياتهم تقليل الذنوب فيما عبر عنه بالخطيئات ، وأحسب أن الخطايا الئق بكثرة الجرائم منها بعظم غفرانها مع تكثير النعم على ما ذهب إليه الغرناطى .

ومما استعيرت فيه القلة للكثرة قوله تعالى : « **وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال اتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق** »(١٧) .

فجاء جمع السلامة المعبر به عن القلة « النبيين » مخالفا ظاهر ما يقضى به سياق يسجل الله فيه على بنى إسرائيل جناياتهم التى استوجبت غضبه ، وأعظمها كثرة قتلهم الأنبياء . والدليل على أن القلة وضعت هنا موضع الكثرة ، ما أشبه هذا النظم من قوله تعالى فى سورة آل عمران : « **ضربت عليهم الذلة وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغر حق** »(١٨) حيث حل جمع الكثرة « الأنبياء » محل جمع القلة . والمتحدث عنه فى الموضعين واحد ، والجناية هى عين الجناية . فلماذا وضعت القلة موضع الكثرة فى موطنها من سورة البقرة ؟

---

(١٦) الأعراف ١٦٠ .　　(١٧) البقرة ٦١ .
(١٨) آل عمران ١١٢ .

وذهب ابن الزبير الغرناطى إلى أن جمع الكثرة ناسب الموطن الذى عدد الله فيه نعمه على بنى إسرائيل : من تفضيلهم على العالمين ، وإنجائهم من آل فرعون ، وإيتاء موسى الكتاب والفرقان ، وتظليل الغمام عليهم ، وإنزال المن والسلوى ، وكان غفران الله لخطاياهم الكثيرة واحدا من هذه النعم التى امتن بها عليهم ، فلما لم يكن مثل هذا الامتنان وتعديد النعم فى سورة الأعراف جاء جمع القلة(١١) .

وأرى - والله أعلم بمراده - أن تكثير الخطايا فى سورة البقرة راجع إلى كثرة ما حكاه الله تعالى قبل الآية من جرائم بنى إسرائيل ، فى مثل : « **ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** »(١٢) وقوله : « **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** »(١٣) وقوله : « **ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** » وقوله : « **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** »(١٤) .

فكان تعديد هذه الجرائم وكبائر الذنوب التى وصلت إلى حد عبادة غير الله والمجاهرة بالعصيان لرسوله مستوجبا جمع الكثرة « خطايا » تعبيرا عن كثرة جرائمهم وعظم خطرها .

أما سياق آية الأعراف فقد توارت فيه هذه الخطايا وسط ظلال نعم الله تعالى على بنى إسرائيل ، وأبرز السياق صلاح طائفة منهم قبل الآية فى قوله تعالى : « **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** »(١٥) ولم يشر إلى مثله فى سياق آية البقرة ، ثم ذكر بعدها

---

(١١) يراجع ملاك التاويل ٦٢/١ .
(١٢) البقرة ٤١ .
(١٣) البقرة ٤٤ .
(١٤) البقرة ٥٥ .
(١٥) الأعراف ١٥٩

إن المتأمل فى سياق الآيتين يبهره هـذا الإحكام البديع الناطـق بإعجاز الكتاب الحكيم فى وضع الصيغة موضعها الملائم لها . فالحديث فى آية البقرة جاء فى سياق الإخبار عن تمرد بنى إسرائيل وعصيانهم فى عهد نبيهم موسى عليه السلام كما يتضـح من صـدر الآية : **« وإذ قلتم** ياموسى .. » حيث وجه الخطاب إلى المعاصرين لموسى ، وجاءت الضمائر فى **« وضربت عليهم الذلة » « وباءوا » « بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون »** حـديثا عنهم ، ولذا عرف « الحق » إيماء إلى الحق الذى جاءهم به موسى فى التـوراة ، وكأنه يقول : إنهم ارتكبـوا جنـاياتهم مخالفين نبيهم وما دعاهم إليه من الحق ، وهو بين ظهرانيهم . ولم يكن قد طال بهم العهد إلى زمن النبى ﷺ ، كما هو شأن المتحدث عنهم فى آية آل عمران ، حيث جاءت فى سـياق خطـاب الله لأمة محـمـد عليه السلام **«لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون»** ليطمئنهم على أن من عاصرهم من اليهود لن يكون لهم الغلبة عليهم ، فكان بعـد ما بين عصرى موسى ومحـمـد عليهما السـلام مستلزما كثرة ما وقـع من قتل الأنبياء بعـد موسى عليه السلام ، لذا عبر بجمع القـلة فى خطاب المعاصرين لموسى حيث لم يكن قـد استحر القتـل بالأنبيـاء كما استحر من بعـده وحتى عصر محمد عليه السلام ، مما ينبىء عن استمرار هـذه الجريمة فى أعقابهم وكثرة عـدوانهم على أنبيـائهم ، مخالفين بذلك كل شرائع الحـق لا شريعة موسى وحـدها ، وهـو السر الذى من أجله نكر الحـق فى آية آل عمران ، ليشيع هـذا التنكير جوا من المبالغة فى ظلمهم وعـدوانهم يتناسب مع صيغة الكثرة فى جمـع الأنبياء . هـذا فضلا عن تناسب الألفاظ إيجازا وإطنـابا فى الموضعين ، فناسب الإطناب بالجمع الإطناب بالتكرار فى قوله : **« وضربت عليهم الـذلة وبـاءوا بغضـب من الله وضربت عليهـم المسكنة »** حيث كـرر

هنا « ضربت عليهم » عاطفا جملة على جملة ، ولم يكررها فى البقرة ، مكتفيا بعطف المسكنة على الذلة عطف المفرد على المفرد ، فناسب هناك بين الإيجاز بالإفراد وعطف المفردات ، كما ناسب هنا بين صيغة الجمع وعطف الجمل . وهو من روائع المناسبات بين الألفاظ والمعانى ، فهل يمكننا بعد ذلك أن نوافق أبا حيان فى قوله : (ولا فرق فى الدلالة بين النبيين والأنبياء ، لأن الجمعين إذا دخلت عليهما أل تساويا ، بخلاف حالهما إذا كانتا نكرتين ، لأن جمع السلامة إذ ذاك ظاهر فى القلة ، وجمع التكسير على أفعلاء ظاهر فى الكثرة)(١٩) .

ومما وضع فيه القلة موضع الكثرة قوله تعالى : « **وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون** »(٢٠) فجمعت الغرفة بالألف والتاء وهو من صيغ القلة ، مع أن المؤمنين العاملين كثرة ، والمقام مقام وعد من الكريم الوهاب ، وهو يقتضى التكثير فى الغرف ، فلماذا عدل إلى القلة هنا ؟ وجاء بصيغة الكثرة فى قوله تعالى: « **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** »(٢١) وقوله : « **لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد** »(٢٢) .

ذهب المفسرون إلى أن جمع القلة مراد به الكثرة بدليل الآيتين الأخريين ، بل إنهما والمفرد فى قوله تعالى : « **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا** » فى الدلالة على الكثرة سواء إذ الشأن ألا تفاوت(٢٣) وهذا ما دفع بعض الباحثين المعاصرين كما أشرت فى التوطئة إلى القول بعدم

---

(١٩) البحر المحيط ٢٣٧/١ . (٢٠) سبأ ٣٧ .
(٢١) العنكبوت ٥٧ . (٢٢) الزمر ٢٠ .
(٢٣) أنظر تفسير البيضاوى وحاشية الشهاب ٤٣٨/٦ .

وجود صيغ للقلة وأخرى للكثرة . وهـذه - فى نظرى - غفـلة عن خصائص الصياغة ومتطلبات المقام فى كل موضع .

فالآية التى جاء فيها جمع القـلة تختلف فى بنائها عن الآيتين اللتين ورد فيهما جمـع الـكثرة ، من حيث جاءت الغـرف زيادة فى الإخبار ، **بعـد أن أخبر الله عنهم** بمضاعفة الجزاء **« أولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا »** فدل بهـذا الخبر على حسن المثوبة ، ثم جاء قوله **« وهم فى الغرفات آمنون »** زيادة فضـل من الله تعالى . ووقـع قـوله « فى الغرفات » حالات فى هـذه الزيادة ، والحال كما قرره شيخ البلاغه زيادة فى الإخبار (٢٤) فكان هـذا الجمع زيادة بعد زيادة ، مما يدل على أن الغرض من الإخبار فى جملة الجمع هو وصفهم بالأمن أصالة ، وكونهم فى الغرفات يضيف إلى راحـة النفس وإحساسها بالأمن متعـة الجسد وراحة الأبدان ، أما الآيتان اللتان أوثر فيهما جمع الكثرة فقـد جاء الجمع فيهما جـزءا كاشـفا عن جـزاء المؤمنين وليس زيادة فى الإخبار عنهم ، فهو فى كل منهما جزء من الخبر الأصيل ، فى الأولى **« لنبوئنهم من الجنة غرفا »** لم يعين نوع الجزاء إلا بالمفعـول **« غرفا »** وفى الثانية « لهم غرف » لم يتضح الجزاء إلا بهـذا الخبر .

هذا من ناحية الصياغة ومن ناحية مقتضيات المقام ، فإن آية الزمر اقتضت المبالغة بالكثرة ، لأن المجازين بالغرف هم المتقون ، وهم خاصة المؤمنين ، فهم أرفع درجة عند ربهم ، بدليل أن القرآن لم يكتف بقوله « لهم غرف » بل بالغ فى ذلك بقوله « من فوقها غرف مبنية » مما يدل على زيادة فضلهم . وفى آية العنكبوت ، وإن كان الخبر وقع عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كما هـو فى آية سبأ التى جاء فيها جمـع

---

(٢٤) أنظر دلائل الإعجاز ١٧٣ .

القلة ، إلا أن الله قدم لهم بنداء التكريم **« يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون »**(٢٥) ثم امتدحهم بقوله : **« نعم أجر العاملين »** وزاد فى وصفهم **« الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون »**(٢٦) فدل على أنهم نوع متميز فى العمل من بين المؤمنين ، وهو يقتضى الزيادة فى تكريمهم ، فجاء جمع الكثرة محققا لهذا الغرض ، بخلاف آية سبأ التى اكتفى الله فيها بوصفهم بالإيمان والعمل الصالح دون زيادة : (إلا من آمن وعمل صالحا) فجاء جمع القلة مناسبا لدرجتهم فى الجنة وفقا لمنزلتهم فى العمل .

وتوحيد الغرفة فى قوله تعالى : **« أولئك يجزون الغرفة بما صبروا »**(٢٧) فى وصف عباد الرحمن هو قمة التميز فى الفضل ، والرفعة فى المنزلة ، حيث أعد لهم الغرفة التى تليق بما عدد الله تعالى من أوصافهم الرفيعة التى لم يوصف بها سواهم ، بدءا من قوله : **« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما »**(٢٨) إلى قوله : **« والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما »**(٢٩) فكان توحيد الغرفة مع هذه الأوصاف الفريدة موحيا بمنزلة فريدة فى الجنة تتناسب وجلائل أعمالهم . وحين يرى الطيبى فيما نقله الألوسى عنه(٣٠) أنهم لكمال أوصافهم وعدم تفاوتهم فيها وحدت الغرفة ، دليلا على اتحاد منزلتهم فى الجنة وعدم تفاوتهم فيها فهو لا يسبق فى مضمار آخر بعيدا عما قلناه وهو وجه حسن .

---

(٢٥) العنكبوت ٥٦ .
(٢٦) العنكبوت ٥٩ .
(٢٧) الفرقان ٧٥ .
(٢٨) الفرقان ٦٣ - ٦٤ .
(٢٩) الفرقان ٧٢ - ٧٥ .
(٣٠) أنظر روح المعانى ١٩/٥٣ .

ومن عجيب أسرار النظم فى المغايرة بين صيغ الجمع كثرة وقلة ، ما نراه فى الأكثر الأعم يعبر بالأنفس وهى صيغة قلة فيما يقتضى ظاهره الكثرة ، وهى على التحديد وردت فى ثلاثة وثلاثين ومائة موضع من القرآن الكريم ، وهى فى جميعها مواطن كثرة ما عدا موطنا واحدا هو قوله تعالى : « **وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم** »(٣١) فى حين وردت بصيغة الكثرة « نفوس » على الأصل فى موضعين اثنين فحسب ، فلماذا كان العدول إلى القلة فى موطن الكثرة فى هذا العدد الهائل من الآيات ؟

لقد تتبعت هذه المواضع فى كتاب الله ، فوجدت أن الكثرة الكاثرة منها فى خطاب الكافرين والظالمين ، أو فى الحديث عنهم مثل : « **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** »(٣٢) وقوله : « **وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل** » (٣٣) وقوله : « **يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا** »(٣٤) وقوله : « **الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون** »(٣٥) وقوله : « **وما ظلمونا ولكن أنفسهم يظلمون** » وقوله : « **إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** »(٣٦) .

ومثل هذه المواطن الدامغة بالكفر والعصيان هى مواطن تحقير لهذه الأنفس ، وتقليل لوجودها ودورها فى صنع الحياة الفاضلة ، وتهوين من أمر عصيانها وتمردها فإنها لن تضر الله شيئا ، فكان جمع القلة هو الذى يحقق الغاية من إظهار كثرتهم العددية بمظهر القلة والحقارة ، فالإنسان يكثر بآثاره الصالحة ، ويهون أمره ويقل شأنه

---

(٣١) التوبة ١١٨ .
(٣٢) البقرة ٤٤ .
(٣٣) البقرة ٥٤ .
(٣٤) يونس ٢٣ .
(٣٥) الأنعام ٢٠ .
(٣٦) التوبة ٥٥ .

حين يصير وجوده عقما ، وحياته فراغا يلعب فيها الشيطان ، وكان هذه الأنفس التى عظم الله شانها ، وبالغ فى حرمتها فى مثل قوله تعالى : ((**ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق**)) قد أهدرت بالعصيان كرامتها ، والغت بكفرها وتمردها وجودها ، واسقطت بعدوانها على خالقها حرمتها ، فهى قليلة الشان وضيعة المنزلة . ذلك ما بدأ لى فى تقليل الأنفس ، وقد وجدت ما يؤيده فى رد الدكتور محمد أبو موسى على الزمخشرى حين رأى الأخير أن صيغة القلة فى الأنفس من قوله تعالى : ((**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**)) (٣٧) وردت على سبيل التوسع وتعاور صيغ الكثرة والقلة مواضعها . **قال الزمخشرى** : (فإن قلت : لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التى هى الأقراء قلت : يتسعون فى ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما فى الجمعية . ألا ترى إلى قوله : ((**بأنفسهن**)) وما هى إلا نفوس كثيرة)(٣٨) فرد الدكتور أبو موسى بما يكشف عن بلاغة وضع القلة فى غير موضعها ، قال : (فقد أغفل الزمخشرى فيه ايضا النكتة البلاغية ، وذلك لأن الأنفس وهى جمع قلة ، استعملت هنا مكان الكثرة لتشير إلى معنى التقليل والتهوين من شأن هؤلاء النسوة الطامحات إلى الأزواج قبل تمام عدة صاحبها الأول ، فالآية الكريمة تحدد عدة المرأة المطلقة ، وتوحى بكمال هذه العدة ، وتسلمها غاية التمام ، وأسلوبها فيه تشديد على المطلقة فى هذا الموقف ، وفيه لذعات ، فكلمة ((يتربصن)) تشير إلى أنها تعالج أمر نفسها الطامحة إلى الزواج ، وكلمة ((بأنفسهن)) فيها تهيج لهن ، ولذع يتوق نفوسهن إلى الرجل ، وكان لذع الأسلوب انكى حينما قال : ((**ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن**)) وكأنه يشير إلى أن بعضهن يفعلن هذا ، وقوله :

---

(٣٧) البقرة ٣٨٨ .
(٣٨) الكشاف ٣٦٦/١ .

« إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » شرط فيه قسوة . وفي هـذا السياق العام أطمئن إلى أن اختيار القلة هنا في كلمة « الأنفس » فيه إشـارة إلى التقليل والتهوين ، لتتلاءم هـذه الخصوصية ، وتتجاوب مع هـذا السياق)(٣٩) .

يزيدني اطمئنانا إلى اطمئنانه أن صيغة القـلة هـذه أومات إلى احساس بالحرج ولذع الشعور فيما كان المسلمون يعالجـونه في أنفسهم من تبييت النيـة على خطبة النساء ، وهي لا تزال بعـد في عـدتها ، ومحاولتهم إبلاء رغبتهم هـذه إلى المعتدات ، فجاءت إباحة إبداء هـذه الرغبة بطريق التعرض بصيغة نفي الإثم « لا جنـاح عليكم » لتتعـاون هذه الصيغة في الإباحة مع صيغة جمع القلة « أنفس » في تقليل شـأن الطامحين إلى الزواج من المعتدات قبل تمام عـدتهن ، مشيرة إلى أن الكمال النفسي في عـدم التعجل واحترام ما قضى الله من أحكام ووقت من أزمان ، وذلك في قوله تعالى : **« ولا جناح عليكم فيمـا عـرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن »**(٤٠) فكان قوله : **«أو أكننتم في أنفسكم»** وقوله : **«علم الله أنكم ستذكرونهن»** لاذعا في الكشف عن ضعف هـذه النفوس وتعجلها .

ثم أنظر كيف قابل الله تعظيم الناس لأنفسهم وإكبارهم لهـا ـ بتزكيتهم أنفسهم ، وهم يجهلون من حقيقتها أضعاف ما يعلمونه ـ قابله بتقليل هـذه الأنفس المزكاة ، تهوينا لها ، لمـا اجترأت عليه من الحكم بما ليس لها أن تحكم به ، وكان عليها أن تفوض الأمر فيه إلى من يعلم السر وأخفى ، فقال : **« هـو أعلم بكم إذ أنشـأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هـو أعلم بمن اتقى »**(٤١)

---

(٣٩) البلاغة القرآنية ٢٧٩ .
(٤٠) البقرة ٢٣٥ .
(٤١) النجم ٣٢ .

فاستحقت هذه الأنفس المفتاتة على حق ربها أن تقابل منه بالتقليل والتحقير . وهكذا كان مقام التطاول والاجتراء داعيا إلى صيغة القلة فى « أجلة » كذلك ، الدالة على هوان أمرهم عند النشأة ، كما هان أمرهم كبارا حين تجاوزوا ما حد الله لهم من حدود .

لكن من حق القارىء أن يعترض على ما قدمناه بآيات أخر جاءت فى مقام امتداح المؤمنين والثناء عليهم ، وهو مقام يقتضى التعظيم لا التهوين ، كما فى قوله تعالى : « **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** »(٤٢) وقوله تعالى : « **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله** »(٤٣) وقوله فى وصف من استقاموا على الطريقة : « **وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون** »(٤٤) .

والجواب على هذا هو أن التقليل هنا قصد به الإشارة إلى قلة من هذا وصفهم ، وندرة الطائعين الواهبين أنفسهم وأموالهم لمن منحهم إياها ، بالنسبة إلى الكثرة من العصاة والمتمردين على منهج خالقهم . كما يقضى به قوله تعالى : « **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم** »(٤٥) فالتقليل هنا ذاهب إلى تعظيم الموصوفين لا إلى تحقيرهم ، شأنه فى ذلك شأن التنكير الذى يفيد التحقير حينا ، والتعظيم حينا آخر ، والفيصل فى ذلك هو القرائن وهمس السياق .

ومما وضعت فيه صيغة القلة موضع الكثرة ، قوله تعالى خطابا للمؤمنين : « **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم**

---

(٤٢) التوبة ١١١ .
(٤٣) التوبة ٢٠ .
(٤٤) فصلت ٣٠ - ٣١ .
(٤٥) ص ٢٤ .

تشكرون »(٤٦)، فعبر بجمع القلة « اذلة » دون جمع الكثرة : ذلان وأذلاء ، مع أن المخاطبين من المؤمنين الذين حضروا بدرا كانوا فوق الثلاثمائة · فما سر العدول إلى صيغة القلة ؟

يقول الزمخشرى : (والأذلة جمع قلة ، والذلان جمع كثرة ، وجاء بجمع القلة ، ليدل على انهم على ذلتهم كانوا قليلا ، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب)(٤٧) ·

استعارت صيغة القلة لتصور ما كان عليه المؤمنون من ضعف الحال وقلة العدة والعتاد ، مقارنة بعدوهم المتفوق عليهم عددا وعدة ، تذكيرا بفضل الله تعالى الذى أيدهم بنصره ، فى حال تقطع كل مقاييس البشر بأنهم سيكونون طعمة لأعدائهم · وقد اقتضى ذلك مقام العتاب والتأنيب على ما أصاب المؤمنين من الوهن إبان الخروج لمعركة احد ، حتى حدثتهم أنفسهم بالنكوص على أعقابهم قبل أن يلقوا عدوهم متأثرين بتخذيل المنافقين ، وهو ما يشهد به سياق الآيات قبل هذه الآية : **« إذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون »**(٤٨) ·

ثم استعار القرآن نفس الكلمة بمادتها وصيغتها للمبالغة فى تواضع المؤمنين ، وشدة هضمهم لأنفسهم فى تعاملهم مع إخوانهم الذين ترتبطهم بهم أواصر الدين ، فكان تضامنهم وحدبهم على الضعفاء ولين جانبهم بمثابة القليل من اعداد الناس ، لا تظهر لهم شوكة ، وذلك فى قوله تعالى : **« يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرن يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »**(٤٩) ·

---

(٤٦) آل عمران ١٢٣ ·
(٤٧) الكشاف ٤٦١/١ ·
(٤٨) آل عمران ١٢١ ـ ١٢٢ ·
(٤٩) المائدة ٥٤ ·

مقام التهديد باستبدال المرتدين بغيرهم ممن هم أكثر طاعة وحبا لله وعبادة يقتضى الكثرة ، ولكنها ليست كثرة غاشمة مستبدة ، وإنما هى تستحيل إلى قلة ضعيفة رفيقة الجانب تفيض عطفا ورحمة على المؤمنين ، ولهذا استعيرت صيغة القلة مبالغة فى لين جانبها ، وذهاب شوكتها .

لعلك تقول : سلمنالك ذلك فى « أذلة » فكيف تفسر القلة فى « أعزة » وهو عكس ما ذكرت ؟

أقول : إن القلة هنا قصد بها المبالغة كذلك فى التأكيد على عزة المؤمنين وثباتهم فى مواجهة الكفار ، فإذا كانوا وهم قلة أعزة يجاهدون فى سبيل الله ، لا يخيفهم من عدوهم كثرته ، ولا تقعد بهم عن نصرة الحق قلة عددهم وضعف عتادهم ، فكيف إذا كانوا كثرة ؟ !

لقد تعانق الجمعان بصيغة القلة فى وصف المؤمنين ببالغ العطف على إخوانهم ، وبالغ الشدة على عدوهم ، وتعانقا كذلك فيما أضفياه باتحاد الصيغة والوزن من جمال التناسب وحسن الإيقاع . ألا ترى كيف عدل القرآن طلبا للمشاكلة عن اللام إلى على ، فلم يقل : أذلة للمؤمنين ، لتتعادل الجملتان فى أوزانهما وصيغهما ثم يكسبها حرف الجر « على » من المعنى ما يجعل عطف المؤمنين ورحمتهم غطاء يجلل إخوانهم ، ويشملهم جميعا ، ليكون مظلة واقية لهم من كل عدوان ، وينفى مظنة الضعف المتبادر من الذلة ، لما فى « على » من معنى الاستعلاء الملوح بالقوة ، فهو عطف القوى وتواضعه ، لا ذلة الضعيف وخنوعه(٥٠) .

هذا التناسب بين المعانى والألفاظ تجده فيما أشبه معنى الآية من قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء

---

(٥٠) يراجع كتاب من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم ص ٨٤ .

بينهم »(٥١) فتناسبت صيغتا الكثرة معنى ولفظا ، وكان لهما من المبالغة في الشدة والرحمة ، والتناسب الصوتي ما لأذلة وأعزة ، وإن كانت الصيغة قد جرت على الأصل ومقتضى الظاهر هنا ، وخالفته هناك .
ووراء هذا الاختلاف سر يبوح به نظم الآيتين . فتقديم الأذلة هناك يشير إلى أن الغرض الأصيل هو وصفهم ببالغ الرحمة على المؤمنين وجاء وصفهم بالأعزة احتراسا ودفعا لتوهم ضعفهم ، ومقام الرحمة والعطف اقتضى التقليل الموحى بلين الجانب ، وفي سورة الفتح كان الغرض الأساسي هو وصف المؤمنين بالشدة على الكفار بعد الحديث عن صلح الحديبية وما وعد الله به المؤمنين من دخول المسجد الحرام أقوياء لا يخافون ، وجاء وصفهم بالرحمة على المؤمنين احتراسا ودفعا لتوهم أنهم غلاظ القلوب ، ومقام القوة والغلبة يقتضي التكثير فجاء جمع الكثرة وفاء بحق المناسبة ومقتضيات السياق .

ومما هو واضح في مخالفة ظاهر الحال باستعمال صيغة القلة في موضع الكثرة ، قوله تعالى : « **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** »(٥٢) .

كثيرة هي تلك النعم التي أغدقها الله على هذه القرية الظالمة ، وكان كفرانها بهذه النعم العديدة هو الذي اقتضى هذا العذاب الشديد الذي عبر عنه قوله : « **فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** » فلماذا غلبت القلة صيغة الكثرة على موضعها ؟ مع أن للنعمة جمع كثرة استخدمه القرآن في قوله تعالى : « **ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** »(٥٣) .

---

(٥١) الفتح ٢٩ .　　(٥٢) النحل ١١٢ .
(٥٣) لقمان ٢٠ .

لقد أراد الله تعالى بهذا المثل ترويع المشركين وتخويفهم من عقابه ، وتحذيرهم من الكفر بنعمه ، ومقام التهديد والتخويف يقتضى حشد كل الأدوات التى تملأ القلوب رعب ، فكان تعنى النعم أوعى بهذا المقام ، لأنه يوحى بأن كفران القليل من النعم استوجب هذا العقاب الأليم ، فكيف يكون العقاب مع الكفر بالنعم الكثيرة ؟ هذا هو الذى من أجله وضع جمع القلة موضع الكثرة ، وهو الذى صرح به العلامة أبو السعود فى قوله : (وإيثار جمع القلة للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب فما ظنك بكفران نعم كثيرة)(٥٤) .

هذا التناسب فى المعنى واللفظ راعاه القرآن فى هذه السورة - مع طول الفاصل - فى قوله تعالى : ((**إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم**))(٥٥) فقد كان الظاهر فى مقام المدح لخليل الله إبراهيم عليه السلام أن يقال : شاكرا لنعمه ، إلا أن النظم الكريم خالف الظاهر إلى ما هو عليه فى رأى أبى السعود : (للإيذان بأنه عليه السلام كان لا يخل بشكر النعمة القليلة ، فكيف بالكثيرة ؟ وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى ، حسبما بين ذلك بضرب المثل)(٥٦) .

وراء استعارة القلة هنا فى رأى أبى السعود غرضان : أولهما المبالغة فى وصف الخليل بشكر ربه ومداومته عليه ، لما أن الشاكر على قليل النعم أكثر شكرا على الكثير منها ، والثانى : هذا التناسب البديع فى مقابلة شكر إبراهيم بكفران القرية ، مستخدما نفس الصيغة ، وهو ضرب عظيم من التناسب أحكمه القرآن ، مع طول الفصل بين الموضعين.

---

(٥٤) تفسير أبى السعود ١٤٥/٥ . (٥٥) النحل ١٢٠ - ١٢١ .

(٥٦) تفسير أبى السعود ١٤٩/٥ .

ولعلى لا أزاحم العلامة أبا السعود إذا قلت : إن إيثار صيغة القلة يبرز عظيم فضل الله تعالى فى مقابلة القليل من الشكر بالكثير من الفضل والزيادة ، تحقيقا لقوله تعالى : « **لئن شكرتم لأزيدنكم** »(٥٧) فإذا كان الكريم الوهاب قابل شكر إبراهيم على القليل من النعم ببالغ الفضل والكرم « **اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم** » فماذا أعد الله لخليله مقابل شكرانه العظيم للكثير من نعمه ؟ ليذهب العقل كل مذهب فى تصور ما أفاض به على نبيه وادخره عنده جزاء شكوره بما يتناسب وكرم ذى الجلال والإكرام .

وتأمل معى كيف يبث جمع القلة فى نفس الرسول عليه السلام وأمته روح الثقة والاطمئنان إلى حفظ الله لكتابه ومنع أيدى المحرفين من الامتداد إليه فى قوله تعالى : « **واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا** »(٥٨) حيث أوما جمع القلة « كلمات » إلى أن أحدا لن يستطيع تبديل عدد قليل من كلمات الله ، وذلك أبلغ من جمع الكثرة ، لأن نفى تبديل القليل يستلزم نفى الكثير ولا عكس . وهو ذات الغرض فى إيثار جمع القلة من قوله تعالى: « **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** »(٥٩) . وقوله : « **ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** »(٦٠) فلو استحالت أشجار الأرض جميعها أقلاما ، والبحار مدادا ، لتكتب بها كلمات الله ، لنفدت البحار قبل أن ينفد القليل من كلمات الله ، فأى بحار وأى أقلام تتسع للكثير من كلامه ؟ يقول الزمخشرى :

---

(٥٧) إبراهيم ٨ .
(٥٨) الكهف ٢٧ .
(٥٩) الكهف ١٠٩ .
(٦٠) لقمان ٢٧ .

فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل ، فهلا قيل : كلم الله ؟ قلت : معناه أن كلماته لا تفى بكتبتها البحار ، فكيف بكلمه ؟ !)(٦١) ٠

قارن ذلك بقول الله تعالى ناعيا على اليهود تحريفهم لكلام الله ، وكيف جاء الجمع مصورا بشاعة جريمتهم بكثرة ما حرفوه فى قوله تعالى : « **من الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم عن مواضعه** »(٦٢) فقد جاء جمع الكثرة « الكلم » موحيا بكثرة ما حرفوه من التوراة ، تحقيقا للغرض من تحذير المؤمنين من السماع لهم وتصديقهم فيما ينسبونه إلى ربهم ، فإن أكثره مفترى على الله ٠

ومما عدل فيه القرآن إلى صيغة القلة التعبير بجمع السلامة « ساجدين » فى قوله تعالى : « **إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين** »(٦٣) فعدد الساجدين تجاوز العشرة ، التى هى نهاية أعداد القلة ، فكان مقتضى الظاهر أن يعبر بصيغة الكثرة كالسجد والسجود ، وهما مستعملان فى الذكر الحكيم ٠ فماذا وراء العدول إلى القلة ؟

إن ما رآه يوسف عليه السلام أمر غريب ، إذ إن الكواكب والشمس والقمر مما لا يتصور له هيئة يسجد بها ، وما ورد من سجود الجمادات فى مثل قوله تعالى : « **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس** »(٦٤) إنما هو سجود تسخير ، ولا يمكن أن يكون مثله هو

---

(٦١) الكشاف ٣/٢٣٦ ٠
(٦٢) المائدة ٤١ ٠
(٦٣) يوسف ٤ ٠
(٦٤) الحج ١٨ ٠

المقصود فى رؤيا يوسف ، لأن مثار التعجب فى قصها ، وطلب يعقوب من ابنه كتمانها ، دليل على سجود التطامن والتذلل ، الذى يكون من العقلاء ، لا الدلالة الصامتة الناطقة بكونها مخلوقة مقهورة ، كما هى شأن السجود من الجمادات . ولا يجسد هذه الغرابة وذلك الشرف فى رؤيا يوسف سوى جمع العقلاء الذى عدل إليه القرآن الكريم مكتفيا فى الدلالة على الكثرة بصريح العدد . يشهد بذلك أن القرآن الكريم إذا ما عبر عن أمر غريب فى عالم الجمادات أو الأحياء من غير العقلاء دل على غرابته بضمير العاقل ، كما جاء فى قوله تعالى : « **يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم** »(٦٥) وقوله : « **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون** »(٦٦) فدل ضمير العقلاء على غرابة منطق النملة ، وسمو الحكمة فى قولها ، وعلى الحركة المتقنة الدقيقة ، المنبئة عن عظمة المسخر فى سباحة الشمس والقمر .

السجود الإرادى على سبيل التطامن والإجلال هو الذى يليق بغرابة الرؤيا كما أبرزه جمع السلامة ، وفيه من التشريف ما ليس فى جمع الكثرة ، لأن جمع الصحة على ما صرح به النجاة أشرف من جمع التكسير(٦٧) . فلما لم يكن مثل شبهة التسخير فى الجمادات قائما فى قوله تعالى : « **ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا** »(٦٨) تحقيقا لرؤياه ، جاء جمع التكسير بصيغة الكثرة على الأصل فيه .

ومما استعيرت فيه صيغة القلة للكثرة قوله تعالى : « **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم** »(٦٩) فقد استعيرت صيغة القلة « **أمواتا** »

---

(٦٥) النمل ١٨ .   (٦٦) يس ٤٠ .
(٦٧) أنظر شرح الكافية لرضى ٢/١٨١ .
(٦٨) يوسف ١٠٠ .   (٦٩) البقرة ٢٨ .

لمعنى الكثرة ، لأن المخاطبين من الكفـار كثير . مـع أن القرآن استخدم صيغة الكثرة«موتى»فى مواطن كثيرة،مما جعل بعض الباحثين المعاصرين يستدلون بذلك على أن صيغ الجمع لا تفاوت بينها فى الدلالة على القلة والكثرة.وليس هذا برأى ، فإن الموت هنا تعبير عن العدم قبل الوجود، والقرآن آثر صيغة القلة ، تحقيرا لمـا يمكن أن نسميه الوجود العدمى ، إذ لم يكونوا شيئا على الإطلاق قبل إحيائهم ، فاستعيرت القلة فى العدد لقلة الشأن وحقارة المخاطبين ، فى مقام يقتضى التهوين من شأن الكافرين والتعجب من كفرهم بالله واستبعادهم الإحياء بعـد الموت . مع أن الله أحياهم من عدم مطلق . وكل ما جاء بصيغة القلة فى غير هـذه الآية ، إنما جاء مقترنا بنقيضه وهو « الأحياء » فكان التناسب بينهما فى الصيغة والوزن داعيا من دواعى إيثـار صـيغة « الأموات » على الموتى طلبـا للمشاكله ، مع العلم بأن « الأحياء » يستعمل للقلة والكثرة معا ، لأن « الحى » ليس له سوى هذا الجمع ، إلى جانب أن « الأموات » فى مقارنتها بالأحياء يراد منها دائمـا التقليل والتحقير فى مقابل تعظيم الأحيـــاء ، كما تراه فى قـوله تعـالى : **« وما يستوى الأحيـاء ولا الأموات »**(٧٠) فهى مقارنة بين عظيم جليل وحقير مهين ، لـذا كانت الأحياء صـيغة كثرة بقرينة ارادة التعظيم فيها وبحكم أنهـا ليست لها صيغة أخرى للكثرة ، وكانت الأموات صيغة قلة متجوزا بها عن الكثرة للتحقير والتهـوين .

أما الموتى فقـد وردت فى القرآن سبع عشرة مرة ، وفى كل مرة تجد فيها ظلالا لمـا ذكره النحاة فى وزن « فَعْلى » جمعا . قال أبو على الفـارسى : (قال الخليل : إنمـا قالوا مرضى ، وهلكى ، ومـوتى ،

---

(٧٠) فاطر ٢٢ .

وجربى ، ونحو ذلك ، لأن هـذه الأشياء أمور ابتلوا بهـا وأدخلوا فيها وهم لهـا كارهون)(٧١) ٠

فمعنى الابتـلاء والقهر الذى تحمله هـذه الصيغة يجسده القرآن فى قوله تعالى : « **إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليـه يرجعون** »(٧٢) لأن الموتى هنـا مستعار لمـن فقـدوا الإدراك والإحساس من الأحياء ولم يميزوا بين الحق والباطل ، وهـو داء عضال لا يرجى منه البرء ، ثم عبر به عن طول زمن الموت ، والإغـراق فى الفناء ليدل على كمال قـدرة من يحيى عظاما رمت ، ولم يبـق منها تقادم العهـد أثرا ، ومن ثم آثر القرآن هـذه الصيغة فى معجزة عيسى عليه السلام : « **وأبرئ الأكمة والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله** »(٧٣) (فقـد أخرج محيى السنة عن ابن عباس أنه قال : أحيا عليـه السلام أربعة أنفس ، عازر وابن العجوز ، وابنة العاشر ، وسام بن نوح)(٧٤) والأربعة من أعداد القلة ، فالكثرة المقصودة هنا هى كثرة مرور الزمن على الميت وإغراقه فى صفة العدم ، وهو اقطع للشك فى صدق هـذه المعجزة ٠ يدل لذلك ما ذكر فى بعض الآثار (أن إحياءه ساما كان بعد قولهم لـه عليه السلام : إنك تحيى من كان قريب العهد من الموت ، ولعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة ، فأحى لنا سام بن نوح فأحيـاه ، وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنة)(٧٥) ٠

فكانت دلالة الصيغة على الابتـلاء والقهر واستعارة الكثرة فيها للإغراق فى صفة الموت والإيمان إلى تقادم زمن الميت هو سر إيثار هذه

---

(٧١) التكملة ٤٧٤ ٠ (٧٢) الأنعام ٣٦ ٠
(٧٣) آل عمران ٤٩ ٠ (٧٤) روح المعانى ١٦٩/٣ ٠
(٧٥) روح المعانى ١٧١/٣ ٠

الصيغة ، وما كان ذلك ليصح فى الآية التى اتخذها بعض الكتاب دليـلا على عدم التفاوت بين صيغ الجموع فى القلة والكثرة وهى قوله تعالى : **« وكنتم أمواتا فأحياكم »** .

ومن طريف استعارة القلة للدلالة على الكثرة ما أشار إليه الشهاب فى استعارة الصلوات وهى من جموع القلة للدلالة على كثرة ما جـلل الله به الصابرين من مغفرته ورضوانه فى قوله تعالى : **« أولئـك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »**(٧٦) . قال البيضاوى : (وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها)(٧٧) فعلق الشهاب بقـوله : (وإن كان جمع قلة فإن القلة تستعار للكثرة ، ونكتة التعبير به أنهـا مع كثرتها قليلة فى جنب عظمته)(٧٨) ولا مزيد على ما قاله العلامة .

* * *

---

(٧٦) البقرة ١٥٧ . (٧٧) تفسير البيضاوى ٢/٣٥٩ .
(٧٨) حاشية الشهاب ٢/٢٥٩ .

استعارة الكثرة للقلة

قليلا ما تستعار صيغة الكثرة للقلة فى القرآن الكريم ، على عكس استعارة صيغة القلة للكثرة كما رأينا فى الصفحات السابقة . ولعل اشهر ما تردد على السنة الباحثين فى صيغ الجموع مثالا لوضع الكثرة موضع قلة ، قوله تعالى : « **والمطلقات يتربصن بانفسن ثلاثة قروء** »(٧٩) فالقروء جمع كثرة ، ولها جمع قلة هو « الاقراء » وقد استخدمه الرسول عليه السلام فى قوله : « **دعى الصلاة أيام اقرائك** » . لقد اتخذ بعض الباحثين هذا المثال دليلا على وهن القول بصيغ للقلة ، واخرى للكثرة . فهذا القرآن يستعمل صيغة الكثرة مرادا بها أدنى العدد . يظاهرهم ما قاله المفسرون من تعاور صيغ الجموع كثرة وقلة مواقعها على سبيل الاتساع فحسب ، لان مثل هذا التعاور ما لم يكن وراءه سر يرجح احداها على الاخرى فى موقعها يصبح القول باختلاف دلالات الصيغ كثرة وقلة لا جدوى منه وحسب هؤلاء الباحثين حجة أن يقول الزمخشرى تعليلا لوقوع القروء موقع الأقراء هنا : (فإن قلت : لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التى هى الأقراء ؟ قلت . يتسعون فى ذلك ، فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما فى الجمعية)(٨٠) فإذا كان كل واحد من الجمعين يصح إيقاعه موقع الآخر ، دون غرض يؤديه هذا التبادل فما معنى أن تكون لكل صيغة دلالة خاصة ؟ .

وأحسب أن الزمخشرى لم يكن قانعا بما قال ، وحقه أن لا يقنع وهو الذواقة المرهف الحس ، الذى طالما أمتعنا بلمحاته البيانية فى الفروق بين الصيغ فى النظم الحكيم ، لذا عاد فقال : (ولعل القروء

---

(٧٩) البقرة ٢٢٨ . (٨٠) الكشاف ٣٦٦/١ .

كانت أكثر استعمالا فى جمع قرء من الأقراء ، فأوثر عليه تنزيلا لقليل الاستعمال منزلة المهمل ، فيكون مثل قولهم : ثلاثة شسوع)(٨١) ٠

فلو تاكدت قلة استعمال الأقراء لكان ذلك وجها من وجوه بلاغة النظم فى ترك القليل المهمل ، لكن هذا مما لا نقنع به ، خاصة أن الرسول عليه السلام استعمله كما رأينا وهو غير عزيز فى لسان القول ٠ لذا عدل عنه البيضاوى وحاول التعليل له بقوله : (ولعل الحكم لما عم المطلقات ذوات الأقراء تضمن معنى الكثرة ، فحسن بناؤها)(٨٢) وعلق عليه الشهاب بقوله : (وكأن المصنف رحمه الله لم يسلم قلة استعماله ، لأن إثباتها مشكل)(٨٣) فكما لم يسلم البيضاوى بقلة الاستعمال ، فإننا لا نسلم له بما ذكره فى استحسان الكثرة هنا ، لأن هذا العدد من الأقراء خاص بكل مطلقة على حدة ، فتعليل كثرته بكثرة المطلقات مما يستبعد أن يكون سر الخروج عن الظاهر ٠

وأبعد منه قول ابن عاشور : (فأوثر فى الآية الأخف مع أمن اللبس بوجود صريح العدد)(٨٤) إذ من المعروف أن صيغة افعال أخف صيغ الجموع ، وأكثرها ورودا فى الذكر الحكيم ٠ يقول المرحوم عبد الخالق عضيمة : (أكثر صيغ جمع التكسير وقوعا فى القرآن هى صيغة « افعال » فليس هناك صيغة أخرى تشاركها فى هذه الكثرة أو تقارب منها)(٨٥) ٠

وخير ما قيل فى سر استعارة صيغة الكثرة هنا ما جاء فى كتاب البلاغة القرآنية : (ونرى أنجمع الكثرة فى « قروء » يشير إلى وجوب

---

(٨١) الكشاف ٣٦٦/١ ٠ (٨٢) تفسير البيضاوى ٣١٢/٢ ٠
(٨٣) حاشية الشهاب ٣١٢/٢ ٠ (٨٤) التحرير والتنوير ٣٩٠/٢ ٠
(٨٥) دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثانى ج ٤ ، ص ٣٥٥ ٠

الاحتياط فى استيفاء مدة العدة ، حتى لا تتعجل المرأة المطلقة عدتها)(٨٦) .

تفسير ذلك أن التكثير أريد به كبح جماح النسوة الطامحات إلى الزواج ، القلقات على مستقبلهن ، والتأكيد على وجوب إتمام العده قبل أن يتلقين رغبات الرجال ، ويتواعدن معهم على الزواج . فاستحالت القلة كثرة ، إشعارا بوجوب الانتظار إلى تمام العدة ، والتعبير « يتربصن بأنفسهن » بما فيه من حشد قوى الإيمان فى المرأة لتتغلب على ضعف النفس واستهوائها دليل على ذلك .

وأضيف إلى هذه النكتة أن التكثير بما يعنيه من تطويل المدة قد روعى فيه أحوال أنفس المخاطبات من المطلقات الراغبات فى الزواج ، المتعجلات نهاية عدتهن ، فإن قليل الزمن كثير فى عين المترقب المتلهف، حتى لكأن الثلاث هذه قد تضاعفت ، على ما جرت به طبائع النفوس من الإحساس ببطء ساعات الانتظار وثقل خطوات الزمن .

مشقة الانتظار ، واستعجال الأيام والشهور هو الذى تهدف إليه صيغة الكثرة بما تدل عليه من استكثار المدة ، والإحساس بثقلها فى هذه الآية .

ولعلها النكتة نفسها فى قوله تعالى على لسان شعيب خطابا لموسى عليه السلام : « **قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين** »(٨٧) فقد ميز العدد « ثماني » بجمع الكثرة « حجج » مراعاة لحال المخاطب وإحساسه

---

(٨٦) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ٢٧٨ .
(٨٧) القصص ٢٧ .

بطول المدة ، ومشقة العمل اجيرا كل هذه السنوات ، وحبسه عن الرجوع إلى وطنه ومواصلة مهمة رسالته . يتجاوب هذا الجمع الدال على الكثرة مع الشرط المعبر عنه بعلى ، وما توحى به من تحمل المشروط عليه ، ضرورة أن على توحى بالتكلف والمشقة ، ولذا فهى تقابل اللام الموحية بالنفع كما تراه فى قوله تعالى : « **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** »(٨٨) هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن الكثرة لوح بها شعيب إلى وجوب إتمام المدة ، والوفاء بها كاملة غير منقوصة ، إن لم يزد عليها عامين آخرين . وكان شعيبا عليه السلام قد أحس بمشقة هذا الشرط وشدة وطأته على موسى عليه السلام فحاول تخفيفه بما يطمئنه على حسن المعاملة والرفق به « **وما اريد ان اشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين** » .

هذا الغرض من تكثير الزمن والإحساس بطوله تجده فى مواطن المشقة والعذاب كما فى قوله تعالى تصويرا لشدة الهلاك وطول زمن العذاب الذى أنزله على قوم هود : « **وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية** »(٨٩) فقد ميز « السبع » وهو من قليل العدد بجمع الكثرة « ليال » تكثيرا للعذاب وتطويلا لمدته ، مما يوحى بشدة غضب الله وعظيم انتقامه ، ولذا فإنه لم يكتف بذكر الليالى وحدها ، ولا بعدد الأيام وحدها ، بل جمع بين عدد الليالى وعدد الأيام ، وهو ما لم تجده فى تصوير الله لهذا العذاب فى المواطن الأخرى التى تحدث فيها عن إهلاك عاد ، من مثل قوله تعالى :

---

(٨٨) البقرة ٢٨٦ . (٨٩) الحاقة ٦ .

« **فارسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات** »(٩٠) حيث اكتفى بالأيام وقللها بوصف القلة « نحسات » فى حين جمع فى سورة الحاقة بين الليالى والأيام ووصف الأيام بجمع الكثرة « حسوما » فكانت صيغ الكثرة مصورة لقرع العذاب ومرددة أصداء ما ينتظرهم من عذاب القارعة الذى جاء به القرآن فى قوله : « **كذبت ثمود وعاد بالقارعة** » نذيرا لعذاب أشد ينتظرهم يوم القيامة .

إنك حين تقارن بين الموضعين تجد آية الحاقة قد حفلت بمبالغات عدة كان جمع الكثرة واحدا منها ، فالريح الصرصر موصوفة فيها بالعاتية ، وهى مسخرة من المنتقم الجبار « سخرها عليهم » وفيها جمع بين عدد الليالى والأيام ، وفيها جمعان للكثرة هما « ليال » و « حسوما » فى مقابلة جمع القلة « نحسات » كل ذلك يتعاون فى إبراز شدة العذاب وطول نزوله بهم .

ألا ترى كيف آثر القرآن جمع الكثرة « شهداء » فى قوله تعالى : « **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة** »(٩١) دون جمع القلة « أشهاد » وهو مما استعمله القرآن فى موضع آخر ، ذلك لأن مثل هذا العدد وإن كان فى حقيقته قليلا ، فإن وجود أربعة يشهدون واقعة الزنا بالوصف الذى حدده الفقهاء ، من رؤيتهم التقاء الختانين كما يرون المرود فى المكحلة ، هو مما يستكثر ، لندرته فى دنيا الناس ، لذلك لم يثبت الزنا بشهادة الشهود فى عصر المبعث ، فهذا مما لا يتأتى وجوده إلا إذا واقع الزانى خليلته فى قارعة الطريق ولم يفزعه أحد ، ومن ثم جاء بصيغة الكثرة ، موحية بأن هذا العدد من الشهود ، بمثل هذا الذى يشهدون به كثير يندر أن يتواطأ

---

(٩٠) فصلت ١٦ ؛ (٩١) النور ٤ .

عليه هذا الجمع ، وذلك من الله صيانة للأعراض من التطاول عليها بغير يقين ، والأنفس من إزهاقها بغر حجة بينة .

ومما وضعت فيه صيغة الكثرة موضع القلة ، قوله تعالى : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله ضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** »(٩٢) فقد ميز السبع بجمع الكثرة « سنابل » دون جمع القلة « سنبلات » خلافا لما يقضى به الظاهر من تمييزه بالقلة كما فى قوله تعالى على لسان ملك مصر يقص رؤياه : « **وقال الملك إنى ارى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** »(٩٣) حيث جاء تمييز العدد بجمع القلة على الأصل . فماذا قال المفسرون فى بيان سر المخالفة بالكثرة فى آية البقرة ؟

يقول الزمخشرى : (فإن قلت : هلا قيل : سبع سنبلات على حقه من التمييز بجمع القلة ، كما قال : « **وسبع سنبلات خضر** » ؟ قلت : هذا لما قدمت عند قوله : « **ثلاثة قروء** » من وقوع أمثلة الجمع متعاورة مواقعها)(٩٤) .

وقد أبنا عن ضعف هذا الرأى عند الحديث عن القروء ، بما يغنى عن تكراره هنا ، ومثله فى الضعف ما رد به أبو حيان على الزمخشرى حين قال : (فجعل هذا من باب الاتساع ووقوع أحد الجمعين موقع الآخر على سبيل المجاز ، إذ كان حقه أن يميز بأقل الجمع ، لأن السبع من أقل العدد ، وهذا الذى قال به الزمخشرى ليس على إطلاقه ، فنقول : جمع السلامة بالواو والنون ، وبالألف والتاء لا يميز به من ثلاثة إلى عشرة إلا إذا لم يكن لذلك المفرد جمع غير هذا الجمع ،

---

(٩٢) البقرة ٢٦١ . (٩٣) يوسف ٤٣ .
(٩٤) الكشاف ١/٣٩٣ .

أو جاور ما اهمل فيه غير هذا الجمع ، وإن كان المجاور لم يهمل فيه هذا الجمع ، فمثال الاول قوله تعالى : « سبع سنوات » فلم يجمع « سماء » هذه المظلة سوى هذا الجمع ، واما قوله « فوق سبع سمائيا » فنصوا على شذوذه ، وقوله تعالى : « سبع بقرات » و « تسع آيات » « وخمس صلوات » (٩٥) لأن البقرة والآية والصلاة ليس لها سوى هذا الجمع ولم يجمع على غيره ، ومثال الثانى : قوله تعالى : « وسبع سنبلات خضر » لما عطف على سبع بقرات وجاوره حسن فيه جمعه بالألف والتاء ، ولو كان لم يعطف ولم يجاور لكان سبع سنابل كما في هذه الآية)(٩٦) .

فدعوى أبى حيان أنه لايصح التمييز بجمع السلامة إلا إذا جاور ما اهمل فيه جمع التكسير منقوض بالآية التى ذكرها ، وهى قوله تعالى : « فى تسع آيات إلى فرعون وقومه »(٩٧) فالآيات جمعت جمع السلامة ، وليست مجاورة لما أهمل فيه جمع التكسير ، وقوله بان الآيات لم تجمع سوى هذا الجمع غير صحيح فقد جاء فى لسان العرب والقاموس المحيط(٩٨) أن آية تجمع على آى وآيات . وفى قوله تعالى : « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث »(٩٩) وصفت الظلمات بالعدد « ثلاث » وللظلمات جمع كثرة هي : الظلم . وجاء تمييز الثلاث بالسلامة في باب رمي الجمار فيما رواه البخاري (عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يرمى الجمرة الدنيا بسبع حصيات)(١٠٠) فميز السبع بجمع المؤنث « حصيات » مع أن الحصاة

---

(٩٥) « خمس صلوات » ليست من نصوص القرآن .
(٩٦) البحر المحيط ٣٠٤/٢ . (٩٧) النمل ١٢ .
(٩٨) انظر كلا من القاموس المحيط ولسان العرب مادة أي .
(٩٩) الزمر ٦ .
(١٠٠) رواه البخاري في باب رمي الجمار .

تجمع على حَصًى وحِصِىّ ومنه قول الأعشى :

ولسـت بالأكثر منهـم حصـى
وإنمـا العـزة للكـاثر

وقول أبى حيان : إن تمييز السبع بجمع السلامة فى قوله « وسبع سنبلات خضر » عدل إليه للتناسب مع البقرات أمر غريب ، لأن للبقرات جموع تكسير ذكرها أصحاب المعاجم هى : بقـر ، وابقر وبُقُر وبُقّار وبوافر(١٠١) فلماذا عدل عنها إلى جمع السلامة ؟

فـلا مناص من التسليم بأن تمييز اقـل العـدد بجمـع الـكثرة « سنابل » فى آية البقرة مما استعيرت فيه صيغة الكثرة لغرض بلاغى . وأراه ـ والله أعلم ـ فى القصـد إلى كثرة ما يضاعفه الله تعالى من أجر المنفقين الذين أخلصوا أعمالهم لله وحده ، والإشارة إلى أن هذا العدد ليس مقصودا به حقيقته ، وإنما هو رمز للكثرة ، فلا يتصور أحـد أن فضـل الله تعالى فى جزاء المنفقين يقف عند حـد أو تحصره الأرقام والأعداد ، وهذا ما نبه إليه تذييل الآية « **والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** » فالمضاعفة ليست محـدودة ، والله الواسع العليم لا تحـد سعة عطائه أعـداد ولا تحصره الحسابات . لذلك قال صاحب المنار : (فالتمثيل للتكثير لا للحصر ، ولذلك قال : « **والله يضاعف لمن يشاء** » فيزيده على ذلك زيادة لا تقـدر ولا تحصر ، فذلك العـدد لا مفهـوم لـه)(١٠٢) .

أما آية يوسف فقد كان فيها العدد مقصودا ، وطلب الملك تأويله على هـذا الذى رآه نصا ، فكان لابد من تمييزه بالسلامة على الأصـل

---

(١٠١) القاموس المحيط مادة بقر .
(١٠٢) تفسير المنار ٣/٥١ .

من تمييز أقل العدد بصيغة القلة ، ولذلك جاء تفسير الرؤيا على النحو الذى يقصد فيه إلى الأعـداد نصا . فكان كل فى موضعه هـو الأنسب لمقامه . وهـذا ما أحكم القول فيه ابن الزبير الغرناطى ، حيث قال : (إن آية البقرة مبنية على ما أعـد الله تعـالى للمنفـق فى سبيله ، وما يضاعف له من أجر إنفاقه ، وأن ذلك ينتهى إلى سبعمائة ضعف ، « والله يضاعف لمن يشاء » قد يفهم الزيادة على ما نص عليه من العدد ، كما أشار إليه آيات وأحاديث ، فبناء هـذه الآية على التكثير ، فناسب ذلك ورود المفسَّر على ما هو من أبنية الجموع للتكثير ، لحظا للكنـاية المقصودة ، ولم يكن ما وضعه للقليل فى الغالب ليناسب ما تحفظ فيـه الغـاية من التكثير . أما آية يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عـن رؤياه سبع سنبلات ، فلا طريق هنا للحظ كثرة ولا قـلة لأنه إخبـار برؤيا ، فوجهه الإتيان من أبنية الجموع بما يناسب المرئى وهو قليل ؛ لأن ما دون العشرة قليل)(١٠٣) .

وانظر كيف جسد جمع الكثرة ما أفاء الله تعالى على يوسـف من الملك ومظاهر التمكن فى الأرض فى قوله تعالى : « **وقال لفتيانه اجعلوا بضـاعتهم فى رحـالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم** »(١٠٤) إن كثرة الغلمـان بين يدى يوسف كما عبر عنـه جمع الكثرة « فتيان » هو الذى يجسد عظمة الملك وهو السر الذى نرجح به هـذه القراءة على قراءة أغلب القراء السبعة « فتية » وليس لموافقته جمع الكثرة « رحال » فحسب،على ما قال به البيضاوى باعتبار أنه وكل بكل رحل غلاما يعبىء فيه البضاعة(١٠٥) ، إذ أن مثل هـذا القول لا دليـل عليه ، ولا مانع أن يقوم عدد قليل من الفتيان بتعبئة عدد أكثر من الرحال بل إن هذا

---

(١٠٣) ملاك التأويل ١٣١/١ . (١٠٤) يوسف ٦٢ .
(١٠٥) أنظر البيضاوى ١٨٩/٥ .

هو الأشبه . قال القرطبى : (فإن فتية أشبه من فتيان ، لأن فتية عند العرب لأقل العدد ، والقليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه)(١٠٦) . فهو فيما أرى استعيرت فيه الكثرة لابراز عظمة الملك وسعة السلطان فى مواجهة من ظنوا أنهم ألقوا به فى عالم النسيان .

ألا ترى كيف حافظ القرآن على صيغة القلة « فتية » فى وصف أهل الكهف لما كانت القرائن قاطعة بأنهم لم يتجاوزوا أقل العدد ، وليس ثمة ما يقتضى مخالفة الأصل ، وذلك فى قوله تعالى : **« إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة »**(١٠٧) وقوله : **« إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى »**(١٠٨) ولم يقرأ فى الموضعين بصيغة الكثرة ، ليتلاءم مع نهاية ما وصل إليه الاختلاف فى عددهم ، على ما جاء فى قوله تعالى : **« سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم »**(١٠٩) فكان وقوف العادين عند الثمانية ، مع صيغة القلة « فتية » بدلالتها على أنهم دون العشرة قرائن على أنهم لم يتجاوزوا هذا العدد .

فلما أراد القرآن المبالغة فى وصفهم بشدة الاستغراق فى النوم استعار جمع الكثرة ، لاتكثيرا للعدد ولكن تكثيرا للوصف ، وذلك فى قوله تعالى : **« وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال »** فقد أراكهم الله فى حركتهم قليلى العدد « أيقاظا » وكثرهم فى نومهم « رقود » وكان يمكن أن تستبدل صيغة الكثرة رقود بجمع السلامة « راقدون » . ولكن القرآن قصد إلى صيغة الكثرة للمبالغة فى وصفهم بالرقاد ، لأنه هو الآية المعجزة فى قصتهم ، والنوم هو الحقيقة

---

(١٠٦) تفسير القرطبى ٣٤٥٢/٥ .
(١٠٧) الكهف ١٠ . (١٠٨) الكهف ١٣ .
(١٠٩) الكهف ٢٢ .

التى قررها النظم من قبل فى قوله تعالى : **«فضربنا على آذانهم»**(١١٠) فبالغ فى شدة النوم باستعارة الضرب له . أما اليقظة فهى حسبان وتخيل يقع للرائى من انفتاح عيونهم أو من تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال . فكان فى استعارة جمع الكثرة « رقود » إيحاء بشدة نومهم الذى لا يقطع استغراقه حركة تقلبهم ، لتتجاوب مع تلك الاستعارة فى قوله : « **فضربنا على آذانهم** » ، لأن المراد كما قال الألوسى : (أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات)(١١١) وبذلك تلتقى صيغة الكثرة بما فيها من المبالغة مع القول بأن الرقود هنا مصدر عبر به عن اسم الفاعل ، لأنه حينئذ يكون كقولهم : رجل عدل مبالغة فى عدله ، فهذا اللفظ « رقود » سواء جعلته مصدرا أم جمع كثرة فإنه فى الحالتين تجوز فى الصيغة لغرض واحد هو المبالغة .

***

---

(١١٠) الكهف ١١ .   (١١١) روح المعانى ٢١٢/١٥ .

تعاور أبنية الكثرة

لفت فقهاء العربية النظر إلى فروق دقيقة فى الاستعمال بين مبانى الجموع المتحدة فى دلالتها على الكثرة ، مما يشهد بدقة الحس العربى ، وصفاء طبع الناطقين بلغة القرآن · من ذلك ما قاله أبو الفتح ابن جنى : (أكثر اللغة أن تستعمل « العبيد » للناس ، والعباد لله ، قال تعالى : **« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان »** وقال تعالى : **« يا عباد فاتقون »** وهو كثير · وقال : **« وما ربك بظلام للعبيد »** ومن أبيات الكتاب :

أتوعدنى بقومك يا ابن حجل
أشابات يخالون العبادا
بما جمعت من حضن وعمرو
وما حضن وعمرو والجيادا

أى يخالون عبيدا ، أى مماليك)(١١٢) ·

بالتوقف أمام هذا النص تلوح للمتأمل دلالتان ، أولاهما صريحة والثانية استنتاجية مستنبطة من اختيار الصيغة للمعنى الذى ترمز إليه ·

الدلالة الأولى : أن مبانى الجموع المتساوية فى دلالتها على الكثرة بقدر ما تضيفه إلى هذه اللغة من ثراء بتكثير مفرداتها ، فإن العرب لا تطلق هذه الألفاظ إطلاق المترادفات المتحدة في معانيها وإرشاداتها ، وإنما تقيدها بمواطن استعمال تضفى عليها خصائص دلالية ، تجعل من جفاء الطبع ونبوة الحس استعمال صيغة فى موضع الأخرى ·

الدلالة الثانية : هذا الإحساس الرفيع والذوق العالى فى اختيار اللفظ المساوق بحروفه ، وحركاته ، وأصواته للمعنى المرموز إليه ، فلم يكن اختيار لفظ « العباد » لله و « العبيد » للناس جاء هكذا مصادفة ·

---

(١١٢) المحتسب ٢/١٥٤ ·

وإنمـا وراءه حس مرهـف بجرس اللفظـة ودقـة اختيـارها . هـذا ما أحسسته . وتفصيله : أن الانتقال فى « عباد » من الكسرة إلى الفتحة ثم إلى الاستطالة بالألف ، الرامزة إلى الرفعة وانتصاب القامة ، يشير إلى أن الانتساب إلى الله بعبادته ينقل الإنسان من وهدة الرذيلة والخنوع للند من البشر إلى سمو النفس والوجه فى حضرة المعبود ، والانتقال فى « عبيد » من الفتحة إلى الكسرة فالاستطالة بالياء ، يوحى بانكسار النفس ، واستغراقها فى الذل ، ومهانتها باستعباد الناس لها .

إذا كان هذا هو حس العربى وسمو فطرته فى التمييز بين الصيغ فمـا كان للقرآن ــ وهو الذى أيقظ فى النفس إحساسها بجمال الكلمـة وأثرها فى التخلق بجميل الفعال ــ أن يهمل هـذا الحس الدقيـق فى التمييز بين دلالات الصيغ ، إلى درجـة أن العرب عزفوا عن إطـلاق لفظة « العبيد » على نصارى الحيرة حـين دخلـوا فى إمرة كسرى ، ودانوا لـه بالطاعة ، لأنهم كانوا من أصول عربية شامخة ، وهم عرب شم الأنوف فأطلقوا عليهم « العباد » لا العبيد . هـذه الحساسية المفرطة فى التعامل مع ألفاظ اللغة وإشراقات صيغها كان للقرآن فيها ما هـو ناطـق بإعجاز نظمـه . قال ابن عطية متحـدثا عن استعمال القرآن للفظتى العباد والعبيد : (والذى استقرأت فى لفظـة العباد أنه جمع عبد متى سيقت اللفظة فى مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة ، دون أن يقترن بها معنى التحقير وتصغير الشأن . فانظر إلى قوله تعالى : **« والله رءوف بالعباد »**(١١٣) و **« عباد مكرمون »**(١١٣) و **« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »**(١١٥) وقول عيسى فى معنى الشفاعة والتعريض لرحمة الله **«إن تعذبهم فإنهم عبادك»**(١١٦)

---

(١١٣) البقرة ٢٠٧ .
(١١٤) الأنبياء ٢٦ .
(١١٥) الزمر ٥٣ .
(١١٦) المـائدة ١١٨ .

فنوه بهم . وقال بعض اللغويين : إن نصارى الحيرة - وهم عرب - لما أطاعوا كسرى ودخلوا تحت أمره ، سمتهم العرب العباد ، فلم تنته بهم إلى اسم العبيد . وقال قوم : بل هم قوم من العرب من قبائل شتى ، اجتمعوا وانتصروا وسموا أنفسهم العباد ، كأنه انتساب إلى عبادة الله ، وأما العبيد فيستعمل فى التحقير . ومنه قول امرىء القيس :

قولا لدودان عبيد العصا

ما غركم بالأسد الباسل

ومنه قول حمزة بن عبد المطلب : وهل أنتم إلا عبيد لأبى ، ومنه قوله تعالى : « **وما ربك بظلام للبيد** »(١١٧) لأنه مكان تشقيق وإعلام بقلة انتصارهم ومقدرتهم ، وأنه تعالى ليس بظلام مع ذلك . ولما كانت لفظة العباد تقتضى الطاعة لم تقع هنا ، ولذلك أنس بها فى قوله : « **قل يا عبادى الذين أسرفوا** » . فهذا النوع من النظر يسلك بك سبيل العجائب فى ميز فصاحة القرآن العزيز على الطريقة العربية السليمة)(١١٨) .

لكن هذا النظر الدقيق لم يقنع أبا حيان ، وهو يرى أن اللفظتين فى دلالتهما سواء ، وأن لفظ العباد كثر فى القرآن لكونه هو الأقيس . قال أبو حيان : (وإنما كثر استعمال عباد دون عبيد ، لأن فعالا فى جمع فعل غير اليائى العين قياس مطرد ، وجمع فعل على فعيل لا يطرد . قال سيبويه : وربما جاء فعيلا وهو قليل ، نحو : الكليب والعبيد . انتهى . فلما كان فعال هو المقيس فى جمع عبد جاء عباد كثيرا ، وأما « **وما ربك بظلام للعبيد** » فحسن مجيئه هنا وإن لم يكن مقيسا أنه جاء لتوخى الفواصل . ألا ترى أن قبله : « **أولئك ينادون من**

(١١٧) فصلت ٤٦ .

(١١٨) المحرر الوجيز ٤٨١/٢ .

مكان بعيد » وبعده « **قالوا آذناك ما منا من شهيد** » فمحسن مجيئه بلفظ « العبيد » مواخاة هاتين الفاصلين . ونظير هذا قوله في سورة ق : « **وما أنا بظلام للعبيد** »(١١٩) لأن قبله« **قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليك بالوعيد** »(١٢٠) وبعده « **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** »(١٢١) .

وأما مدلوله فمدلول عباد سواء)(١٢٢) .

ولا أجدنى إلا مناصرا لابن عطية ، مؤيدا صحة استقرائه لمواضع الجمعين فى الكتاب المجيد . وتفصيل ذلك : أن لفظ « العباد » ورد فى القرآن سبعا وتسعين مرة ، ومعظمها صريح فى دلالته على الطاعة وإخلاص العبودية لله ، من مثل قوله : « **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا** »(١٢٣) وقوله : «**قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم**»(١٢٤) وقوله : « **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا** »(١٢٥) وقوله : « **وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** »(١٢٦) وقوله : « **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** »(١٢٧) .

وورد بعضها دالا على الأصل من العلاقة بين المخلوق والخالق ، ووجوب توجه الإنسان بالعبادة إلى خالقه ، إذ العبادة هى الغرض الأساسى من الخلق ، كما ينطق به قوله تعالى : « **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** »(١٢٨) تجد ذلك فى مقامات التأكيد على ملكية الخالق لما خلق ، وتفرده بالتصرف فى ملكه ، كما فى قوله تعالى :

---

(١١٩) ق ٢٩ .
(١٢٠) ق ٢٨ .
(١٢١) ق ٣٠ .
(١٢٢) البحر المحيط ٥٠٥/٢ .
(١٢٣) الزخرف ١٩ .
(١٢٤) الزمر ١٠ .
(١٢٥) الفرقان ٦٣ .
(١٢٦) النمل ١٩ .
(١٢٧) النمل ٥٩ .
(١٢٨) الذاريات ٥٦ .

« وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير »(١٢٩) وقوله : « ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر »(١٣٠) .

وورد قليل منها فيما ظاهره التمرد والعصيان ، وهو المشكل الذى يحتاج إلى بيان .. من ذلك قوله تعالى : « **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك أولياء** »(١٣١) فليس ثمة شك فى أن العباد المنسوبين إلى الله هم من أهل المعصى الذين عبدوا غير الله . وليس فى نسبتهم إليه ترفيع ولا امتداح بالطاعة . لكنك تجد عند التأمل وراء وصفهم بالعباد سرا من أسرار الإعجاز ، فهذا الحوار الدائر بين الله وخلقه من المعبودين وعابديهم إنما هو فى يوم المحشر ، وقد تقطعت فيه الأسباب بين المخلوقين ، وخلصت فيه العبودية لله وحده ، فهو يخاطبهم بما سلم الجميع من أنه المالك للرقاب والقاهر فوق العباد . « **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** » .

ومن حق المتتبع لمواضع « العباد » فى الذكر الحكيم أن يعترض على ما رجحناه من قول إبن عطية وما ذهب إليه ابن جنى من أن العباد لله ، والعبيد للناس بقوله تعالى : « **وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم** »(١٣٢) فإن عطف الإمام على العباد دليل قاطع على أن المراد بالعباد هم الرقيق ، وهم منسوبون إلى الناس بإضافتهم إلى ضمير المخاطبين ، فكان حقه على ما قدمنا أن يكون العبيد لا العباد ، فإذا تأملت وجدت النظم الكريم قد عمد إلى هذه الصيغة تكريما للصالحين من الرقيق ،واستنفارا لمشاعر الأخوة

---

(١٢٩) الأنعام ١٨ .
(١٣٠) القصص ٨٢ .
(١٣١) الفرقان ١٧ .
(١٣٢) النور ٣٢ .

فى الدين عند مالكيهم لإحسان معاملتهم والرفق بهم ، فقد رفع الله بإسلامهم وصلاحهم منزلتهم ، وعتقوا بعبادتهم لربهم رقابهم من عبودية البشر ، ففى هذا التعبير من أدب الإسلام ما يجب على المالكين أن يتمثلوه فلا ينعتوا إخوانهم ومواليهم بالوصف الذى يجرح مشاعرهم ، وهو الذى دعا الرسول عليه السلام إلى نهى المؤمنين أن يقولوا : عبدى وأمتى ، مما يترك ظلالا كريهة فى نفوس المؤمنين من الأرقاء ، وطلب استبدالهما بفتاى وفتاتى ، كما قال تعالى على لسان موسى : **« وإذ قال موسى لفتاه »**(١٣٣) .

أما لفظ العبيد فقد جاء فى القرآن خمس مرات فحسب ، واللافت للنظر أنه فى المرات الخمس كلها وقع تذييلا بنفى وقوع الظلم من الله على عبيده ، وفى جميعها استخدمت صيغة المبالغة « ظلام » وهى : قوله تعالى : **« ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد »** التى تكررت بألفاظها فى سورتى آل عمران(١٣٤) ، والأنفال(١٣٥) ، وقوله : **« ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد »**(١٣٦) **« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »**(١٣٧) **« ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد »**(١٣٨) .

وكل هذه المواضع يصدق عليها ما قاله ابن عطية من أنها (تشقيق وإعلام بقلة انتصارهم ومقدرتهم وأنه تعالى ليس بظلام لهم مع ذلك) حيث جاءت جميعها تذييلا لفصل الله تعالى فى قضية الكافرين يوم القيامة ، والحكم عليهم بما جنت أيديهم كفرا وعصيانا وظلما للنفس والعباد ، وهم فى هذا الموقف الذليل ضعفاء لا ناصر لهم ،

---

(١٣٣) الكهف ٦٠ .
(١٣٤) آل عمران ١٨٢ .
(١٣٥) الأنفال ٥١ .
(١٣٦) الحج ١٠ .
(١٣٧) فصلت ٤٦ .
(١٣٨) ق ٢٩ .

مجردون من كل حول وقوة ، فكان لفظ « العبيد » هو الذى يجسد وحده ذلتهم وضعفهم ، وعجزهم عن فك رقابهم من عذاب الله ، وهو فى نفس الوقت يجسد عدل الله تعالى الذى لا يتناهى حين ينصفهم مع شدة غضبه عليهم ولا يقابل ظلمهم بظلم مثله .

وإذا كان أبو حيان قد علل استعمال هذه اللفظة بمناسبة الفواصل ، فإن آية الأنفال لا يظهر فيها مراعاة التناسب ، لأن الفاصلة قبلها « الحريق » وبعدها « العقاب » فلم تتفق حروف الروى بين أية فاصلتين من الفواصل الثلاث ، وإذا كان المراد التوافق فى حرف المد قبل حرف الروى باعتبار أن القرآن كثيرا ما تبنى فواصله على التوافق فيه ، فإن الصيغتين « عباد » و « عبيد » تتساويان فى إيجاد هذا التوافق ، لأن « العباد » تتناسب مع الفاصلة التى بعدها ، وهى « العقاب » فى بنائهما على ألف المد ، كما تتناسب « العبيد » مع الفاصلة قبلها « الحريق » فى بنائهما على الياء ، بل إن العباد أكثر تناسبا مع « العقاب » لقرب مخرج الباء والدال ، وتقارب الحروف فى الفواصل أولى من تباعدها . ثم إن قوله : **« والله رءوف بالعباد »**(١٣٩) فى سورة آل عمران وقعت بين فاصلتين بنيتا على ياء المد ، وهما « قدير » و « رحيم » فكان الأنسب لتوافق الفواصل هو صيغة العبيد لا العباد . مما يجعلنا نجزم بأن القرآن أطرد فيه هذا الإلف العربى فى وضع الصيغة موضعها الذى تستجيب فيه لهذا الذوق الرفيع فى لغة العرب ثم أحكمه القرآن بما يتناسب وإعجاز نظمه الحكيم .

ومما اختلفت صيغ الجمع فيه ، وحدد الاستعمال موقع كل صيغة بما يكسبها خصائص دلالية متمايزة : الإخوان والإخوة ، وكلاهما جمع أخ ، لكن غلب استعمال الإخوة فى النسب ، والإخوان فى الصداقة ،

---

(١٣٩) آل عمران ٣٠ .

وهذا من دقيق الفوارق في استعمالات صيغ الجموع التي اتحدث مفرداتها صيغة ومعنى ، فقد جاء في لسان العرب : (وأكثر ما يستعمل الإخوة في الأصدقاء ، والإخوة في الولادة)(١٤٠) وقال الشهاب عند قوله تعالى : ((**فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**))(١٤١) (الأخ إذا جمع على إخوان كان بمعنى المحب الصديق ، وقد يكون جمعا لأخي النسب ... قال في الإتقان : الأخ في النسب جمعه إخوة ، وفي الصداقة إخوان ، قاله ابن فارس ، وخالفه غيره)(١٤٢) .

ويقول ابن عاشور : (وقيل : يختص الإخوان بالأخ المجازي ، والإخوة بالأخ الحقيقي ، وليس بصحيح . قال تعالى : ((**أو بيوت إخوانكم**)) وقال : ((**إنما المؤمنون إخوة**)) وليس يصح أن يكون للمعنى المجازي صيغة خاصة في الجمع أو المفرد ، وإلا لبطل كون اللفظ مجازا وصار مشتركا ، لكن للاستعمال أن يغلب إطلاق إحدى الصيغتين الموضوعتين لمعنى واحد فيغلبها في المعنى المجازي والأخرى في الحقيقي)(١٤٣) .

وسواء أكان إطلاق الإخوة على رابطة النسب ، والإخوان على رابطة الصداقة مطردا في لغة العرب ، أم غالب استعمالاتها ، فإنني أقف أمام أمرين ، أولهما : هل وراء اختصاص كل منهما بموقعة خصائص لفظية ؟

والثاني : هل اطرد في القرآن مراعاة إلف العرب أو غالب استعمالهم ؟

---

(١٤٠) لسان العرب مادة أخو .
(١٤١) آل عمران ١٠٣ .
(١٤٢) حاشية الشهاب ٥٢/٣ .
(١٤٣) التحرير والتنوير ٣٤/٤ .

والجواب على الأول نعم . فإن اختصاص الأخ المجازى بزيادة المدة بالألف يتناسب مع بعد الرابطة ، وكان هذا المد الزائد بما يستغرقه من إطالة زمن النطق يشير إلى مسافة أبعد فى رابطة الأخوة ، وبقيت « الإخوة » بقلة حروفها ، وقصر زمن النطق بها ، رمزا لقرب الصلة ، المتمثلة فى رابطة النسب ، والمناسبة بين الألفاظ ومعانيها باب عظيم أفاض فيه ابن جنى من قبل(١٤٤) .

أما الجواب على الثانى فإن ما ورد فى القرآن يؤكد غلبة ما أشار إليه ابن فارس من اختصاص كل بموضعه ، وما اتخذ دليلا من القرآن على نقضه هو الذى نتناول سر خروجه على هذا الألف . من ذلك قوله تعالى : ((**إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم**))(١٤٥) حيث استعمل الإخوة فى رابطة الدين لا رابطة النسب . ووراء ذلك إبراز القرآن لقوة العلاقة التى تربط المؤمن بأخيه ، والتى يجب أن يكون لها من الحمية وصدق المودة ما يكون للأخوة من النسب ، وهذا هو السر فى إيثار اللفظ الدال على أقوى روابط الأخوة . والمقام الذى استدعاه ، هو مقام الحث على وقف نزيف الدماء بين المؤمنين ، وإزالة أسباب العداء ، فلما كان العربى حريصا على دم أخيه من النسب ، مما يدفعه إلى بذل نفسه حماية له أو ثأرا من قاتله ، فقد أراد القرآن بهذا اللفظ استنفار المؤمن ، واستثارة دوافع حرصه الفطرى على حقن دم أخيه من النسب ، فى مواجهة ما يعرض للمؤمنين من خصومات تصل إلى حد إراقة الدماء . حتى يهب بكل قواه للصلح بين المتقاتلين ، وحمل السلاح لرد بغى الظالمين والمعتدين منهم . وهذا هو الموضع الوحيد فى القرآن

---

(١٤٤) يراجع الخصائص - باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى - الجزء الثانى ١٤٧ وما بعدها .

(١٤٥) الحجرات ١٠ .

الذى استخدم فيه « الإخوة » فى غير الأبناء لأب على سبيل الاستعارة.

ولفظ « الإخوان » ورد فى القرآن غالبا فى الدلالة على أخى الصداقة ، وورد فى مواضع قليلة دالا على أخى النسب . منها قوله تعالى : « **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن** »(١٤٦) وهذا الموطن لا يناسبه « الإخوة » وهو لفظ يطلق على الذكور والإناث كما فى قوله تعالى : « **فإن كان له إخوة فلأمه السدس** »(١٤٧) أى إخوة ذكورا وإناثا ، فلما أريد النص على الذكور جاء الإخوان لتعيين جنس الذكور من الإخوة ، بدليل عطف الأخوات عليه فى قوله : « **بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن** » وبذلك يسقط أحد الأمثلة التى اعترض بها على ابن فارس . ومثله قوله تعالى : « **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم** »(١٤٨) ففى مجال الأحكام تعمد نصوص القرآن إلى الإطناب والتفصيل حتى لا تترك مجالا للإبهام ، لذا جاء الإخوان نصا على جنس الذكور من الإخوة ، وعطف عليه قسيمه من الإناث بقوله : « **أو بيوت أخواتكم** » ، ولما كان الإخوان يكثر استعماله فى الأصدقاء ، وقد استعمل هذا فى الإخوة من النسب ، فقد نفى القرآن الاشتراك باستخدام لفظ الصديق فى قوله : «**أو صديقكم**» ولم يقل : أو إخوانكم . فكان ذلك قرينة على إرادة الإخوة من النسب فيما عبر عنه بالإخوان . إلى جانب ما عطف عليه من الأخوات . وهو ما تطلبه مقام الإيضاح والتحديد فى مجال الأحكام . وهو أحد

---

(١٤٦) النور ٣١ .
(١٤٧) النساء ١١ .
(١٤٨) النور ٦١ .

المواضع التى طعن بها على اختصاص كل من الإخوة والإخوان بموقعه.
أما قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان** »(١٤٩) وهو مما يمكن أن يعترض به أيضا ، فإن ذكر الإخوان دون الإخوة مع إرادة الأخ من النسب كما يدل عليه عطفه على الآباء ، أرى فيه إلماحا إلى أن المنافحة ومحاربة الإيمان إنما تكون فى الرجال من الإخوة دون النساء ، اللاتى هن غالبا ما يتبعن الرجال ، لذا كان إيثار « الإخوان » ليكون نصا على الذكور منهم الذين يتولون كبر معاداة الدين الجديد ، والوقوف فى وجه إخوانهم من المؤمنين .

ومثله قوله تعالى : « **ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم** »(١٥٠) فإن هداية الإخوان كما يدل عليه ما بعده « واجتبيناهم وهديناهم » وما قبله « **ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا** » هى هداية النبوة ، وتلك من خصائص الذكور ، فلا يصح وضع الإخوة بشمولها للذكور والإناث فى موضعها .

وبذلك يكون قد اطرد فى القرآن وضع كل من الإخوة والإخوان فى موضعه الذى خصصه الاستعمال ، ولم يعدل القرآن عنه إلا حيث يكون هناك غرض يتعلق بوضع الصيغة موضع الأخرى على سبيل التجوز .

---

(١٤٩) التوبة ٢٣ .

(١٥٠) الأنعام ٨٤ - ٨٧ .

ومن استعارة القرآن صيغة جمع لصيغة جمع أخرى ، ما جاء فى قوله تعالى : « **ثم أنتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم** »(١٥١) فإن القياس فى أسير أن يجمع على أسرى ، لكنه جاء هنا على صيغة « فعالى » حملا للأسير على الكسلان فجمعوه جمعه . يقول ابن عطيه : (فعيل بمعنى مفعول الأصل فيه أن يجمع على فعلى ، كقتلى وجرحى ، والأصل فى فعلان أن يجمع على فعالى بفتح الفاء ، وفعالى بضمها ، كسكران وسكارى ، وكسلان وكسالى .

قال سيبويه : فقالوا فى جمع كسلان : كسلى : شبهوه بأسرى ، كما قالوا أسارى شبهوه بكسالى ، ووجه الشبه أن الأسر يدخل على المرء مكرها كما يدخل الكسل ، وفعالى إنما يجىء فيما كان آفة تدخل على المرء)(١٥٢) .

هذا هو حس العربية المرهف فى استعارة هيئة صيغة لأخرى، لتكتسب منها بطريق العدوى خصائصها الدلالية المساوقة لجرسها، وإنفاس أصواتها ، فلما كان الأسر آفة تفجأ الإنسان بما يكره وتشل حركته وفاعليته ، استعير له فى الجمع صيغة فعالى حملا على كسالى ، إذ الكسل آفة تقتل فى الإنسان نشاطه ، وتعجزه عن الحركة فاشبه كل منهما الأخر واستعير له صيغة صاحبه ، أما لماذا استعيرت هنا صيغة « فعالى » فلأن ما فيها من زيادة المعنى بحرف المد الزائد يجسد أمامك شدة الأسر وعنقه ، كما أن زيادة المد فى كسالى تريك إغراقا فى الكسل ، وتباديا فى التثاؤب والتمطي . وهذا ما لمحه أبو عمرو بن العلاء ،

(١٥١) البقرة ٨٥ . (١٥٢) المحرر الوجيز ١/٣٤٣ .

ففرق فى المعنى بين الأسرى والأسارى فقال على ما نقله أبو حيان : (الأسرى من فى اليد ، والأسارى من فى الوثاق)(١٥٣) فقابل زيادة المبنى زيادة فى المعنى ، لأن الأسير فى الوثاق أشد معاناة وأكثر تألما ، وأعجز عن الحركة ٠ وهذا يريك إعجاز النظم الحكيم حين استعمل اسرى فى قوله تعالى : « **يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم** »(١٥٤) حيث دل على أن الأسرى بين أيدى المسلمين يتمتعون بحسن المعاملة ، ولا يعنف عليهم بشد الوثاق : كما كان الشأن عند غير المسلمين بما دل عليه بصيغة أسارى فى خطاب اليهود ، يؤيد ذلك ما فى خطاب الله تعالى للأسرى على لسان نبيه من اللطف والتسلية ، ووعدهم بما ينتظرهم من الخير إن هم أخلصوا النية وطووا صفحة الشرك والعدوان على المسلمين ٠

ومن دقيق الاختلاف فى صيغ الجمع وخفيه ما تراه فى قوله تعالى : « **لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير** »(١٥٥) ٠

فقد عانيت كثيرا فى البحث عن سر المغايرة فى الصيغة بين الذكور والذكران مع أن اللفظين فى دلالتهما على الكثرة سواء ، ولم اجد لأحد ما يستفتح به على حتى كدت أن اقتنع بأنه ليس هناك من غرض لهذه المغايرة سوى مراعاة التناسب بين الفواصل فإن الفاصلة فى الآية السابقة « كفور » والمناسب لها هو الذكور ، كما تناسبت معهما

---

(١٥٣) البحر المحيط ١/٢٨١ ٠ (١٥٤) الأنفال ٦٩ ٠
(١٥٥) الشورى ٤٩ - ٥٠ ٠

الفاصلة « قدير » . وليست مراعاة الفواصل بالأمر الهين بين وجوه البيان ، فإذا كانت الصيغتان متساويتين فى دلالتهما فإن اختيار اللفظة التى يتلاءم إيقاعها وجرسها مع سياقها هو ضرب من ضروب البلاغة . لكننى وجدت مع ذلك مناسبة معنوية ، بنيتها على ما استقر لدى فقهاء اللغة من أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، فالذكران بما فيها من زيادة فى الحروف لابد أن تتبعها زيادة فى الوصف أو فى العدد ، ولما كان كل من الذكور والذكران يتساويان فى دلالتهما على الكثرة ، فلا مناص من القول بالزيادة فى الصفة ليكون « الذكران » أدل على صفة الذكورة وتمكنها . وهو ما استدعاه المقام ، حيث وقع الذكران عند الحديث عن التزويج بين الذكران والإناث ، حتى يدفع الوهم بأن الحمل بذكور وإناث معا ربما يكون سببا فى إضعاف صفة الذكورة ، فجاءت لفظة الذكران دالة على سعة علم الله وقدرته على الفصل بين المتجاورين كما يفصل بين ما ينبته فى القطع المتجاورات ، ومن ثم جاء تذييل الآية « إنه عليم قدير » ولمثل هذا السبب جاءت هذه الصيغة فى قوله تعالى مستنكرا ما يفعله قوم لوط : « أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون »(١٥٦) فقد بلغ الذكر غايته حين كان إتيان هؤلاء القوم لمن هم فى كمال الذكورة ، حتى لا يتسرب الوهم بأنهم كانوا يأتون المخنثين من الرجال وأشباه الرجال ، وليس لهم عذر فى ترك ما خلق الله تعالى لهم من البديل الفطرى الصالح للإتيان ، لأن المأتى على النقيض مما أباحه الله لهم كمالا فى الرجولة والذكورة ، فهم قد جمعوا بين جريمتين : بوار أرض خلقها الله لتكون حرثا لهم ، وإتلاف زرع أتى أكله بإذن ربه .

---

(١٥٦) الشعراء ١٦٥ - ١٦٦ .

فلما لم يكن اجتماع ذكر وأنثى فى بطن واحدة ونموهما فى رحم المرأة معا ، لم يحتج إلى المبالغة فى الصيغة ، واكتفى بصيغة الذكور فى قوله : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » .

الا ترى كيف طابق القرآن بين كثرة أوصاف عباد الرحمن والإطناب فى الثناء عليهم فيما استغرق أربع عشرة آية ـ طابق بين ذلك وبين الإطناب فى الصيغة حين قال : « **والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا** »(١٥٧) حيث آثر العميان على العُمْى ، كما جاء فى قوله تعالى : « **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما** »(١٥٨) وقوله : « **صم بكم عمى فهم لا يرجعون** »(١٥٩) بل لم يرد العميان إلا فى آية الفرقان وحدها ، وذلك أن الأنسب فى قوله « عميا وبكما وصما » وقوله « صم بكم عمى » هو صيغة فُعْل ، لموازنته ما جاء فى سياقه من الجموع ، مع دلالته على الكثرة التى يدل عليها «عميان» ، ولا مبرر للعدول عنها إلى ما لا يتناسب مع ما جاوره .

أما قوله تعالى : « صما وعميانا » فى آية الفرقان فقد ترك التناسب فى اللفظ بين الصم والعميان إلى تناسب معنوى ، والمناسبة فى المعنى مقدمة على التناسب فى اللفظ ، فلما بالغ القرآن فى وصف عباد الرحمن وأكثر من إطرائهم ناسبه التعريض بمقابلهم ، ممن اكتمل عماهم واشتد ضلالهم ، وخروا حين ذكروا بآيات ربهم عليها صما وعميانا ، إذ لا يظهر كمالهم فى الإيمان والطاعة إلا بذكر ما يقابلهم ممن افرطوا فى الكفر والعصيان . فإثبات غاية الكمال فى السمع والوعى لهم يقابله غاية الإفراط فى عدم الوعى والتبصر فى مقابلهم . وهذا التعريض هو ما صرح به أبو السعود فى قوله تفسيرا للآية

---

(١٥٧) الفرقان ٧٣ .
(١٥٨) الإسراء ٩٧ .
(١٥٩) البقرة ١٨ .

(أى أكبوا عليها سامعين بآذان واعية ، مجتلين لهـا بعيون راعية ، وإنما عبر عن ذلك بنفى الضد تعريضا بما يفعله الكفرة والمنافقون).(١٦٠)

ومما أوثر فيه التناسب اللفظى بين الصيغ المجاورة حينا ، والفواصل حينا آخر ، ما نراه من استعمال القرآن لصيغتى الكثرة « سُجَّد » و « سجود » فهما قد تساويا فى عدم حروفهما ، وفى دلالتهما على الكثرة ، فكان القرآن يختار إحداهما لقرب مناسبتها للفاصلة تارة ، كما فى قوله تعالى : **« وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ان لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى الطائفين والقائمين والركع السجود »**(١٦١) فقد ترك التناسب مع الصيغة المجاورة « الركع » بالعدول عن « السجد » إلى ما عليه التلاوة ، مراعاة لتناسب الفواصل ، إذ الفاصلة قبلها وبعدها مبنية على المد « الدم - عميق » فكانت « السجود » بما فيها من المد قبل الدال أليق بتلاؤم الفواصل ، وهو أشد طلبا للتناسب من الصيغة المجاورة . وحين لم تكن الصيغة فاصلة روعى فيها تناسبها لجاراتها ، كما فى قوله تعالى : **« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا »** (١٦٢) .

فكان للتناسب بين الجمعين ركعا وسجدا ، والجمعين قبلهما : أشداء ، ورحماء ، من أسر الإيقاع بالجرس واللفظ مثل مالهما من التناسب بين المعانى بما يشهد لجلال اللفظ والمعنى فى النظم الحكيم . بل إن القرآن الكريم طلبا للتناسب بين الصيغ والفواصل يترك ما يرى النحاة أنه الأقيس ، حرصا على جرس اللفظ وحسن وقعه فى السمع . كما فى قوله تعالى : **« وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات**

---

(١٦٠) تفسير أبى السعود ٦/٢٣١ .
(١٦١) الحج ٢٦ .
(١٦٢) الفتح ٢٩ .

الرحمن خروا سجدا وبكيا »(١٦٣) يقول أبو حيان : (والبكى جمع باك ، كشاهد وشهود ، ولا يحفظ فيه جمعه المقيس وهو فَعَلة ، كرام ورماة ، والقياس يقتضيه)(١٦٤) ثم يقول : (والذى ظهر أنه جمع لمناسبة الجمع قبله)(١٦٥) والذى فى القاموس المحيط أن« باك » جمعه : بكاة وبكى(١٦٦) وهو ينقض ما قاله أبو حيان من أن الجمع المقيس لا يحفظ ، ويبقى بعد ذلك أن القرآن ترك المقيس إلى المسموع ، للتناسب بين صيغتى الجمع سجدا وبكيا ، إلى جانب التناسب بين الفواصل وهو حين لا يعدو على التناسب بين المعانى ولا يقسر اللفظ على غير موضعه ، فن رفيع من فنون البيان .

وانظر كيف يراعى النظم الحكيم التناسب بين المعانى والفواصل معا فى قوله تعالى : « **وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا** »(١٦٧) فالمقام مقام امتنان من الله على الإنسان بكثرة ما أفاضه عليه من الخير ، وما فتح له من أبواب الرزق ، متمثلا فيما يسوقه الله من الماء ، ليحيى به موات الأرض ، ويروى به الحيوان والإنسان ، فجاء بالجمع « أناسى » بما تحمله صيغته من الكثرة فى المبنى والمعنى ، ليتلاءم مع فيض الخير والرزق ، ثم أكده بالوصف « كثيرا » ، المتوافق مع فواصل السورة المبنية على الألف الممدودة ، لذا كان العدول عن لفظ « أناس » مع أنهما معا جمع للإنسان ، كما قال الفراء : (وقوله : « **وأناسى**

---

(١٦٣) مريم ٥٨ .
(١٦٤) البحر المحيط ٦/٢٠٠ .
(١٦٥) السابق ٢٠٠ .
(١٦٦) القاموس المحيط مادة بكى .
(١٦٧) الفرقان ٤٨ - ٤٩ .

كثيرا » واحدهم إنس ، وإ شئت جعلته إنسانا ، ثم جمعته اناسى ، فتكون الياء عوضا من النون ، والإنسان فى الأصل إنسيان ، لأن العرب تصغره أنيسيان)(١٦٨) وتلاءمت صيغة « أناس » بما نقص من مبناها وقلل من كثرتها مع التعبير عن الفرق والطوائف ، كما فى قوله تعالى : « **وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشروبهم** »(١٦٩) وقوله : « **وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** »(١٧٠) فلا شك أنك تشتم من قولهم « أناس يتطهرون » التقليل من شأنهم وجمعهم ، مما يريك طرفا من إعجاز النظم الحكيم فى وضع الصيغة موضعها الذى تشيع فيه من خصائص جرسها ومبناها ما لا شيعه غيرها .

وانظر كيف يعمد القرآن إلى وصف الذرية بالضعفاء فى قوله تعالى : « **أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار وله فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت** »(١٧١) ويصف الذرية بالضعاف فى قوله تعالى : « **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا** »(١٧٢) . فغاير بين الصيغتين : « ضعفاء » و « ضعافا » واختار الصيغة الأكثر بناء ، والأدل على تناهى الضعف ، بما فيها من إشباع بالمد ، لتخلع على هؤلاء الصغار من شدة الضعف والعوز ما يتلاءم مع جو المبالغة الذى يرسمه التمثيل فى الآية الأولى ، بالمقابلة بين النعيم البالغ ، والبيس المتناهى ، فمن جنة حافلة

---

(١٦٨) معانى القرآن ٢/٢٦٩ .
(١٦٩) البقرة ٦٠ .
(١٧٠) الأعراف ٨٢ .
(١٧١) البقرة ٢٦٦ .
(١٧٢) النساء ٩ .

بألوان المتعة والنعيم إلى فاقة شديدة وعجز بالغ تضاعف بهذه الافراخ الصغار زغب الحواصل فى قاع لا ماء فيه ولا شجر . صورتا النعيم البالغ ، والشقاء المتزايد تجسدها مبانى الجموع فى الصورتين : « نخيل وأعناب » فى الصورة الأولى ، حيث لم يكف بالدلالة الظاهرة على الجمع فى اسم الجنس الجمعى « نخل » و « عنب » كما جاء فى قوله تعالى : « **فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا** »(١٧٣) فكان جمعهما أشبه بجمع الجمع فى دلالته على الكثرة البالغة ، وقابله فى الصورة الأخرى بالصيغة الأطول بناء والأبلغ معنى « ضعفاء » . فتناسب النظم لفظا ومعنى .

أما قوله تعالى : « **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا** » فليس فيه غير تحذير الأوصياء على اليتامى مما يمكن أن تتعرض ذريتهم من بعدهم لمثل ما تعرض له اليتامى الذين يتولون أمرهم من الفقر والضعف ، وهذا ما أداه الجمع « ضعافا » وليس هناك ما يتطلب المبالغة .

ألا ترى كيف صورت صيغة الضعفاء فى قوله تعالى : « **فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا** »(١٧٤) حالة الضعف والهوان والاستذلال ، الذى كان يعيشه هؤلاء الأتباع تحت إمرة المستكبرين ، بإرادتهم المسلوبة ، وطاعتهم العمياء ، وتبعيتهم المطلقة . فى مقابلة الزيادة مبنى ومعنى فى فعل الاستكبار بما يذيعه من معانى الغطرسة والاستبداد ، كما جسدت صيغة الضعفاء شدة العجز وتناهيه .

ثم تأمل كيف تكشف صيغة الجمع التى يتخير القرآن مبناها ، عن الهزيمة النفسية الضاربة فى أعماق المستضعفين ، وما يعتمل فى

---

(١٧٣) عبس ٢٧ - ٢٩ .

(١٧٤) إبراهيم ٢١ .

نفوسهم من الخنوف والقهر المسيطر عليهم فيما انطقهم الله به يوم المحشر : **« وقالوا ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا »**(١٧٥) مؤثرين صيغة الجمع « كبراء » دون كبار الأقصر مبنى والأقل معنى ، لتكون زيادة المد إشارة إلى بعد المسافة بين الضعفاء وسادتهم ، وما يحسه الضعفاء من تدنى منزلتهم ، وتعاظم منازل كبرائهم وما يتبع ذلك من الاستدلال والقهر ، والذى لم تنمح آثاره من نفوسهم وهم فى هذا الموقف الذى تساوت فيه الرؤوس وتلاصقت فيه الأقدام . فهل تراك تجد مثل هذا فيما لو قيل : أطعنا سادتنا وكبارنا ، مما يمكن أن يفهم منه معنى التوقير لذوى الأسنان من الناس فحسب ؟

ثم ها هى ذى نفس الصيغة «شهداء» يؤثرها القرآن على «شهود» ـ وكلاهما جمع كثرة ـ يؤثرها فى كل موقع تعظم فيه الشهادة وتتطلب مزيدا من الدقة والأمانة لما يترتب عليها من أخطار ، كما يؤثرها كذلك فى كل موقف يعظم فيه هؤلاء الشهداء . فكان فى زيادة مبناها زيادة فى قدر الشهادة وشرف حامليها . من ذلك قوله تعالى : **« والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة »**(١٧٦) حيث كانت الشهادة تتعلق بالعرض ، ويترتب عليها إزهاق نفس المشهود عليه ، مما يوجب الحرص فى الأداء والأمانة فى نقل الشهادة . لذلك عدل عن صيغة القلة الملائمة للعدد « أشهاد » ، وعن صيغة الكثرة « شهود » ، لأنها لا تؤدى من الحيطة والمبالغة فى الأمانة والأداء ، ما يؤديه « شهداء » . وفى قوله تعالى : **« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »**(١٧٧) يجسد هذا البناء شرف الشاهدين من هذه الأمة ،

---

(١٧٥) الأحزاب ٦٧ .

(١٧٦) النور ٤ .

(١٧٧) البقرة ١٤٣ .

ومسئوليتهم فى قيادة الإنسانية بمثل الحق والخير ، وقيم العدل ، التى هم أهلها ورادتها ، حتى يكونوا جديرين بما تحملوه من خطر الشهادة على من سبقهم من الامم ، ومن عاصرهم منها .

وفى قوله تعالى : « **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء** » تعانقت صيغة الشهداء بزيادة مبناها ومعناها مع « الصديقين » بدلالته على المبالغة فى إبراز شرف هؤلاء الموصوفين ورفعة منزلتهم التى جعلتهم رفقاء لأصفياء الله وأنبيائه .

فإذا جئت إلى بناء الكثرة « شهود » وجدته يحمل معنى المراقبة والمشاهدة والحضور ، ولا يشيع ما أشاعه بناء « الشهداء » ففى قوله تعالى حديثا عما وهب الله الوليد بن المغيرة من عز المال والولد بما لم يحسن شكره : « **ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا** »(١٧٨) وصف أبناء الوليد بالشهود للدلالة على أنهم حضور لا يغيبون عنه فى تصرف(١٧٩) ، بما ينبىء عن تقويه بهم ، واستغنائهم بما بين أيديهم من المال عن طلبه بالسفر ، وليس فى ذلك ما فى صيغة الشهداء من إجلال قدر الشهادة وتعظيم الشاهدين . وقوله تعالى : « **وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود** » قصد به التسجيل عليهم بالإجرام والقسوة ، حين كانوا يحضرون مواقع تعذيب المؤمنين ، فالشهادة هنا تعنى الحضور والمراقبة .

وقوله تعالى : « **ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا** »(١٨٠) إخبار من الله تعالى بشمول علمه ومراقبته لأفعال خلقه ، فهو معهم

(١٧٨) المدثر ١١ - ١٣ .
(١٧٩) أنظر تفسير القرطبى ٦٨٦٣/٨ .
(١٨٠) يونس ٦١ .

أينما كانوا ، وليس فى ذلك ما فى « الشهداء » من وجوب المبالغة فى التحرى والإحاطة بالشهادة لأدائها على وجهها ، لأنه سبحانه غنى عن ذلك ٠

ومن بديع التناسب بين معانى الصيغ ومبانيها ، ما تراه فى وضع « الكفار » و « الكفرة » موضعهما فى قوله تعالى : **« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »**(١٨١) وقوله : **« وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة »**(١٨٢) فقد استدعى مقام امتداح المؤمنين بالشدة على أعدائهم وصفهم بأبلغ الصيغ الواردة فى وصف الشدة « أشداء » وناسبها أن يؤتى بأبلغ مبانى الكفر ،وهى « الكفار » لتكون الشدة دالة على أبلغ مراتب الشجاعة والثبات فى مواجهة أعتى الناس كفرا وحربا على المؤمنين إذ لا تمتدح الشجاعة إلا حين تكون المنازلة بين الأقران والأنداد ٠ فتناسبت الصيغتان معنى وتقاربتا وزنا وبناء ، ولم يقصد فى آية عبس المبالغة فى وصفهم بالكفر ، وإنما أريد حصر هذه الوجوه الكالحة المسودة يوم القيامة فى هؤلاء الكفرة ، فى مقابلة الوجوه الضاحكة المستبشرة من المؤمنين ٠ فأدى بناء الكثرة « الكفرة » غرضه من تحديد وصف أصحاب الوجوه المظلمة ، والدلالة على كثرتهم ، إلى جليل التناسب فى الوزن والبناء مع « الفجرة » بعده ، و « السفرة » و « البررة » قبله ، فى قوله تعالى : **« بأيدى سفرة كرام بررة »**(١٨٣) فكان وضع كل منهما فى موضعه دليلا على إعجاز النظم الحكيم ٠

---

(١٨١) الفتح ٢٩ ٠
(١٨٢) عبس ٣٨ ـ ٤٢ ٠
(١٨٣) عبس ١٥ ـ ١٦ ٠

ومن تفاوت صيغ الجموع فى دلالتها على الكثرة ، وإعجاز القرآن فى اختيار الصيغة الملائمة لسياقها : القبور والمقـابر ، فهما وإن كانتا من صيغ الكثرة ، فإن المقابر باشتقاقها وزيادة مبناها أبلغ فى دلالتها على الكثرة من القبـور ، يدلك على ذلك ما جاء فى لسـان العرب : (المقبرة بفتح الباء وضمها : موضع القبور)(١٨٤) فكان قوله « موضع القبـور » لا موضع القبر صريحا فى أن المقبرة تطلق على عـدد مجتمع من القبـور ، ويكون جمعها حينئذ أشبه بجمع الجمع فى دلالته على التناهى فى الكثرة . ومن ثم آثره القرآن فى مقـام التباهى والتفاخر بكثرة الأموال والرجال ، وهو الموضع الوحيد الذى ورد فيه لفظ المقابر ، وذلك فى قوله تعالى : « **ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر** »(١٨٥) . فجاء غاية فى التناسق والانسجام مع الفاصلة قبـله ، حيث تناغم معها فى الإيقـاع ، باتحادهما وزنا ورويا ، وتناغم معها فى الدلالة على غاية الكثرة . وهـذا هو سر العدول عن القبور التى تكررت فى القرآن خمس مرات إلى المقابر التى انفرد بها هـذا الموضع ، وكان لها دورها الكاشف عن عادات القـوم فى الجاهلية ، من التفاخر بكثرة أعـداد رجالاتها وساداتها من الأحياء والأموات على السواء . فقد جاء فى أسباب النزول أنها (نزلت فى حيين من قريش : بنى عبـد مناف وبنى سـهم ، كان بينهما لحا ، فتعاند السادة والأشراف أيهم أكثر ، فقال بنو عبد مناف : نحن أكثر سيدا وعـز عزيزا ، وأعظم نفرا ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكثرهم بنـو عبد مناف ، ثم قالوا نعـد" موتانا حتى زاروا القبـور ، فعـدوا موتاهم ، فكثرهم بنـو سـهم ، لأنهم كانوا أكثر عـددا فى الجاهليـة)(١٨٦) .

---

(١٨٤) لسان العرب مادة : قبر .
(١٨٥) سورة التكاثر ١ - ٢ .
(١٨٦) أسباب النزول للواحدى ٣٤١ .

وقد أحسنت الدكتورة بنت الشاطىء الكشف عن بيان وجه الإعجاز في إيثار هذا الجمع حين قالت : (وقد تجد الصنعة البلاغية في استعمال المقابر هنا مجرد ملاءمة صوتية للتكاثر ، وقد يحس أهل البلاغة ونحس معهم فيها نسق الإيقاع بهـذه الفاصلة ، فهل تكون (المقابر) في آية التكاثر لرعاية الفاصلة فحسب ؟

المقابر جمع مقبرة ، وهى مجتمع القبور ، واستعماله هنا يقتضيه معنويا أنه اللفظ الملائم للتكاثر ، الـدال على مصير ما يتكالب عليـه المتكاثرون من متاع دنيـوى فان ، هناك حيث مجتمع القبور ومحتشد الرمم ، ومساكن الموتى على اختـلاف أعمـارهم وطبقـاتهم ودرجاتهم وأزمنتهم . وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول ، لا يمكن أن يقوم بها لفظ (القبور) بما هي جمع لقبر)(١٨٧) .

* * *

---

(١٨٧) التفسير البيانى للقرآن الكريم ٢٠١/١ .

الفصل الرابع

تناسق الصيغ
فى مشتبه النظم

تتغاير الصيغ فيما اشتبه نظمه من الذكر الحكيم ، فيفرد اللفظ في موضع ويجمع في موضع آخر ، وكثيرا ما دق وجه المخالفة وخفي سره ، فيسرع البعض إلى القول بالافتنان ، ويجتهدون في إيجاد وجه تتحد معه دلالة الصيغتين . وهو اتجاه لا نؤيده ، لما فيه من إلغاء الفروق الدقيقة بين الصيغ ، وذهاب حكمة الواضع لهذه اللغة في إثراء معانيها ودلالاتها بثراء مفرداتها وصيغها . والوجه عندي فيما استغلق سره واحتجب وجه المغايرة فيه أن نسلم بأن هناك سرا أخفاه الله عنا ليظهره على يد غيرنا ، تسليمنا بأن مائدة القرآن ستظل ممدودة ، وأن الله لا يحرم من فضلها كل يد أمينة مخلصة ، تستبق إلى زاد التقوى ، ومورد الإيمان . والحق أن كثيرا من ذلك أمسكت عن الخوض فيه ، حين أدركت أن سره قد احتجب عني كما احتجب عن غيري ، لعل الله يلهم غيري ما لم يلهمنيه ، كما أن هناك مواضع اجتهدت في تفسيرها ، مؤمنا أن غيري سيجد فيها من وجوه البيان ما لم أجد ، ويظهر من قصوري ما لا يعد وسما لي بالتقصير ، فحسب المرء أن يخلص النية ويصدق الجهد .

مما تشابه نظمه واختلفت صيغتاه بالإفراد والجمع ، قوله تعالى : **« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين »**(١) وقوله : **« سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله »**(٢) فأفردت السماء في الثانية وجمعت في الأولى . وبتأمل السياق وتناسب معاني النظم نجد الجمع في الآية الأولى بما فيه من الدلالة على الكثرة يتسق في نظمه مع المبالغة في التشبيه بحذف الأداة ، ذهابا إلى تعظيم الجنة ، وعلو درجة الساعين إليها ، كما يتسق الإفراد بدلالته على القلة مع التشبيه

---

(١) آل عمران ١٣٣ .   (٢) الحديد ٢١ .

المصرح فيه بالأداة ، إيماء إلى أن المتسابقين إلى هذه الجنة دون الأولين عملا وثوابا لذ. ينبئك عن ذلك أن الجمع جاء فى وصف المتقين ، وهم خاصة المؤمنين من الذين دأبوا على مراقبة الله والخوف من عقابه ، ونأوا بأنفسهم أن يفتقدهم ربهم عندما أمر ، ويجدهم عند ما نهى ، بخلاف الآية التى وقع فيها المفرد ، حيث نعت الله أهل الجنة بالمؤمنين ، وهو وصف يعم كل من حصل الإيمان ، وفى الوقت الذى اكتفى فيه القرآن بوصفهم بالإيمان ، سرد فى الآية الأولى التى وقع فيها الجمع أوصافا عدة للمتقين ، تدل على تميزهم ورفعة درجتهم عند ربهم ، قال : « **أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** »(٣) .

فقابل الزيادة فى العمل بالزيادة فى المثوبة والأجر ، وناسب بين الإطناب فى الوصف والإطناب بالجمع ، كما ناسب بين الايجاز فى الوصف والايجاز بالإفراد ، وذلك غاية الاعجاز . والدليل على ذلك أن الله أكد ما فى الجمع من زيادة الفضل وسمو الدرجة بقوله : « **أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** »(٤) فجعل الجنة لما أعد فيها من أنواع النعيم « جنات » .

إلى ذلك ذهب الغرناطى فيما ننقله عنه بتصرف : (إن آية آل عمران على حذف المضاف كما تقدم ، أى عرضها مثل عرض السموات والأرض ، وقد أفصحت آية الحديد بما يقوم مقام هذا المضاف ويحمل معناه ، وهو كاف التشبيه ، إذ معناها مثل ، وحذف المضاف مما يكون

---

(٣) آل عمران ١٣٤ـ ١٣٥ .　　(٤) آل عمران ١٣٦ .

كثيرا عند قصد المبالغة ... ولما اتصل بقوله « عرضها » فى آية آل عمران ، وهو مبتدأ والخبر عنه مجموع ، فقيل « السموات » فافصح الجمع بما مهدناه من قصد المبالغة والتعظيم ايضا ، وهو وصف من أعدت له الجنة الموصوفة ، ووصفهم بالمتقين ، وهم الذين وفوا بالإيمان وتوابعه ... ولم يكن قوله تعالى : **« عرضها السموات »** بالجمع ، كقوله فى آية الحديد : **« كعرض السماء »** فافرد ، ولا قوله : أعدت للمتقين ، كقوله فى آية الحديد : **« أعدت للذين آمنوا بالله ورسله »** فلما تضمنت آية آل عمران من قصد المبالغة من هذه الجهات والقرائن التى ذكرنا ما لم تتضمن آية الحديد ، ناسب ذلك جعل العرض نفس السموات والأرض)(٥) .

وقد تكرر إفراد السماء وجمعها فى قوله تعالى : **« قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله »**(٦) وقوله : **« قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين »**(٧) فذهب الغرناطى إلى أن الإفراد يحصل من المعنى ما يحصله الجمع ، وأن السموات جمعت فى سورة سبأ للتناسب اللفظى بينها وبين الجمع فى الآية السابقة لها ، وهى قوله تعالى : **« قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض »**(٨) وليس فى سورة يونس جمع مماثل يبنى عليه(٩) .

والحق اننى مع عدم قناعتى التامة بأن التناسب اللفظى وراء هذا الإفراد والجمع فى الموضعين ، فإننى لا أستطيع أن أنكر أن تجاوب

---

(٥) ملاك التأويل ١/١٧٣ .
(٦) يونس ٣١ .
(٧) سبأ ٢٥ .
(٨) سبأ ٢٢ .
(٩) يراجع ملاك التأويل ١/٤٨٥ .

أطراف النظم فى السورتين بالإفراد والجمع أحد وجوه البيان فى المغايرة بين الصيغتين ، ليس لأن آية سبأ ناسبها جمع السموات فى الآية التى سبقتها فحسب ، كما قال الغرناطى ، وإنما لأن فى السورتين من متشابه النظم ما تعانق فيه الجمع مع الجمع ، والمفرد مع المفرد ، فعالى تعالى فى سورة يونس : « **وما تكون فى شان وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** »(١٠) وقال فى سورة سبأ : « **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** »(١١) .

هذا التناسب فى اللفظ إفرادا وجمعا بين المواضع - مع طول الفصل بينها - يريك لا شك وجها من وجوه إعجاز النظم الحكيم ، أضيف إليه من التناسب المعنوى الذى ينتظم الإفراد فى موضعى يونس ، والجمع فى الموضعين من سورة سبأ ، ما أراه فى اقتضاء سورة سبأ المبالغة بالجمع حيث الإنكار فيها أشد ، والمجادلون أكثر إصرارا على كفرهم وتكذيبهم ، يدلك على ذلك فى الموضع الأول منها تصدير الآية بقوله تعالى : « **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة** » مما جعل رد الرسول - كما أمر به - حافلا بأدوات التوكيد (بلى وربى لتأتينكم) .

وفى الموضع الثانى : وهو قوله : « **قل من يرزقكم من السموات والأرض** » لم يجيبوا عليه بما يدل على إقرارهم بالحقيقة التى لا ينكرها أحد ، فأمر الله تعالى رسوله أن يجيب عنهم ، « **قل الله** »

---

(١٠) يونس ٦١ . (١١) سبأ ٣ .

ويسلك معهم سبيل التعريض بضلالهم على طريقة الكلام المنصف : **« وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين »** .

أما الموضع المشابه له من سورة يونس ، فقد كان المشركون فيه أقل عنادا حين أجابوا بانفسهم مقرين بأن الرازق هو الله كما نطق به القرآن **« فسيقولون الله »** . والموضع الثانى منها كان الخطاب فيه لرسول الله ﷺ والمؤمنين **« وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء »** .

فلاق الجمع الدال على المبالغة بما كان الإنكار فيه أشد ، والعناد أقوى واحد ، وجاء الإفراد ملائما لما كانت حدة الإنكار فيه أخف . فسبحان من لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

وللسهيلى كلام لطيف ، ينبىء عن توفيق بالغ وإن كان ينتظم موضعا واحدا من مشتبة النظم بين السورتين قال فيه : (فإن قيل : فلم قال فى سورة سبأ **« قل من يرزقكم من السموات والأرض »** وفى سورة يونس : **« قل من يرزقكم من السماء والأرض »** ؟ وهل فى النظم المعجز ما يقتضى فرقا بين الموضعين ؟ قلنا نعم ، قد يرد لفظ السماء عبارة عن كل ما علا من السموات فما فوقها إلى العرش ، وغير ذلك من المعانى العلوية ، المختصة بالربوبية ، فيكون اللفظ بصيغة الإفراد ، كالوصف المعبر به عن الموصوف ، كما تقدم فى الوصف قبل هذا ، وقد يكون السماء عبارة عن السماء الدنيا عرفا ، ويكون عبارة عن السحاب الذى ينزل منه الماء ، وكان المخاطبون بهذه الآية - أعنى التى فى يونس - مقرين بنزول الرزق من هذه السماء ، أعنى الرزق المحسوس ، كالغيث ونحوه ، وقد قال فى آخر الآية **« فسيقولون الله »** **فلما انتظم هذا الكلام بما قبله لم يصلح فى النظم إلا ذكر السماء مفردة ،**

لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الرزق المعقول ، والرحمة بالعباد ، كالوحى الذى به حياة الأرواح والأجساد ، بل ينكرون ذلك ، فوردت السماء فيها بلفظ الإفراد ، بخلاف الآية الأخرى ، فإنه لم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من الرزق ، ولكنه قال تعالى : « **قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله** » فأمر نبيه بهذا القول الذى هو تصديق لنزول الرزق والخير الذى هو الحكمة والعلم ، وهو أفضل الرزق من فوق سبع سموات ، وأما الرزق من الأرض فيصلح ذكره فى الاثنين جميعا ، إذ لا ينكر رزق الأرض وما ينزل من الغيث ، من هذه السماء بر ولا فاجر ، بل يعترف به المؤمن والكافر ، فتأمل ما ذكرته من هذه النكت ، فإنها أنف ، لم أزاحم عليها ، ولا وجدتها لأحد تقدمنى إليها)(١٢) .

حقا إنها أنف ، لم يسبق إليها ، ولم يزاحمه فيها سابق ولا لاحق .

ومما اختلفت تأويلات المفسرين فيه ، ، وتقاربت آراؤهم من بلاغة النظم ، أو تباعدت ، قوله تعالى : « **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما** »(١٣) .

فإن ظاهر الأسلوب أن المفضل والمفضل عليه فى الموضعين واحد ، كما يدل له اتحاد العبارة « **فضل الله المجاهدين على القاعدين** » فلم كان الاختلاف بالإفراد والجمع ؟

---

(١٢) نتائج الفكر ١٦١ وما بعدها .   (١٣) النساء ٩٥ - ٩٦ .

يرى البعض أن الجملة الثانية تفصيل بعد إجمال ، والتفصيل أحق بالمبالغة من الإجمال ، فخص التفصيل بألوان من المبالغة ، منها : وصف الأجر بالعظيم فى المبدل منه « أجرا عظيما » وصيغة الجمع « درجات » فى البدل ، إلى جانب وصفها بكونها من الله تعالى وما عطف عليها من المغفرة والرحمة ، وهو ما أوجزه البيضاوى بقوله : (كرر تفضيل المجاهدين وبالغ فيه إجمالا وتفصيلا ، تعظيما للجهاد ، وترغيبا فيه)(١٤) لكن يكدر عليه أن الجملة الثانية معطوفة على الأولى ، وحق التفصيل أن يكون مفصولا عن الإجمال ، طبقا لما قرروه فى باب الفصل والوصل.

ويرى آخرون أن المفضل عليه فى الجملة الثانية غيره فى الجملة الأولى ، فكان التفاوت بالإفراد والجمع منبئا عن دنو منزلة المفضل عليه فى جانب المفرد ، وسموه مع الجمع ، تحقيقا للفرد بين دلالات الصيغ . من هؤلاء أبو جعفر الطبرى الذى يقول : (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من أولى الضرر درجة واحدة ، يعنى فضيلة واحدة = وذلك بفضل جهاده بنفسه .. وأما قوله : **« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما »** فإنه يعنى : وفضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أولى الضرر « أجرا عظيما »)(١٥) .

فكان الجمع فى الثانية دليلا على شدة تفاوت المنازل عند الله بين المجاهدين والقاعدين من غير أولى الضرر ، ولذلك قال عقب الجملة الأولى : **« وكلا وعد الله الحسنى »** لما كان القاعدون هناك معذورين

---

(١٤) تفسير البيضاوى ١٦٩/٣ .
(١٥) تفسير الطبرى ٩٦/٩ - ٩٧ بتصرف .

بعجزهم عن القتال ، ولم يعقب الجملة الثانية بمثله . وإلى قريب من ذلك ذهب الزمخشرى حيث قال : (فإن قلت : قد ذكر الله تعالى مفضلين درجة ومفضلين درجات فمن هم ؟ قلت : أما المفضلون درجة واحدة ، فهم الذين فضلوا على القاعدين الأضراء ، وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم فى التخلف ، اكتفاء بغيرهم ، لأن الغزو فرض كفاية)(١٦) .

المخالفة الوحيدة بين ما ذهب إليه الطبرى وما قاله الزمخشرى هو فيما أضافه الأخير من القيد بالإذن ، وكأنه يرى أن غير المأذون لهم لا يصح وضعهم أصلا فى مقارنة مع المجاهدين .

أما أبو حيان فهو يرى أن المفضل عليهم أولا هم أنفسهم المفضل عليهم آخرا ، وأن التفاوت فى نوع التفضيل وزمانه . قال : (والمفضل عليهم هنا درجة هم المفضل عليهم آخرا درجات وما بعدها ، وهم القاعدون غير أولى الضرر ، وتكرر التفضيلان باعتبار متعلقهما ، فالتفضيل الأول بالدرجة هو ما يؤتى فى الدنيا من الغنيمة ، والتفضيل الثانى هو ما يخولهم فى الآخرة ، فنبه بإفراد الأول وجمع الثانى على أن ثواب الدنيا فى جنب ثواب الآخرة يسير)(١٧) .

كلا الوجهين المتمثلين فيما قاله الطبرى والزمخشرى من ناحية وما قاله أبو حيان من ناحية أخرى ، يبرز أسرار المغايرة ، ويعكس إعجاز النظم الحكيم فى التلويح بالغرض ، اعتمادا على دلالات الصيغ وما تبثه فى سياقها من إيحاءات .

وقد ذهب الشيخ الطاهر بنعاشور إلى التسوية بين الدرجة مفردة ومجموعة ، وجعل سر المجىء بالجمع توكيد المفرد ، فقال : (وجىء بـ « درجة » بصيغة الإفراد ، وليس إفرادها للوحدة ، لأن درجة هنا جنس معنوى لا أفراد له ، ولذلك أعيد التعبير عنها فى الجملة التى جاءت

---

(١٦) الكشاف ١/٥٥٦ .

(١٧) البحر المحيط ٣/٣٣٢ .

بعـدها ، تأكيدا لها بصيغة الجمع « درجات منه » ، لأن الجمع أقوى من المفرد ، وتنوين درجة للتعظيم ، وهو يساوى مفاد الجمع فى قوله تعالى : « **درجات منه** » ... وجمع « درجات » لإفادة تعظيم الدرجة ، لأن الجمع لما فيه من معنى الكثرة ، تستعار صيغته لمعنى القوة)(١٨)

هذا القول بتساوى الصيغتين اعتمادا على إرادة الجنس فى الواحد ، مما لا يمكن التسليم به ، وما قاله من أن التنكير فى المفرد بدلالته على التعظيم يعادل الجمع ، فيه سهو عن أن الجمع منكر كذلك ، وتنكيره للتعظيم ، بل إن دلالته على التعظيم صريحة ، لأنه مبدل عن قوله « أجرا عظيما » والقول بأن الجمع تأكيد للمفرد مردود بمثل ما رددنا به رأى البيضاوى السابق ، من أن الجملة الثانية تفصيل للجملة الأولى ، وهو مخالف لما توجبه قواعد البلاغة من فصل جملة التأكيد عن الجملة المؤكدة ، ضرورة أن العطف بالواو يوجب المغايرة ، إلى جانب ما توجبه صيغة الجمع من زيادة فى التفضيل .

ومن عجيب ما تكرر فى الذكر الحكيم واطردت غاية النظم فيه إفرادا وجمعا ، مجىء الريح مفردة تارة كقوله تعالى : « **فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا** »(١٩) وجمعها تارة أخرى كما فى قوله تعالى : « **والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيا به الأرض بعد موتها** »(٢٠) .

وقد تتبع العلماء مواضع إفراد الريح وجمعها فى القرآن الكريم ، فلاحظوا أنها تفرد فى مواطن العذاب ، وتجمع فى مواطن الرحمة ، يقول الراغب الأصفهانى : (وعامة المواضع التى ذكر الله تعالى فيها

---

(١٨) التحرير والتنوير ١٧٣/٥ .
(١٩) فصلت ١٦ . (٢٠) الجاثية ٥ .

إرسال الريح بلفظ الواحد ، فعبارة عن العذاب ، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة)(٢١) .

لكن الحكم باطراد إفراد الريح مع العذاب لم يرق لبعض المفسرين ، ومنهم ابن المنير الذى استدرك عليه بما يخرم الإطلاق ، وهو قوله تعالى : « **إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره** »(٢٢) فقال : (وهم يقولون : إن الريح لم ترد فى القرآن إلا عذابا بخلاف الرياح ، وهذه الآية تخرم الإطلاق ، فإن الريح المذكورة هنا نعمة ورحمة ، إذ بواسطته يسير الله السفن فى البحر ، حتى لو سكنت لركدت السفن ، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما ذكروه ، وأما اطراده فلا)(٢٣)

عد الإفراد مع العذاب والجمع مع الرحمة أمرا غالبا ، لا مطردا هو ما قال به من قبل ابن عطية ورده القرطبى(٢٤) وغيره ، لكن ابن عطية لم يستثن منه فى القرآن سوى قوله تعالى فى سورة يونس : « **وجرين بهم بريح طيبة** » وعلل فيه سر مخالفته للأغلب الأعم ، كما علل سر الإفراد مع العذاب ، والجمع مع الرحمة . يقول ابن عطية : (والرياح جمع ريح ، وجاءت فى القرآن مجموعة مع الرحمة ، مفردة مع العذاب إلا فى يونس ، فى قوله : « **وجرين بهم بريح طيبة** » وهذا أغلب وقوعها فى الكلام . وفى الحديث كان رسول الله ﷺ إذا هبت الريح يقول : « اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا » . قال الفقيه القاضى أبو محمد عبد الحق بن عطية رضى الله عنه : وذلك ، لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد ، وريح الرحمة لينة متقطعة ، فلذلك هى رياح ، وهو معنى نشر ، وأفردت مع الفلك ، لأن

---

(٢١) المفردات ٢٠٦ .
(٢٢) الشورى ٣٣ .
(٢٣) الإنصاف ٤٧١/٣ .
(٢٤) انظر تفسير القرطبى ٥٧٨/١ .

ريح إجراء السفن ، إنما هى واحدة متصلة ، ثم وصفت بالطيب ، فزال الاشتراك بينها وبين ريح العـذاب)(٢٥) ٠

هذا التعليل للإفراد والجمع غاية في الدقة والروعة ، فلما كانت ريح العـذاب شديدة مدمرة ، لاتهدأ ولا تنقطع كانت ريحا واحـدة ، بخلاف رياح الرحمة التى تثور فتحمل معها السحاب المـاطر ، وتهـدأ لتسمح بسقوط الأمطار ، فكان تعدد هبوبها بمثابة رياح متعددة تحمل الخير والرحمن ، وتسقى الأرض والأنعام والناس ٠ وجاء تعليله لإفراد الريح المسيرة للفلك فى آية يونس رائعا كذلك ،حيث كان وصفها بالطيبة أشبه بالاحتراس ، من اختلاط الفهم وتخيل أن تكون ريحـا مهـلكة ، لمـا أن تعدد الرياح المسيرة للفلك سبب من الأسباب التى تعوق حركتها ، وربما يؤدى إلى هلاكها ٠

أما احتجاج ابن المنير بقوله تعالى : ((**إن يشا يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره**)) فهو تأييد للقاعـدة ، لا خرق لها ، لمـا أن إسكان الريح وتعطيل حركة السفن هو ضرب من العـذاب يؤدى إلى الإضرار باقتصاد الناس وتوقف حركة تجارتهم وتنقلاتهم ٠ فعـاد إلى الأصـل من إفراد الريح فى مواطن العـذاب ، فكمـا كان إرسالها مفردة دمارا وهلاكا فى مثل قوله تعالى : ((**وإذ أرسلنا عليهم الريح العقيم**))(٢٦) كان إسكانها مـع حاجة السفن إليها فى حركتها ووصولها إلى غاياتها عـذابا كذلك ٠

وبتتبع المواضع التى ذكرت فيها الريح فى القرآن الكريم ، نجدها قـد وردت عشر مرات مجموعة ، وهى جميعـا فى مواطـن الرحمـة والخير ، وجاءت مفردة تسع عشرة مرة : ثلاث عشرة منها فى سـياق

---

(٢٥) المحرر الوجيز ٤٦٩/١ ٠ (٢٦) الذاريات ٤١ ٠

العذاب بلا خلاف ، وموضعان فى الريح التى تسير الفلك وقد ذكرنا سر إفرادهما ، وثلاثة مواضع فى الامتنان على سليمان عليه السلام بتسخير الريح ، وهى قوله تعالى : « **ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها** »(٢٧) وقوله : « **ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر** »(٢٨) وقوله : « **فسخرنا له الريح تجرى بامره رخاء حيث أصاب** »(٢٩) وهذه الريح فى المواضع الثلاثة شبيهة بالريح التى تسير السفن ، إذ هى وسيلة انتقال سريعة خارقة أجراها الله لنبيه سليمان ، وكما أن الريح إذا تعددت مهابها كانت وبالا على السفن وراكبيها ، وإعاقة حركتها ، فكذلك أرادها الله ريحا واحدة متصلة تبلغ بسليمان إلى حيث يريد من أرض الله . وهذا هو سر إفرادها .

والموضع الأخير جاء على سبيل استعارة الريح للقوة والوحدة فى قوله تعالى : « **وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** »(٣٠) ولا يصلح فى مكانها أن تجىء الريح جمعا ، لأنها تؤدى بتعددها إلى عكس المراد .

وخير ختام لحديث الإفراد والجمع فى الريح ما قاله ابن القيم وهو من أجود ما قيل (فحيث كانت فى سياق الرحمة أتت مجموعة ، وحيث وقعت فى سياق العذاب أتت مفردة ، وسر ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها مما يكسر سورتها ، ويصدم وحدتها ، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحياة والنبات ، فكل ريح منها فى مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها ، فكانت الرحمة رياحا . وأما فى العذاب فتأتى من وجه

---

(٢٧) الأنبياء ٨١ .
(٢٨) سبأ ١٢ .
(٢٩) ص ٣٦ .
(٣٠) الأنفال ٤٦ .

واحد ، لا يقوم لها شيء ، ولا يعارضها غيرها ، حتى تنتهى إلى حيث أمرت ، لا يرد سورتها ، ولا يكسر شرتها ، فتمتثل ما أمرت به ، وتصيب ما أرسلت إليه ، ولهذا وصف سبحانه الريح التى أرسلها على عاد بأنها عقيم ، فقال : « **فأرسلنا عليهم الريح العقيم** » وهى التى لا تلقح ولا خير فيها ، والتى تعقم ما مرت عليه ، ثم تأمل كيف اطرد هذا إلا فى قوله فى سورة يونس « **هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف** »(٣١) فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الإفراد ، لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح ، لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة ، من وجه واحد سيرها ، فإذا اختلفت عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهلاك ، فالمطلوب هناك ريح واحدة لا رياح ، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب ، دفعا لتوهم أن تكون ريحا عاصفة ، بل هى مما يفرح به لطيبها، فلينزه الفطن بصيرته فى هذه الرياض المونقة المعجبة ، التى ترقص لها القلوب فرحا)(٣٢) .

ومن روائع النظم الحكيم فى وضع الصيغة موضعها الذى لا يصلح فيه سواها ، إفراد العظم فى قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام : « **قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا** »(٣٣) وجمعه فى قوله تعالى : « **ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر** »(٣٤) فربما يتوهم أن مقام الاستعطاف وإظهار الضعف يقتضى المبالغة فيما أصابه من الوهن ، وهذا يناسبه جمع العظم ، ليدل على كثرة عظامه الواهنة ، كما ناسب الجمع مقام إبراز القدرة وبدائع الصنع ، فى تحويل المضغة

---

(٣١) يونس ٢٢ .
(٣٢) بدائع الفوائد ١/١٨١ وما بعدها .
(٣٣) مريم ٣ .
(٣٤) المؤمنون ١٤ .

الضئيلة نوعا وعددا إلى عظام كثيرة ، فانقلب الرخو صلبا ، والواحد كثرة ، تعظيما لقدرة الخالق فيما أحسن من خلقه .

تجاوب الجمع مع ظاهر السياق فى مقام امتنان الله تعالى على الإنسان بإحسان خلقه فى سورة المؤمنون ، وبقى إفراد العظم فى دعاء زكريا يتطلب تفسيرا للإفراد . فذهب السكاكى إلى إن المعرف بلام الجنس إذا كان مفردا فهو أشمل فى الاستغراق من الجمع ، وبناء عليه ، فإن إفراد العظم إشارة إلى شمول الوهن كل فرد من أفراد العظام ، بخلافه مجموعا فإنه يشمل الجموع لا الآحاد ، وهو ضرب من الإيجاز فى اللفظ والإطناب فى المعنى(٣٥) .

ونحن نتوقف أمام ما قاله السكاكى فنراه مخالفا لما ذكره قبل ذلك بقليل (ثم إن الحقيقة لكونها من حيث هى هى لا متعددة ، لتحققها مع التوحد ، ولا متعددة ، لتحققها مع التكثر ، وإن كانت لا تنفك فى الوجود عن أحدهما ، صالحة للتوحد والتكثر ، فيكون الحكم استغراقا أو غير استغرق إلى مقتضى المقام ، فإن كان خطابيا مثل : المؤمن غر كريم ، والمنافق خب لئيم ، حمل المعرف باللام مفردا كان أو جمعا على الاستغراق)(٣٦) .

الاستغراق وعدمه إذاً مرجعه إلى مقتضى المقام فى المفرد والجمع معا ، وهذا ما أكده أبو البقاء فى عبارة قاطعة : (اتفق جمهور أئمة التفسير والأصول والنحو على أن الجمع المعروف باللام يتناول كل واحد من الأفراد كالمفرد ، حتى فسروا العالمين بكل جنس مما يسمى بالعالم)(٣٧) .

---

(٣٥) أنظر مفتاح العلوم ١٢٢ .   (٣٦) مفتاح العلوم ١٢١ .

(٣٧) الكليات ٥/١٨١ .

وقد ورد صاحب المطول القول بأن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع ، وأبطل ما ذهب إليه السكاكى ، فقال : (بل الجمع المحلى بلام الاستغراق يشمل الأفراد كلها ، مثل المفرد ، كما ذكره أئمة الأصول والنحو ، ودل عليه الاستقراء ، وصرح به أئمة التفسير فى كل ما وقع فى التنزيل من هذا القبيل ، نحو « **أنى أعلم غيب السموات** »(٣٨) إلى أن قال : (فظهر بطلان ما ذكره صاحب المفتاح فى قوله تعالى : « **رب إنى وهن العظم منى** » أنه ترك جمع العظم إلى الإفراد لطلب شمول الوهن للعظام فردا فردا ، لصحة حصول وهن المجموع بوهن البعض دون كل فرد ، يعنى يصح إسناد الوهن إلى صيغة الجمع ، نحو : وهنت العظام عند حصول الوهن لبعض من العظام دون كل فرد ، ولا يصح ذلك فى المفرد ، وذلك لأنا لا نسلم صحة قولنا : وهنت العظام باعتبار وهن البعض)(٣٩) .

والوجه فى إفراد العظم هو ما كشف عنه الزمخشرى بقوله : (إنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه ، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ، ولأنه أشد ما فيه وأصله ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ، ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، وقصده إلى أن هذا الجنس الذى هو العمود والقوام ، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصدا إلى معنى آخر ، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ، ولكن كلها)(٤٠) .

فاختصاصه العظم بالوهن مع إرادته وهن الجسم بكامل أعضائه ومكوناته أبلغ مما لو صرح بوهن الجسم ، لأن العظم هو الهيكل الذى

---

(٣٨) المطول ٨٤ . (٣٩) السابق ٨٥ .
(٤٠) الكشاف ٢/٥٠٢ .

يقوم عليه بناء الجسم ، وضعفه يستلزم بالضرورة ضعف ما هو قائم به ، فهو أشبه بالهيكل الخرسانى الذى يعتمد عليه البناء ، فإذا ما تهاوى هذا الهيكل تهاوى معه ما اعتمد عليه . هذا هو الذى من أجله افرد العظم ليكون الوهن مسلطا على الجنس لا على افراده ، فإذا ما جمع سلط الوهن على الأفراد وهو غير ما أراده النظم ودون ما أراده بلاغة . وفي توضيح البهاء السبكى لما قاله الزمخشرى ما ينبىء عن الفرق الدقيق بين الصيغتين يقول : (يريد أنه قصد الحكم على حقيقة العظم ، فإن الحكم عليها يستلزم الحكم على افرادها كما ذكرنا ، ولو جمع لقصد الحكم على الأفراد أولا ، والأول أبلغ ، وإليه يشير بقوله : (لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، يريد أن الجمع لا يدل على الجنسية ، إنما يدل على افرادها ، فحيث قصد الحكم على الأفراد جمع ، إشارة إلى اختلاف أنواعها ، أو غير ذلك)(٤١) .

وحين كان الغرض إلى الكثرة والتنوع الدالين على كمال القدرة الإلهية في خلق الإنسان وبديع صنعه جمعت العظام ـ كما أسلفنا ـ فى قوله « **فخلقنا المضغة عظاما** » . أما من قرأ بالإفراد فيه ، كما روى عن السلمى وقتادة والأعرج والأعمش(٤٢) فإن وجه إفراده ما قدمناه فى آية مريم ، من إبراز كمال الصانع في دقة صنعه لعمود الجسد وقوامه .

الا ترى كيف آثر القرآن الجمع فى حديث المشركين عن البعث : « **ائذا كنا عظاما ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا** »(٤٣) ؟! حيث دل بالجمع على غرضهم من تفرق العظام فى اجزاء الأرض ، واستحالة هيكل الجسم وعموده إلى رفات ضل فى أحشاء التراب ، فذهبت وحدة البناء واستحال ـ فى نظرهم ـ إعادة الجسم إلى ما كان عليه . وهو

---

(٤١) عروس الأفراح : شروح التلخيص ٣٣٩/١ .
(٤٢) انظر المحتسب ٨٧/٢ .   (٤٣) الإسراء ٤٩ .

ما لا يؤدى بغير الجمع ، الأمر الذى اطردت فيه صيغة الجمع حيث وقع فى حديث المشركين إنكارا منهم للبعث ، من مثل قوله تعالى : « **قال من يحيى العظام وهى رميم** »(٤٤) استبعادا منهم جمع العظام بعد تفرقها وانمحاء آثارها ، وفى رد الله عليهم إبراز لقدرته على تمييز اجزاء العظام وجمعها « **أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه** » (٤٥) ٠

ومن غرائب المغايرة فى متشابه النظم ما جاءت الدار فيه مفردة تارة ومجموعة تارة أخرى فى قصة واحدة ، تعددت مواطن قصها فى الذكر الحكيم ٠ ففى سورة الأعراف أخبر الله تعالى فى نهاية قصة صالح عليه السلام عن هلاك قومه بقوله : « **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** »(٤٦) وقال كذلك فى نهاية قصة شعيب : « **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** »(٤٧) فأفردت الدار فيهما ٠

وفى سورة هود قال فى نهاية قصة صالح : « **وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين** »(٤٨) ٠ وقال فى نهاية قصة شعيب : « **وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين** »(٤٩) فجمعت الدار فى القصتين ٠

ويروعنا لأول وهلة هذا التناسق العجيب فى إفراد الدار من القصتين فى الأعراف ، وجمعها فى القصتين فى سورة هود ، مما يجعلنا لا نكتفى فى بيان سره بما تردد كثيرا من القول بأن الواحد مراد به الجنس ، فيؤدى ما يؤديه الجمع ، بدليل أن قصة صالح فى سورة هود تضمنت آية أخرى غير التى وقعت فيها الديار جمعا ، وقد أتت فيها

---

(٤٤) يس ٧٨ ٠
(٤٥) القيامة ٣ ٠
(٤٦) الأعراف ٧٨ ٠
(٤٧) الأعراف ٩١ ٠
(٤٨) هود ٦٧ ٠
(٤٩) هود ٩٤ ٠

الدار مفردة ، وهى قوله تعالى : « **فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام** »(٥٠) وكان الانسب ظاهرا أن توحد الصيغة فى القصتين إفرادا او جمعا .

تجاذبت سر هذه المغايرة أقوال المشتغلين بمتشابهات القرآن ، واختلفت فيها التاويلات بما يتناسب وثراء النص القرآنى ، وتنوع اسرار صيغه ، دون أن يحرم الله مجتهدا من الظفر بعبق من شذا بيانه ، فهذا الخطيب الإسكافى يعلل الاختلاف بقوله : (إن الله تعالى وحده فى كل مكان ذكر فى ابتدائه : « **وإلى ثمود أخاهم صالحا** » ، « **وإلى مدين اخاهم شعيبا** » ولم يذكر إخراج النبى ومن آمن معه من بينهم ، فجعلهم بنى أب واحد ، وجعلهم كذلك اهل دار واحدة ، ورجا أيضا أن يصيروا بالإيمان فرقة واحدة ، وكل موضع اخبر عن تفريقه بينهم ، وإخراج النبى ومن آمن منهم معه ، أخبر عنهم الإخبار الدال على تفرق شملهم وتشتت أمرهم ، وذهاب المعنى الذى كان يجمعهم لأب واحد ، ودار واحدة ، وأن يصيروا مع المؤمنين فرقة واحدة ، فقال : « **ولما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين** » . وقال : « **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين** »(٥١) .

توحيد الدار - فى نظر الإسكافى - دليل على وحدة كانت مرجوة ، وجمعها دليل على التفرق ، ومسوغ وضع الجمع فى موضعه هو الإخبار قبل وقوع الهلاك بنجاة صالح وشعيب ، وإخراجهما من ديار قومهما ،

---

(٥٠) هود ٦٥ .

(٥١) درة التنزيل ١٥٨ .

واتحـاد ذلك فى القصتين من سورة هود شاهد ودليل . وهـذه نظرة دقيقة تبرز حكمة النظم ، وتستلهم الفروق بين صـيغة ، ومما يدل لهـا وبعضدها أن القرآن فى كل موضع عبر فيه عن إخراج قوم من موطنهم ظلما وعتوا ، استعمل فيه الدار مجموعة ، كقوله تعالى : « **وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من ديـاركم** »(٥٢) وقوله : « **إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم** »(٥٣) وقوله : « **وقالوا ما لنـا ألا نقاتل فى سـبيل الله وقـد أخرجنا من ديارنا** »(٥٤) .

ورأى ابن الزبير الغرناطى وجهـا آخـر لطيفا ، يلائم فيـه بين الصيغة ودرجة العذاب ونوعه ، فالصيغة الأعم وهى الجمـع ناسـبها العـذاب العام ، وصغة المفرد وهى أقل من الجمع ناسـبها العـذاب الجـزئى . وهـذا ما قاله : (فوجه اختيار لفظ الجمع فى الآية الثانيـة من هود مناسبة ما اقترن به من لفظ الصـيحة ، وهى عبـارة هنا عن العذاب مطلقا دون تقييد بصفة ، وهو من الألفاظ الكلية ، فإن لم يكن عاما فانتشار مواقعه من حيث الكلية حاصـلة . وأما الرجفة فالزلزلة ، فلهذا اللفظ خصوص وهو جـزئى . ومن المعـلوم بالضرورة انحصـار الألفاظ فى الضربين ، وأن اللغات لا تختلف فى ذلك ، فالصـيحة من حيث الكلية تطلق على ما كان من العذاب بالرجفة وغيرها ، وإذا عبر بالرجفة لم يتناول لفظها إلا ما كان عذابا بهـا ، فناسب عموم الصـيحة جمع الديار مناسبة تركيب النظـم ، وناسب خصـوص الرجفـة إفـراد الدار)(٥٥) .

---

(٥٢) البقرة ٨٤ .
(٥٣) الممتحنة ٢٩ .
(٥٤) البقرة ٢٤٦ .
(٥٥) ملاك التأويل ١/٤٠٨ .

وهو وجه بديع ايضا يشهد له أن القرآن عبر بالرجفة فى القصتين من سورة الأعراف التى افردت فيها الدار ، وعبر بالصيحة مع الجمع فى القصتين من سورة هود .

وقد وجدت - مما هدانى الله إليه - وجها آخر لا يزاحم ما التمعت به بوارق الهداية فيما قاله الشيخان ، ومرده إلى نوع الخطاب ، وهو مختلف فى السورتين ، إذ كان خطاب النبيّيْن فى سورة الأعراف خاصا ، موجها إلى الملأ المستكبرين من قومهما ، اغفل فيه اتباعهما من المستضعفين والرعاع ممن لا رأى لهم ، فقال فى قصة صالح : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم **اتعلمون ان صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فاخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين**»(٥٦) .

فلما كان الملأ الذين استكبروا هم الذين استبدوا بالرأى دون عامة قومهم ، وغلبوا الضعفاء على أمرهم ، فلم يقيموا لهم وزنا ، وحادوا الله بعقر ناقته ، كان العذاب موجها إليهم أصالة ، وإن لم ينج منه غيرهم من الذين ظلموا أنفسهم بالخنوع والاستسلام لرأى طغاتهم ، فجاء توحيد الدار متناسبا مع هذا الخطاب الخاص الذى وجه فيه الحوار إلى الملأ من المستكبرين وكان العذاب موجه إليهم خاصة : « فاصبحوا فى دارهم جاثمين » وهو نفس السياق فى قصة شعيب من هذه السورة ، حيث كان الذين هددوا شعيبا بالطرد ، والذين حالوا

---

(٥٦) الأعراف ٧٥ - ٧٧ .

بين القوم والإيمان بدعوته ، هم الملأ الذين استكبروا من قومه : **« قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا »**(٥٧) **« وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون »**(٥٨) فلم يكن لقوم شعيب – عدا المستكبرين منهم – صوت يسمع ، ولا رأى يجهر به ، فلما لم يقم لهم وزن فى الخطاب لم يقم لهلاكهم وزن ، فجاء الإخبار بالهلاك عقب قول الملأ ، وكأنهم وحدهم المقصودون بالعذاب : **« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين »** فقابل القرآن قلة المخاطبين من الملأ بالإفراد ، إيماء إلى أنهم هم الذين غلبوا ضعفاءهم على أمرهم ، واستبدوا بالرأى دونهم ، فكانوا أحق بالعذاب وأهله .

أما فى سورة هود ، فقد كان الخطاب عاما ، والحوار بين النبيين وأقوامهما ، وليس بينهما وبين الملأ من قومهما ، فاقتضى ذلك مجىء الديار بصيغة الجمع لتناسب صيغة العموم فى الخطاب ، فهذا صالح عليه السلام يوجه خطابه إلى قومه عامة دون أن يخص الملأ منهم : **« وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب »**(٥٩) وجاء الجواب على لسان قومه عامة : **« قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب »**(٦٠) فلما كان هذا هو رأى القوم الذى تواطأ عليه عامتهم جاء الإخبار بهلاكهم بصيغة العموم وهى الجمع ، « فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » ، وهكذا كان الحوار بين شعيب وقومه ، خاطب فيه عامتهم : **« وإلى مدين أخاهم شعيبا قال**

---

(٥٧) الأعراف ٨٨ .
(٥٨) الأعراف ٩٠ .
(٥٩) هود ٦١ .
(٦٠) هود ٦٢ .

ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط »(٦١)

وجاء الرد على لسان قومه عامة : « **قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** »(٦٢) فجاء الإخبار بالجمع متناسبا كذلك مع عموم الخطاب .

أرأيت لما كان العقر لا يتأتى من جميع القوم ، وإنما قام به بعضهم جاء التعبير بالدار مفردا فى نفس الموطن الذى جمعت فيه الديار من سورة هود : « **فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** »(٦٣) ليكون توحيد الدار إشعارا بأن الهلاك موجه أصالة إلى العاقرين ، وهم قليل بالنسبة إلى قومهم ، فلاءم بين قلتهم والتهديد (صيغة الإفراد تحقيقا لمقاصد النظم الحكيم .

يتصل بهذا الموضع من قصتى صالح وشعيب إفراد الرسالة فى خطاب صالح عليه السلام لقومه : « **فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** »(٦٤) وجمعها فى خطاب شعيب : « **لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين** »(٦٥) .

وكان النظم فى الموضعين متآخيا مع سياقه ، حيث جاء خطاب صالح عليه السلام لقومه مجملا ، مقتصرا فيه على التحذير من التعرض للناقة ، وتذكيرهم بآلاء الله فيما منحهم من أسباب الحضارة ولين العيش ، فجاء إفراد الرسالة مناسبا للإجمال فى الخطاب ، كما ناسب الجمع خطاب شعيب لما فيه من تفصيل ، تضمن دعوتهم إلى عبادة

---

(٦١) هود ٨٤ .
(٦٢) هود ٨٧ .
(٦٣) هود ٦٥ .
(٦٤) الأعراف ٧٩ .
(٦٥) الأعراف ٩٣ .

ربهم ، وتحري العدل في الكيل والميزان ، وتحذيرهم من إضاعة حقوق الناس والإفساد في الأرض ، والصد عن سبيل الله ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم في تبديل قلتهم كثرة ، وذلهم عزا ، ثم فند مزاعمهم في حوار غير قصير ، فقوبل الإطناب في العبارة بالإطناب في صيغة الجمع ، والايجاز فيها بصيغة المفرد الأقل لفظا ومعنى .

والعرب - كما يقول الغرناطى - تراعى فى أجوبتها وحوارها تناسب أجزاء الكلام إطالة وإيجازا ، وهو ما جرى عليه النظم ، حين كان فى خطاب شعيب قومه (وما ردوا به وجاوبوه عليه السلام إطناب فى العبارة ، وإمعان فيما تحتها من المعانى ، وفى كلا الضربين ناسب ذلك الجمع فى قوله « **أبلغكم رسالات ربى** » ، وأما قصة صالح عليه السلام فلم يقع فيها بعد أمرهم بالعبادة غير تعريفهم بأمر الناقة ، وأمرهم برعيها ، وتذكيرهم بقوم هود ... فناسب الإفراد في قوله : « **أبلغكم رسالة ربى** »(٦٦) .

يؤيد هذا المقصد من تجاوب أطراف الكلام إيجازا وإطنابا تذييل الآيتين ، حيث جاء موجزا لينا مع إفراد الرسالة « **ولكن لا تحبون الناصحين** » مطنبا عنيفا مع جمع الرسالة « **فكيف اسى على قوم كافرين** »

ولا يكدر على هذا ما جاء على لسان نوح عليه السلام « **أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون** »(٦٧) حيث أعقب قوله هذا دعوة قومه دعوة موجزة ، شبيهة فى إيجازها بدعوة صالح ، وكان مقتضى ذلك طبقا لما قررناه أن تأتى الرسالة مفردة ، لكنك بقليل من التأمل تدرك مغايرة فى صيغة الفعل بين الكلامين ، فالفعل فى كلام صالح ماض ، وهو فى كلام نوح بصيغة المضارع ، والمضارع بدلالته

---

(٦٦) ملاك التأويل ٤١٢/١ . (٦٧) الأعراف ٦٢ .

على التجدد وتكرار الفعل يناسبه الجمع ، فهو يجدد تبليغا كلما جدد قومه رفضا وصدا . وهذا ما أفاده ابن عاشور فى قوله : (والمقصود منها إفادة التجدد ، وأنه غير تارك التبليغ من أجل تكذيبهم تاييسا له من متابعته إياهم ، ولولا هذا المقصد لكان معنى هذه الجملة حاصلا من معنى قوله : « **ولكنى رسول** » ولذلك جمع الرسالات ، لأن كل تبليغ يتضمن رسالة بما بلغه)(٦٨) .

ومما دق وخفى وجه المغايرة فيه ، ما حكام الله تعالى على ألسنة اليهود ، اغترارا وجراة على الله ، واستهانة بعذابه : « **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة** »(٦٩) ثم عادوا فقالوا : « **لن تمسنا النار إلا أياما معدودات** »(٧٠) فالقائل فى الموضعين هم اليهود ، ومع ذلك جاء على ألسنتهم وصف الأيام بالمفرد « معدودة » فى الأول ، وبالجمع « معدودات » فى الثانى . نعم إن الاستعمالين فصيحان ، كما صرح به الكشاف فى تفسير قوله تعالى : « **ولهم فيها أزواج مطهرة** »(٧١) فقال : (فهلا جاءت الصفة مجموعة كما فى الموصوف ؟ قلت : هما لغتان فصيحتان ، يقال : النساء فعلن ، وهن فاعلات وفواعل ، والنساء فعلت ، وهى فاعلة ، ومنه بيت الحماسة :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت

واستعجلت نصب القدور فملت

والمعنى : وجماعة أزواج مطهرة)(٧٢) .

لكن اختيار العرب فيما غلب على لسانهم أن يصفوا جمع القلة بالقلة ، والكثرة بالمفرد ، ذهابا منهم إلى أن جمع القلة نص فى الدلالة

---

(٦٨) التحرير والتنوير ـ القسم الثانى ج ٨ ، ص ١٩٣ .
(٦٩) البقرة ٨٠ . (٧٠) آل عمران ٢٤ .
(٧١) البقرة ٢٥ . (٧٢) الكشاف ٢٦٢/١ .

على قلة الموصوف ، أما المفرد فإنه لصحة دلالته على الجنس يتسع لما لا يتسع له الجمع القليل ، فناسبوا بين جمع الكثرة وما يتسع له من الواحد ، كما ناسبوا بين الصفة والموصوف فى الصيغة والمعنى ، حين وصفوا جمع القلة بالقلة ، لذلك رجح أبو حيان هناك قراءة الجمهور بالإفراد فى « مطهرة » على قراءة زيد بن على « مطهرات » بناء على أن « الأزواج » مستعمل فى الكثرة ، وإن أتى بصيغة القلة ، لندرة ورود صيغة الكثرة وهى « زوجة » وتعقب الزمخشرى قائلا : (اللغة الواحدة أولى من الأخرى ، وذلك أن جمع ما لا يعقل إما أن يكون جمع قلة أو جمع كثرة ، إن كان جمع كثرة فمجيء الضمير على حد ضمير الواحدة أولى من مجيئه على حد ضمير الغائبات ، وإن كان جمع قلة فالعكس)(٧٣) .

فهل يفسد على أبى حيان ترجيحه أن « أياما » جمع قلة ، وقد وصفت بالمفرد تارة ، وبالجمع أخرى إذ إنه من غير اللائق القول بأن القرآن يأتى بلغة مرجوحة ، ليسلم للزمخشرى بالمساواة بين اللغتين فى الفصاحة ؟

وهل يعد رجوعا من أبى حيان عن ترجيحه هذا حين يقول تعليلا لاختلاف الصيغة فى الآيتين موضوع حديثنا : (وجاء هنا « معدودات » بصيغة الجمع دون ما فى البقرة ، فإنه معدودة بصيغة المفرد تفننا فى التعبير ، وذلك لأن جمع التكسير لغير العاقل يجوز أن يعامل معاملة الواحدة المؤنثة تارة ، ومعاملة جمع الإناث تارة أخرى ، فيقال : هذه جبال راسية ، وإن شئت قلت : راسيات ، وجمال

---

(٧٣) البحر المحيط ١/١١٧ .

ماشية وإن شئت ماشيات ، وخص الجمع هذا لما فيه من الدلالة علـى القلة كموصوفة ، وذلك أليق بمقام التعجب والتشنيع)(٧٤) .

لا نستطيع إغفال التدافع بين قوله هذا وما قاله آنفا ، ولعل اتساع بحر أبى حيان وطول سباحته فيه يجهده أحيانا فيسهو عما قاله قبل ، فيقع فى مثل هذا التناقض ، ولا نستطيع أن نغفل إشراقة حسه هنا فى بيان سر المغايرة وإيثار الجمع فى آية آل عمران ، لتلاؤم دلالته علـى التقليل مع مقام التعجب والتشنيع : وعبارته الأخيرة فيها تسليم بأن الإفراد قائم مقام جمع الكثرة ، اتـكاء على ما فى الوحـدة من إرادة الجنس الصالح للقليل والكثير .

وإذا كان أبو حيان قد تدافع قولاه فى الترجيح والتسوية فإننـا لا نوافق الزمخشرى على القول بتساوى الصيغتين فى الفصاحة ، ونقف مع أبى حيان فيما ذهب إليه من أن المختار وصف الكثرة بالواحـد ، ووصف القلة بجمع القلة ، ولا نرى فى القرآن استعمالا لمذهب مرجوح ، بل هو جار على الأفصح المختار فى الموضعين . فوصف الأيام فى آية البقرة بالمفرد دليل على إرادة الكثرة ، إذ ليس لليـوم صـيغة كثرة ، فاستغنى بصيغة القلة عنها تجوزا وتوسعا ، وذلك ما نبه إليه أبو حيان فى قوله تعالى « **ولهم فيها أزواج مطهـرة** » . قـال : (والأزواج من جموع القلة ، لأن زوجا جمع على زِوجَة ، نحو : عود وعودة ، وهو من جموع الكثرة لكنـه ليس فى الكثير من الكلام مسـتعملا ، فلـذلك استغنى عنه بجع القلة توسعا وتجوزا)(٧٥) .

وقد كان الحريرى بالغ الدقة حيث قرن بين الأيام موصوفة بالمفرد ، وبينها موصوفة بالجمع ، فهى فى الأولى صـيغة كثرة ، وفى الثـانية

---

(٧٤) البحر المحيط ٣/١١١ .   (٧٥) السابق ١/١١٦ .

صيغة قلة قال : (وكذلك اختاروا أيضا أن ألحقوا بصفة الجمع الكثير الهاء ، فقالوا : أعطيته دراهم كثيرة ، وأقمت أياما معدودة ، وألحقوا بصفة الجمع القليل الألف والتاء ، فقالوا : أقمت أياما معدودات ، وكسوته أثوابا رقيقات ، وأعطيته دراهم يسيرات ، وعلى هذا جاء فى سورة البقرة : « **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة** » ، وفى سورة آل عمران « **إلا أياما معدودات** » كأنهم قالوا أولا بطول المدة التى تمسهم فيها النار ، ثم تراجعوا عنه فقصروا تلك المدة)(٧٦) .

يبقى بعد ذلك بيان وجه البلاغة فى إيثار كل فى موضعه ، وهو فى آية آل عمران استدعاه مقام التعجب والتشنيع الذى أشار إليه - فى إيجاز - أبو حيان كما نقلناه عنه ، فاقتضى مبالغتهم فى تهوين العذاب وتقليله صيغة الجمع ، وبسط ذلك أن آية البقرة إخبار من الله تعالى عن جنايات اليهود وتعديد لجرائمهم ، ومنها قولهم هذا اغترارا واستخفافا بعذاب الله ، ساقه تعالى تأييسا للمؤمنين الطامعين فى إيمان اليهود : « **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** »(٧٧) ثم نعى على أمييهم وعلمائهم فقال : (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة)(٧٨) .

فجاء تهوينهم للعذاب فى هذا السياق أقل مبالغة من سياق آية آل عمران ، التى جاءت عقب حجاج أهل الكتاب ومجادلتهم رسول الله

(٧٦) درة الغوارص ١٠١ .
(٧٧) البقرة ٧٥ .
(٧٨) البقرة ٧٨ - ٨٠ .

بالباطل **« فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد »**(٧٩) ثم تعجب من إعراضهم عن الحق وتوليهم عن الاحتكام إلى كتاب الله فقال : **« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات »**(٨٠) ففى مقام الحجاج والمجادلة اندفع اليهود إلى أقصى حد من المبالغة ، ذاهبين إلى أن أيام تعذيبهم تقف عند أدنى العدد ، وقد تفاوتت الروايات فى تحديد هذا العدد المزعوم بين أربعين يوما ، وسبعة أيام ، على ما جاء فى تفسير الطبرى : (قالوا لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم ، الأيام التى أصبنا فيها العجل : أربعين يوما)(٨١) ثم روى عن ابن عباس قوله : (ويهود تقول : إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما يعذب الناس فى النار بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا فى النار من أيام الآخرة ، فإنما هى سبعة أيام)(٨٢) .

فحيث جعلت الأيام للكثرة أومأت إلى زعمهم أنها أربعون يوما ، وحيث أريد بها القلة أومأت إلى السبعة ، وجاء كل فى موضعه اللائق بمقام القول ، ومستدعيات السياق . يدلك على شدة المبالغة فى آية آل عمران تذييلها بقوله تعالى : **« وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون »** فوصفهم بالاغترار والافتراء ، فى حين أعقبها فى آية البقرة قوله : **« قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون »** فوصفهم بالتقول على الله ، وهو أقل حدة من صريح

---

(٧٩) آل عمران ٢٠ .
(٨٠) آل عمران ٢٣ - ٢٤ .
(٨١) تفسير الطبرى ٢/٢٧٤ .
(٨٢) السابق ٢/٢٧٨ .

الافتراء . وللدكتور عبد العزيز خضر كلام طيب فى هذا الموضع ؛ وهو قريب مما ذكرناه(٨٣) .

ومن إعجاز القرآن فى وضع الصيغة موضعها الذى لا يغنى فيه سواها ، ما جاء فى ختام قصة لوط عليه السلام : ((**فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن فى ذلك لآية للمؤمنين**))(٨٤) فجاءت الآيات مجموعة ، ثم أفردت والقصة واحدة . فما السر وراء اختلاف الصيغة ؟ وهل يمكن وضع إحداهما موضع الأخرى ؟

يرى أبو السعود أن (إفراد الآية بعد جمعها فيما سبق ، لما أن المشاهد ههنا بقية الآثار ، لا كل القصة)(٨٥) ويوسع الخطيب الإسكافى دائرة الآيات المجموعة لتشمل ضيف إبراهيم مع أحداث قوم لوط فى حين تضيق دائرة الآية مفردة وتنحصر فى آثار المدينة الهالكة . يقول الإسكافى : (قوله ((**إن فى ذلك لآيات للمتوسمين**)) إشارة إلى ما قص من حديث لوط وضيف إبراهيم ، وتعرض قوم لوط طمعا فيهم ، وما كان من أمرهم آخرا من إهلاك الكفار ، وقلب المدينة على من فيها ، وإمطار الحجارة على من غاب عنها ، وهذه أشياء كثيرة فى كل واحد منها آية ... أما قوله ((**وإنها لبسبيل مقيم إن فى ذلك لآية للمؤمنين**)) أى تلك المدينة المقلوبة ثابتة الآثار ، مقيمة للنظار ، فكأنها بمرأى العيون لبقاء آثارها . وهذه واحدة من تلك الآيات)(٨٦) .

---

(٨٣) يراجع ((مشتبه النظم فى القرآن الكريم)) رسالة دكتوراه مخطوطة - كلية اللغة العربية بالقاهرة ص ١٥٢ .
(٨٤) الحجر ٧٣ - ٧٧ . (٨٥) تفسير أبى السعود ٥/٨٦ .
(٨٦) درة التنزيل ٢٥٣ .

علي أنني أرى في المغايرة بين الفاصلتين : « للمتوسمين » « للمؤمنين » وجها آخر اقتضى المغايرة بين الصيغتين إفرادا وجمعا ، ذلك أن المتوسمين هم القادرون على الاستبصار وإدراك دقائق الأدلة الموصلة إلى الحق ، بما لديهم من الفراسة والفطنة ، وهؤلاء يرون من الآيات المدركة بالعقول أكثر مما يدركونه بأبصارهم ، لذلك لم يقفوا عند الآيات الظاهرة فى آثار القوم ، وإنما أدركوها فى دلائل الخطاب ولغة الحوار . يدل لذلك ما قاله الراغب فى تفسير المتوسمين : ((أى للمعتبرين العارفين المتعظين ، وهذا التوسم هو الذى سماه قوم الزكانة ، وقوم الفراسة ، وقوم الفطنة ، قال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله))(٨٧) .

فإذا كان لعامة المؤمنين آية فى آثار القوم ، فإن لأهل الفراسة منهم آيات لا يدركها غيرهم . لذا جاء الجمع رامزا إلى أن الفطن يقع له وراء ظواهر الأحداث بفراسته وحسن تأمله من الدلائل والآيات ما لا يقع لسواه .

أما ما جاء من إفراد الآيات وجمعها فى سورة النحل فلسياقها همس آخر ، فحيث كان التركيز على نعمة معينة بغرض إبراز أثرها جاءت الآية مفردة ، إمعانا فى الاهتمام بها ، وحشدا لكل قوى الإدراك حولها ، كما نراه فى الحديث عن الماء وأثره فى حياة النبات والحيوان والإنسان : ((**هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون**))(٨٨) فأفردت الآية لأن المشار

---

(٨٧) المفردات ٥٢٣ .   (٨٨) النحل ١١ .

إليه هو المـاء ، بما أودع الله فيه من أسباب الحياة لخلقه . وحين كانت الإشارة إلى مظاهر متعددة من نعم الله فى كونه بكل منها فى ذاتــه آية مستقلة ، يريد القرآن إبرازها جميعا ، جاءت الآيات مجموعة فى قــوله تعالى : **« وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »**(٨٩) (فالإشارة فيها إلى خمسة أشــياء مختلفة ، أحيل عليها فى الاعتبار ، وسخرت لنا تسخيرا به قوام معاشنا ، وصلاح أحوالنا ، ومعرفة حسابنا ، وهى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، وكل واحدة من هذه تتبع جهات النظر فيه والاعتبار بعجائبه)(٩٠) ثم أفردت الآية حين أفرد الله الحديث عما خــلق من نبات الأرض مختلف الألوان والطعوم : **« وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون »**(٩١) .

ومما توقفت أمامه طويلا ، غير قانع بما عثرت عليه من أقــوال حذقة المفسرين ، صيغة الجمع التى وردت مرة واحــدة ، يقابلها خمسة مواضع ورد فيهــا مفردها مما اشتبه نظمه . وذلك فى قــوله تعــالى : **« اقــرأ باســم ربك الــذى خــلق خــلق الإنســان من علــق »**(٩٢) . ولم يظهر لى فى بادئ الأمر سر جمع العلقة فى هذا الموضع وحده ، ولم يكن مثل تعليل الزمخشرى مما يتبلغ به باحث عن سر الإعجـــاز ، فهو يقول : (فإن قلت : لم قال « من علق » على الجمع ، وإنما خلق من علقة ، كقوله : **« من نطفة ثم من علقة »** ؟ قلت : لأن الإنســـان فى معنى الجمع ، كقوله : **« إن الإنسان لفى خسر »**)(٩٣) هــذا التعليل لا يذهب إلى أبعد من صحة التعبير بالجمع نظرا لمــا فى الإنســان من معنى الجمع ؟ أما لمــاذا خص هذا الموضع بالجمع دون غيره من المواضع

---

(٨٩) النحل ١٢ .
(٩٠) ملاك التأويل ٢/٥٩٤ .
(٩١) النحل ١٣ .
(٩٢) العلق ١ ــ ٢ .
(٩٣) الكشاف ٤/٢٧٠ .

التى افردت فيها العلقة ، وهي جارية على الإنسان ايضا فى قوله تعالى : « **أيحسب الإنسان ان يترك سدى الم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى** »(٩٤) ؟ وقوله : « **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة** »(٩٥) ؟

بل إن بعضها خطاب لجمع صريح ، وجاءت فيه العلقة مفردة ، كقوله تعالى : « **يا ايها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة** »(٩٦) .

هذا ما ليس له جواب عند الزمخشرى ولا عند غيره ممن قرات لهم ، وغاية ما قيل زيادة عليه هو مراعاة الفواصل ، على ما جاء فى تفسير أبى السعود : (وإيراده بلفظ الجمع بناء على أن الإنسان فى معنى الجمع ، لمراعاة الفواصل ، ولعله هو السر فى تخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية ، مع كونه النطفة والتراب ادل منه على كمال القدرة ، لكونه ابعد منه بالنسبة إلى الإنسانية)(٩٧)

رعاية الفاصلة حين يكون الإفراد والجمع جائزين مقصد من مقاصد النظم ، جريا على مراعاة التناسب بين الصيغ والأوزان . وهو إلف عربى لا نقلل من شانه ، لكن أن يقال إنه وحدة السر فى إيثار « العلق » من بين أطوار الخلق ، مع أن غيره أدل منه على كمال القدرة الإلهية كالنطفة والتراب فهو ما لا نسلم به .

---

(٩٤) القيامة ٣٦ - ٣٨ .

(٩٥) المؤمنون ١٢ - ١٤ .

(٩٦) الحج ٥ .

(٩٧) تفسير أبي السعود ١٧٧/٩

نحن إذا نبحث فى الصيغة عن جوابين لسؤالين ، هما : لمــاذا آثر العلقة من بين أطوار الخلق ، ولمــاذا جاءت الصيغة جمعا دون نظائرها فى القرآن الكريم ؟

مفتاح الإجابة معلق على الأغراض والمقاصد ، فحيث كان المقصــد تحقير شأن الإنسان والنعى عليه فى مقام التمرد والعصيان ، ســـلك النظم الحكيم **مسلكه فى حشد كل** أدوات البيان لإبراز هــذا الغــرض ، كما هو الشأن فى سياق سورة القيامة ، ردا على تكذيب الكافرين المنكرين للبعث « **فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى** »(٩٨) فكان الإفراد هو الأنسب للتقليل من شأن هذا الإنسان وتحقيره ٠

ومثله قوله تعالى : « **يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعـث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة** » حيث جــاء التــذكير بخلق الإنسان وأطوار نموه جوابا لإنكار البعث ، وتصدر التراب مراحل الخلق ليشيع فى الأنوف رائحة تحقير هذا المخلوق المكذب لخالقه ٠

أما آية العلق فقد جاءت فى مقام تعظيم خلق الإنسان والامتنــان عليــه بنعمة العلم ، ومقام التعظيم أولى بالجمع ، لمــا فى الجمــع من معنى الكثرة الدالة على عظم المجموع ٠ ثم إن السورة بنيت على الإيجاز فى اللفظ والإطناب فى المعنى ، كما هو واضح من حذف المفعول فى فاصلة الآية الأولى « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** » ، وكما هو واضح كذلك فى الاقتصار على طور واحد من أطوار الخلق وهو العلق ، ولمــا كان

---

(٩٨) القيامة ٣١ ـ ٣٨ ٠

الجمع أقل حروفا من مفرده ، مع زيادته عليه فى المعنى بما يتضمنه من الكثرة ، كان هو الأليق بمقام الإيجاز الذى انبنت عليه هذه السورة .

ألا ترى كيف عدل القرآن فى سورة الرحمن — حين تحدث عن نشأة الإنسان — عدل عن ذكر التراب والطين الموحيين بحقارة أصل خلق الإنسان إلى الصلصال ، لأن السورة بنيت على تعديد نعم الله على خلقه ، والامتنان على الإنسان بما أفاض عليه من سحائب التكريم ، وأولها وأشرفها تعليمه القرآن ، وتعليمه البيان ((**الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان**)) فجاء قوله تعالى ((**خلق الإنسان من صلصال كالفخار**)) آية من آيات الإعجاز فى اختيار المفردات ، وتجنب الألفاظ التى تفجأ النفس بما يعوق وثبتها إلى اكتناه أسرار النظم والوقوف على غاياته . فلو قال هنا : خلق الإنسان من تراب أو من طين لنقر غاية النفور فى مقام الامتنان على الإنسان بعظيم خلقه .

بقى أن نقف على سر إيثار « العلق » من بين أطوار الخلق ، ونحن نراه وجها من وجوه الإعجاز كذلك ، وليس لمجرد الفاصلة كان إيثاره . ذلك أن مطلع السورة ينبىء عن مقاصدها ، فافتتاحها بالأمر بالقراءة المتعلقة باسم الرب الموحى بفيوضات الرحمة التى أسبغها على الإنسان منذ بدء تكوينه ، وتكرار هذا الأمر مشفوعا بوصف الله بأبلغ الكرم ومنتهاه ، حيث ميز الإنسان بنعمة الفكر والعلم ، كل ذلك مفصح عن مقاصد السورة وأهدافها فى توجيه الإنسان إلى الأخذ بأسباب العلم والتقرب إلى الله بتأمل أسرار صنعته ، وأعظم ما صنع تعالى هو الإنسان نفسه ، فاكتشافه لما أودع الله تعالى فيها من أسرار الخلق ، أول خطوة على طريق اكتشافه لحقائق الكون ، وما تشهد به من عظمة صانعها ومبدعها ، ومن ثم كان اختيار « العلق » وهو مرحلة مجهولة

لا تكشف أستارها إلا بالعلم والمعرفة ، وهى البداية الحقيقية للمجهول من أطوار الإنسان ، إذ التراب والنطفة من الأمور الظاهرة المعلومة لكافة الناس ، فكانت « العلق » بمادتها وصيغتها أمس رحما بمقام تتنفر فيه طاقات الإنسان للبحث والتعلم ، والعلم فى نظر الإسلام هو الوسيلة لمعرفة الله والتقرب إليه ، لذا بدئت السورة بالدعوة إلى القراءة واختتمت بالعبادة والتقرب إلى الله « **واسجد واقترب** » .

ومما تغايرت فيه الصيغ بالإفراد والجمع من مشتبه النظم ، ولم أجد فيما قيل فى تفسيره بيانا شافيا ، إفراد (ذو) المضافة إلى القربى تارة ، وجمعها بلفظها أو معناها تارة أخرى . فمن الإفراد قوله تعالى : « **وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين** »(٩٩) وقوله تعالى : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين** »(١٠٠) . وقوله : « **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** »(١٠١) .

ومن الجمع قوله تعالى : « **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين** »(١٠٢) وقوله : « **وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه** »(١٠٣) وقوله : « **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله** »(١٠٤)

والمعنى فى جميع هذه المواضع على الجمع سواء ورد فيه بلفظ

---

(٩٩) البقرة ٨٣ .
(١٠٠) النساء ٣٦ .
(١٠١) الأنعام ١٥٢ .
(١٠٢) البقرة ١٧٧ .
(١٠٣) النساء ٤ .
(١٠٤) النور ٢٢ .

الإفراد أم الجمع ، مما يتطلب معرفة سر الإفراد فى موطن الجمـع .
وما قاله المفسرون لا يخـرج عما جـاء فى البحـر المحيط : (وافـرد ذا القربى ، لأنه أراد الجنس ، ولأن إضافته إلى المصدر ينـدرج فيـه كل ذى قرابة)(١٠٥) وهو كما ترى لا يكشف عن سر إرادة الجنس بالمفرد فى موضع ، والتعبير بالجمع فى موضع آخـر ، والنكتة التى كشف عنها الألوسى فى قوله تعليلا للإفراد : (وكان فيه إشارة إلى أن ذوى القربى وإن كثروا كشىء واحد ، لا ينبغى أن يضجر من الإحســان إليهم)(١٠٦) من أجود ما قيل . لكنه لا يفسر سر إيثاره فى موضـعه دون سواء من المواطن التى جىء فيها بلفظ الجمع .

ويتتبع مواطن الإفراد والجمع فى الذكر الحكيم ، تبدى لى بعد طول تأمل ، أن (ذا القربى) فى كل ما جاء منه بإفراد « ذا » أومـأ هذا الإفراد إلى نوع من التميز والتفرد فى القرابة ، وأنه لا يراد فيـه كل ما يمت إليه بصلة رحم ، فهى معه قرابة قربة تتطلب مزيداً من الإحسان يجعلها قرينة الوالدين ، وفى منزلة تدانى منزلتهما ، كما فى قــوله تعالى : **« واعبدوا الله ولا تشركوا به شـيئا وبالوالدين إحســـانا وبذى القربى »** فهو يشير إلى القرابة الأدنـين ، بدليل قوله فيما عطف عليـه « والجار ذى القربى » وكانه يرى الإحســان إلى القـرابة الأدنـين فى منزلة الإحسان إلى الوالدين . وكما تقضى به المبالغة فى قوله تعـالى : **« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى »** فإن تمام العدل وكمال الشــهادة أن لا يمنع من أدائهما على الوجه الأكمل ، كون المحكوم عليه أو المشهود ضـده أقرب المقربين ، لا مجرد قريب يمت إليه بصلة .

---

(١٠٥) البحر المحيط ٢٨٤/١ .   (١٠٦) روح المعانى ٣٠٨/١ .

فإذا قصد القرآن شمول كل ذى قرابة أوما إلى ذلك بصيغة الجمع كما نراه فى قوله تعالى : « **وآتى المال على حبه ذوى القربى** » فإن كمال البر يقتضى ضربين من ضروب المبالغة ، أولهما ما يشير إليه « على حبه » من هضم النفس والتغلب على نزعاتها وأثرتها ، والثانى : سعة عطائه وامتداده إلى كل من يدلى إليه بصلة من الأقربين . فكان الجمع بما فيه من معنى الكثرة أوفى بمقام المدح فى شمول الإحسان وسعته .

وهذه هى الأدلة التى استأنست بها فيما ذهبت إليه :

أولها : أن القرآن حين أراد بذوى القربى من غير ذوى الميراث عبر بالجمع إيماء إلى أنهم ليسوا عصبته وخاصة أقربائه ، وإنما هم من تربطهم بالمورث قرابة بعيدة ، وذلك فى قوله تعالى : « **وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه** »(١٠٧) وقد جاءت هذه الآية عقب قوله تعالى : « **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا** »(١٠٨) فكان ذكرهم بعد توزيع الأنصبة المفروضة على الأقارب دليلا على أنهم ليسوا من الوارثين ، وأن درجة قرابتهم لا ترتفع إلى مرتبة الإرث ، وقوله « فارزقوهم منه » إنما هو من باب التصدق عليهم على ما صرح به الطبرى فى قوله : (يراد : فأوصوا لأولى قرابتكم الذين لا يرثونكم منهم)(١٠٩) .

والدليل الثانى : قوله تعالى عتابا لأبى بكر ، وحثا له ولغيره

---

(١٠٧) النساء ٨ . (١٠٨) النساء ٧ .

(١٠٩) تفسير الطبرى ١٢/٨ .

على مداومة البر بالأقارب : ((**ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله**))(١١٠) فعبر بالجمع (أولى القربى) ليشمل القرابة البعيدة ، حيث كان من عوتب فيه أبو بكر من ذوى أرحامه لا من عصبته ، فقد جاء فى أسباب نزول الآية : أنه بعد أن أنزل الله تعالى ما برأ به عائشة رضى الله عنها مما رميت به (قال الصديق - وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره - والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله ((**ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى ..**))(١١١) وكان مسطح ابن خالة أبى بكر(١١٢) فكان التعبير بالجمعين ((أولو الفضل)) و ((أولى القربى)) متناغمين فى الدلالة على سعة فضل الصديق وكرمه وشمول هذا الفضل للأباعد من الأقارب .

الثالث : أن تنفيذ الرسول عليه السلام لما قضى به الله فى توزيع خمس الغنيمة فى قوله تعالى : ((**واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى**))(١١٣) وقوله فى حكم الفىء : ((**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى ...**))(١١٤) تجاوب مع الإفراد فى الآيتين ((ولذى القربى)) فخص بهما بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، دون بنى أخيهما عبد شمس وأخيهما نوفل ، فلما كلمه عثمان وجبير بن مطعم قائلين : (يارسول الله أعطيت بنى المطلب وتركتنا ، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة ، فقال رسول الله ﷺ : إنما بنو المطلب وبنو هاشم شىء واحد)(١١٥) .

---

(١١٠) النور ٢٢ .
(١١١) أسباب النزول للواحدى ٢٤٣ .
(١١٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٧٦ .
(١١٣) الأنفال ٤١ . (١١٤) الحشر ٧ .
(١١٥) أخرجه البخارى فى كتاب فرض الخمس راجع فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦/١٨٧ .

لمح الألوسى قوة هذه الرابطة وشدة التواصل ، وربط بينها وبين إفراد « ذى » قائلا : (وكأنه لمزيد تعصبهم وتوافقهم حتى كأنهم على قلب رجل واحد ، قيل لذى القربى ، دون لذوى بالجمع)(١١٦) .

هذا الإحساس بالتوحد ، الذى أشار إليه الألوسى هو الذى نقول به فى سر إفراد « ذى القربى » حيث وقع فى القرآن ، على أن المراد به هذه الدرجة من القرابة التى تصل بالمرء إلى حد اعتبارهم معه فردا واحدا ، فإذا ما جمعت (ذو) دلت على شمول الجميع ، وامتدت إلى الأباعد من الأقربين . وهو ما يقضى به تتبع مواطن الإفراد والجمع على النحو الذى قدمناه .

ومن المغايرة بالإفراد والجمع فى مشتبه النظم ، مما يهمس السياق فيه بأسرار المخالفة فى النظم ، قوله تعالى : **« خشعا إبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر »**(١١٧) فعبر بصيغة الجمع « خشعا » وقوله تعالى : **« خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون »**(١١٨) وقوله : **« خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون »**(١١٩) فعبر فيهما بالمفرد خاشعة . فلا يشغلنى وإياك ما قيل من جواز الإفراد والجمع ، على ما صرح به الفراء واستشهد له(١٢٠) ، فإن القرآن متى ما نطق باللغتين فلا حاجة بنا إلى الاستشهاد على جوازهما ، بل هما بورودهما فى القرآن وجهان فصيحان وعلينا أن نبحث عما اقتضى كلا فى موضعه .

وإذا كنا قد سلمنا فيما مضى بأن الجمع بما فيه من معنى الكثرة ، يستعار لقوة الصفة ، فإن هذا هو ما استدعاه السياق فى سورة القمر ،

---

(١١٦) روح المعانى ٤٧/٢٨ .
(١١٧) القمر ٧ .
(١١٨) القلم ٤٣ .
(١١٩) المعارج ٤٤ .
(١٢٠) معانى القرآن ١٠٥/٣ .

حيث بدأت السورة بقوله تعالى : « **اقتربت الساعة وانشق القمر** » مستحضرة هول ذلك اليوم وما يصاحبه من شدائد ، ثم أعقبه وصف المشركين بالعناد البالغ ، وتكذيبهم بالآيات الواضحة ، التى يرونها بأعينهم ، فلا تؤثر فيهم الآيات ، ولا تزجرهم فواجع الأنباء ، ولا تردهم عن غيهم صواعق النذر ، حتى أمر الله تعالى نبيه بالإعراض عنهم حين يحل بهم عذاب ربهم ، وجاء قوله : « **يوم يدع الداع إلى شىء نكر** »(١٢١) بتنكير شىء ، ووصفه بهذه الصفة التى يكاد اللسان يتعثر فى نطقها « نكر » لتجسد فظاعة هذا الذى ينتظرهم وشدته . ثم يعقبه قوله « خشعا أبصارهم » مصوراً سوء حالتهم بهذه الكناية التى جسدت ملامح الذلة والانكسار على وجوههم وأبصارهم ، وأدى الجمع « خشعا » دوره فى تمكن هذه الصفة منهم ، وبلوغها الغاية التى لا يتصور معها أقسى ولا أذل مما وصلوا إليه ، ثم كان لتقديم هذا الوصف على عامله أثره فى التركيز عليه ، وكأنهم يوصفون به الآن ، لا ما أجل لهم من العذاب ، كل ذلك تعانق مع سياق يبث نذر الساعة ، ويلوح بشارات الخطر القريب ، كما يتعانق الجمع « خشعا » مع الكثرة التى نشرها التشبيه فى قوله « **كأنهم جراد منتشر** » .

وليس مثل هذا السياق تراه فى سورة القلم ، حيث جاءت هذه الكناية أثناء حوار لم ينقطع مع المشركين ، وتهديد بيوم لم تقع نذره بعد ، « **أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة** » ومثله فى سورة المعارج ، حيث أمر الله تعالى نبيه بإمهالهم إلى يوم يساقون فيه إلى حتفهم « **فذرهم يخوضو ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم**

---

(١٢١) **القمر** ٦ .

الذى يوعدون يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » ٠

هذا الفرق بين سياق عاصف ، يصور هلاكا أحاطت بالقوم نذره ، وهولا دقت أجراسه ، وسياق فى حوار هادىء ، يرخى العنان للتأمل والتدبر ، هو الذى أوجب الجمع هناك ، والإفراد هنا ، بحكم أن الجمع أقوى وأشد ٠

وللتناسب بين الألفاظ دوره فى ترجيح صيغة عن صيغة ، حين تكون القرائن فى الموضعين دالة على إرادة الجمع ٠ كما نراه فى إفراد الفاكهة تارة وجمعها تارة أخرى ، وهى دالة على الكثرة مفردة ومجموعة مثالها مفردة : قوله تعالى : **« وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون »**(١٢٢) وقوله : **« يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين « لا يصدعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون »**(١٢٣) وقوله : **« وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة »** ٠

ففى هذه المواضع أفردت الفاكهة وأريد بها الجمع ، وكان وصفها بالكثرة أو ما يدل عليها مغنيا عن صيغة الجمع ، وروعى فيها التناسب اللفظى مع جاراتها ، بعد أن قطعت القرائن بدلالتها على معنى الجمع ، ففى الموضع الأول : وصفت بالكثرة ، وتناسب إفرادها مع إفراد الجنة ،

---

(١٢٢) الزخرف ٧٢ - ٧٣ ٠ (١٢٣) الواقعة ١٧ - ٢١ ٠

وفى الموضع الثانى وصفت بقوله « **مما يتخيرون** » فكانت « من » بدلالتها على التبعيض ، ولفظ « يتخيرون » بدلالته على تعدد أنواع الفاكهة حتى يمكن التخير منها ، كان ذلك قاطعاً فى إرادة الجمع من الفاكهة ، ثم روعى تناسبها مع المعطوف عليه قبلها « كأس » والمعطوف بعدها « لحم » . وفى الموضع الثالث : وصفت الفاكهة بالكثرة والدوام ، وتناسبت مع المعطوفات عليها : سدر ، وطلح ، وظل ، وماء .

ثم جاءت « الفواكه » جمعا متناسبة مع سياقها كذلك ، ففى قوله تعالى : « **أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون فى جنات النعيم** »(١٢٤) ناسب الجمع « فواكه » الجمع فى « جنات » ، وفى قوله تعالى : « **إن المتقين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون** »(١٢٥) ناسب الجمع فيه ما عطف عليه من الظلال والعيون . وقوله تعالى : « **فانشانا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تاكلون** » ناسبت الفواكه الجنات فى صيغة الجمع .

وهكذا يمضى القرآن فى مراعاة التناسب بين الألفاظ إفرادا وجمعا بعد أن يقيم من القرائن الدالة على معنى الجمع ما لا يترك معه لبسا ، فيجمع بين وضوح الدلالة وجمال التناسب .

ومن دلائل الإعجاز فى التناسب بين المبانى والمعانى ما نجده فى إفراد المشرق والمغرب وتثنيتهما وجمعهما فى الذكر الحكيم . فقد تجاوب توحيد اللفظ مع الدعوة إلى وحدانية الله ، فى سياق يهتف بوحدة الكون ، ووحدة خالقه ، فى قوله تعالى : « **رب المشرق والمغرب**

---

(١٢٤) الصافات ٤١ ـ ٤٢ .   (١٢٥) المرسلات ٤١ ـ ٤٢ .

لا إله إلا هـو فاتخذه وكيلا »(١٢٦) ووحد موسى عليه السلام المشرق والمغرب رمزاً إلى وحـدة خالقهما فى رده على فرعـون : **« قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون »**(١٢٧) ثم تجاوبت التثنية مـع التزاوج فى التكليف والخطاب بين الإنس والجان ، والتزاوج بين صنوف المخلوقات : **« الشمس والقمـر بحسبان » « والنجـم والشـجر يسجدان » « خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نـــار » « مرج البحرين يلتقيـــان » « رب المشرقين ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان »**(١٢٨) فكان هـذا التناسـق العجيب هـو السر فى تثنية المشرق والمغرب .

وفى مقام إبراز عظمة الخالق وسعة ملكه ، تناسب الجمع بدلالته على بسطة الكون وقـوة السلطان ، مع ضمائر الجمع الدالة على عظمة الخالق ، فى قوله تعالى : **« فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين »**(١٢٩) .

واستدعى مقـام الامتنان على بنى إسرائيل بكثرة ما وهبهم الله من الخير ، وسعة ما مكنهم من الأرض وما أغـدق عليهم فيها من النعم وما أنزل فيها من بركات السماء ، استدعى ذلك صيغة الجمع بمـا تبثه من الكثرة والتعـدد : **« وأورثنا القـوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها »**(١٣٠) لتكون المقابلة الرائعـة بين عهدين : عهد الاستضعاف والاستذلال والفقـر ، وعهد العـزة والسـعة والسلطان . ولا يمكن للمفرد هنا أن يصور ما صوره الجمع من النمـاء وكثرة الخيرات سواء منها ما كان محسوسا فى ســعة ما ملكهم الله من

---

(١٢٦) المزمل ٩ .
(١٢٧) الشعراء ٢٨ .
(١٢٨) الرحمن ١٧ – ١٨ .
(١٢٩) المعارج ٤٠ – ٤١ .
(١٣٠) الأعراف ١٣٧ .

دنيا الناس ، وما كان غير منظور من توسع أفقى ، متمثل فى مضاعفة نتائج الأرض ، وحفظها من الآفات والجوائح ، وهو ما نطلق عليه البركة .

وأنت فى كل ذلك ترى وجها لصحة المعنى فى الإفراد والتثنية والجمع ، بالنظر إلى حركة الشمس وآفاق طلوعها وغروبها ، وتعدد مطالعها ، على ما نشاهده فى حركتها اليومية ، وما يترتب على مسيرتها من الليل والنهار وتعدد جهات مطالعها على مدار فصول العام . يقول ابن القيم فيما ننقله عنه بتصرف : (فتأمل هذه الحكمة البالغة فى تغاير هذه المواضع فى الإفراد والجمع والتثنية بحسب موادها يطلعك على عظمة القرآن وجلالته ، وأنه تنزيل من حكيم حميد ... فتأمل وروده مثنى فى سورة الرحمن ، لما كان مساق السورة مساق المثانى المزدوجات ، فذكر أولا نوعى الإيجاد ،وهما الخلق والتعظيم ، ثم ذكر سراجي العالم ومظهر نوره ، وهما الشمس والقمر ، ثم ذكر نوعى النبات : ما قام منه علي ساق ، وما انبسط منه على وجه الأرض ، وهما النجم والشجر ، ثم ذكر نوعى السماء المرفوعة والأرض الموضوعة ... ثم تأمل ورودهما مفردين فى سورة المزمل لما تقدمهما ذكر الليل والنهار ، وأمر رسوله بقيام الليل ، ثم أخبره أن له فى النهار سبحا طويلا ، فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه ، وذكر النهار وما يكون منه فيه ، عقب بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر الليل والنهار ... ثم تأمل مجيئهما مجموعين فى سورة المعارج فى قوله : **« فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين »** لما كان هذا القسم فى سياق سعة ربوبيته ، وإحاطة قدرته ، والمقسم عليه أرباب هؤلاء والإتيان بخير منهم ، ذكر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هى أحد آياته العظيمة الكبيرة ، ونقله

سبحانه لها ، وتصريفها كل يوم فى مشرق ومغرب ، فمن فعـل هـذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء ، وينقل إلى أمكنتهم خيرا منهم ؟!)(١٣١) ٠

بهـذا الاسلوب الرائع والتحليل الدقيق كشف ابن القيم عن أسرار الإعجاز فى المغايرة بين الصيغ بما لم يسبق إليه ولم يلحق فيه ٠

* * *

---

(١٣١) بدائع الفوائد ١/١٢١ ـ ١٢٢ (تصرف ٠

خاتمـــة

إذا كنت قـد استهديت فى هـذه الدراسة بمـا نصبه فقهاء اللغـة وأعلام المفسرين من أدلة ، وافـدت من إشاراتهم فى الكشف عن أسرار مخالفة الظاهر فى مواقع الإفراد والجمع من الذكر الحكيم ، ووجـــوه البلاغة فيما تعاورته فيه صيغ القلة والكثرة مواقعها ، وأعانني الباحثون فى متشابهات القرآن على استجلاء أسرار المغايرة بين الصيغ فيما اشتبه نظمه من الكتاب المجيد ، فإننى وجدت صعوبة بالغة فى الكشف عن أسرار الاختلاف فى مبانى الصيغة الواحـدة . وذلك لغيبة الدراســات الكاشفة عن الفروق الدلالية بين المبانى المتعـددة فى صيغ جموع الكثرة . فالنحاة واللغويون الذين تركوا جهودا مشكورة فى تحديد معانى أبنية الأفعال والمصادر ، ووضعوا الضوابط التى تحكم الدلالات العامة لـكل بناء ، لم يكن لهم أثر يذكر فى الكشف عن معانى أبنية الكثرة فى صيغ الجموع ، مما عانيت معه كثيرا فى البحث عن سر إيثار بناء على آخـر فى موقعه من النظم الحكيم . وقد اعتمدت - فيما تعرضت له من الأبنية التى تعاورت مواقعها - على ما قرره علماء العربية وفقهاؤها من أن زيادة المبنى يستتبعها بالضرورة زيادة فى المعنى ، ورحت أبحـث عن هـذه الزيادة معتمدا على ما يهمس به السياق ، وما يوسوس به الحس كما تراه فى الفرق بين « ضعفاء وضعاف » ، « والشـهداء والشـهود » « والإخوان والإخوة » و « العبيد والعباد » و « الأسارى والأسرى » ، والكفار والكفرة ، وغير ذلك مما استطعت بجهد خاص أن أقف به على أبواب دراسة تستهدف الكشف عن الفروق الدلاليـة بين أبنية الكثرة ، مستهدية بالنادر المتنـاثر فى كتب اللغـوين والنحـاة ، منصتة لهمس الصيغة ، ومناجاة سياقها في النظم القرآني .

وحين اقول : وقفت فى هذا المبحث من تعاور ابنية الكثرة مواقعها علي أبواب الدراسة ، فإننى أستحث بذلك همم المخلصين من الدارسين فى فقه اللغة وعلوم البلاغة لولوج هذه الأبواب وفتح مغاليقها ، بما يكشف عن اسرار الصيغ فيما اختلفت مبانيه ووجب أن تختلف معانيه . لعلنا نصل بجهودهم إلى وضع ضوابط دلالية تحكم ابنية الكثرة ، ولو بمثل الضوابط العامة التى وضعها اللغويون والنحاة لأبنية الأفعال والمصادر ، لننطلق منها إلى اكتشاف أسرار النظم فيما تعاورت فيه أبنية الكثرة مواقعها . وهاأنذا قد بدأت ، وأسأل الله أن أكون قد أحسنت البدء وألا يحرمنى أجر المجتهدين .

* * *

أهـم المراجـع والمصـادر

- **اسباب النزول - ابو الحسن على بن أحمد النيسابورى**
  مكتبة الجمهورية العربية شارع الصناديقية بالأزهر - بدون تاريخ
- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعى**
  دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان - بدون تاريخ ٠
- **إعراب القرآن الكريم وبيانه - محيى الدين درويش ٠**
  دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص سورية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- **الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - ابن المنير الإسكندرانى**
  مصطفى البابى الحلبى - القاهرة - القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ٠
- **اوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك - ابن هشام الأنصارى المصرى**
  منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - بدون تاريخ ٠
- **البحر المحيط - أبو حيان الأندلسى**
  دار الفكر للطباعة والنشر - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م - الطبعة الثانية
- **بدائع الفوائد - ابن قيم الجـوزية**
  توزيع دار الفكر للطباعة والنشر - القاهرة - بدون تاريخ ٠
- **البرهان فى علوم - بدر الدين الزركشى**
  ت محمد أبو الفضـل إبراهيم - دار الجيـل - بيروت - لبنـان
  ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ٠
- **البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى - د٠ محمد محمد أبو موسى**
  مكتبة وهبة - عابدين القاهرة - الطبعة الثانية ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م
- **تاويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - شرح ونشر السيد أحمـد صـقر**
  دار التراث - القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م ٠

- **تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر - ابن أبى الأصبع المصرى**
  ت٠د٠ حفنى محمد شرف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٣٨٣ هـ .
- **التحرير والتنوير - الشيخ محمد الطاهر بن عاشور**
  الدار التونسية للنشر - بدون تاريخ .
- **تفسير أبى السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)**
  أبو السعود العمادى - دار إحياء التراث العربى - بيروت - بدون تاريخ .
- **تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) - ابن كثير القرشى الدمشقى .**
  المكتبة التوفيقية - الحسين - القاهرة - بدون تاريخ .
- **التفسير البيانى للقرآن الكريم**
  الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة .
- **تفسير البيضاوى بهامش حاشية الشهاب - القاضى البيضاوى**
  دار صادر بيروت - بدون تاريخ .
- **تفسر الجلالين - جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى**
  عيسى البابى الحلبى - بهامش حاشية الجمل .
- **تفسير الراغب الأصفهانى - أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهانى**
  مخطوطة بمعهد المخطوطات بالقاهرة رقم ٦٩ فيض الله .
- **تفسير الطبرى (جامع البيان عن تاويل القرآن) ابن جرير الطبرى**
  ت٠ محمود محمد شاكر - الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر .
- **تفسير الفخر الرازى (التفسير الكبير) فخر الدين الرازى**
  دار الفكر للطباعة والنشر - الطبعة الثالثة - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- **تفسير القرطبى - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى**
  دار الريان للتراث .

● **تفسير المنار - السيد محمد رشيد رضا**
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م ٠

● **التكملة - ابو على الفارسى - تحقيق د٠ كاظم بحر المرجان**
طبع دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل - العراق ٠

● **الحجة فى علل القراءات السبع - ابو على الفارسى**
ت٠ على الجندى ناصف وآخران - الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٤٠٣ - ١٩٨٣م ٠

● **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى - شهاب الدين الخفاجى**
دار صادر بيروت ٠

● **الخصائص - ابو الفتح عثمان بن جنى - تحقيق محمد على النجار**
الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثالثة ٠

● **دراسات لأسلوب القرآن الكريم - محمد عبد الخالق عضيمة**
مطبعة حسان - شارع الجيش - القاهرة - بدون تاريخ ٠

● **درة التنزيل وغرة التاويل - الخطيب الإسكافى**
دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٧ م ٠

● **درة الغواص فى أوهام الخواص - القاسم بن علي الحريرى**
ت٠ محمد أبو الفضل إبراهيم - دار نهضة مصر للطبع والنشر ٠

● **دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني**
تعليق محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجى بالقاهرة ٠

● **روح المعانى - الألوسى البغدادى**
دار إحياء التراث العربى ٠

● **شرح الكافية - الشيخ رضى الدين محمد بن الحسن**
دار الكتب العلمية - بيروت ٠

- **صحيح البخارى - جمع الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى**

  مصطفى البابى الحلبى ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م .

- **عروس الأفراح من شروح التلخيص - بهاء الدين السبكى**

  دار الكتب العلمية - بيروت .

- **الفتوحات الإلهية - سليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل**

  مطبعة عيسى البابى الحلبى .

- **فقه اللغة وسر العربية - ابو منصور الثعالبى**

  ت. مصطفى السقا وآخران - مصطفى البابى الحلبى - الطبعة الأخيرة ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .

- **القاموس المحيط - محمد بن يعقوب الفيروزآبادى**

  ت. مكتب تحقيق التراث - مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧

- **الكليات - ابو البقاء الكفرى**

  منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى - دمشق ط ٢ ، ١٩٨١ م.

- **الكشاف - ابو القاسم جار الله الزمخشرى**

  ت. محمد الصادق قمحاوى - مطبعة مصطفى البابى الحلبى الطبعة الأخيرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

- **لسان العرب - ابن منظور - دار المعارف**

- **المثل السائر فى ادب الكاتب والشاعر - ضياء الدين بن الأثير**

  ت.د. احمد الحوفى و د. بدوى طبانة - دار نهضة مصر للطبع والنشر .

- **محاسن التاويل - محمد جمال الدين القاسمى**

  دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبى - الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .

● **المحتسب ـ ابو الفتح عثمان بن جنى**

ت٠ على النجدى ناصف و د٠ عبد الفتاح شلبى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م ٠

● **المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ـ ابو محمد عبد الحق بن عطيـة**

ت٠ أحمـد صادق المـلاح ـ المجلس الأعلى للشـئون الإسـلامية ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ٠

● **المطول على التلخيص ـ سـعد الدين التفتازانى**

مطبعة أحمـد كامل ـ ١٣٣٠ هـ ٠

● **معانى القرآن ـ أبو زكريا الفراء**

الجزء الأول ت٠ أحمد يوسف نجاتى ومحمد على النجار ـ الهيئة المصرية العـامة للكتاب ١٩٨٠ م ٠

الجزء الثانى ـ محمـد على النجـار ـ الـدار المصرية للتـأليف والترجمة ـ مطابع سجل العرب ٠

الجزء الثالث ت٠ عبد الفتاح شلبى وعلى النجدى ناصف ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م ٠

● **مفتاح العـلوم ـ ابو يعقوب السكاكى**

مصطفى البابى الحلبى ـ الطبعة الثانية ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م ٠

● **المفردات فى غريب القرآن ـ الراغب الأصفهانى**

ت٠ محمد سيد كيلانى ـ مصطفى البابى الحلبى ـ الطبعة الأخيرة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م ٠

● **مقاييس اللغـة ـ احمد بن فارس**

ت٠ عبد السلام هارون ـ دار الكتب العلمية ـ ايران ٠

● **ملاك التاويل - ابن الزبير الأندلسي الغرناطي**

ت.د. محمود كامل أحمد دار النهضة العربية - بيروت - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

● **من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم - د. محمد الأمين الخضري**

مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

● **من أسرار اللغة - د. إبراهيم أنيس**

مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - ط ٢ ، ١٩٦٦ م .

● **من بلاغة القرآن د. أحمد أحمد بدوى**

دار النهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٨ م .

● **الموشح - المرزبانى**

ت. على محمد البجاوى - دار نهضة مصر ١٩٦٥ م .

● **نتائج الفكر فى النحو - أبو القاسم عبد الرحمن السهيلى**

ت.د. محمد إبراهيم البنا - دار الرياض للنشر والتوزيع .

● **النهر الماد من البحر - ابو حيان الأندلسى**

دار الفكر للطباعة والنشر - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

الفهرس التفصيلى للموضوعات

مقدمة البحث ص ٣ .

توطئة : من ٦ إلى ص ٢٣ .

النابغة الذبيانى يكشف عن حكمة اللغة فى تعدد صيغ الجموع ص٦ الرد على الدكتور إبراهيم أنيس فى إنكاره القول بصيغ للقلة وأخرى للكثرة ص ٧ ـ الرد على الدكتور محمد أبو الفتوح شريف فى إلغاء الفروق بين صيغ الجموع [illegible] أوضاع اللغة وموجباتها ، والخروج عن الظاهر ص ١٢ ـ البلاغيون أهملوا مخالفة الظاهر فى صيغ الإفراد والجمع ص ١٥ ـ ابن الأثير يلفت إلى حسن اللفظة فى صيغة دون أخرى ص ١٦ ـ اهتمام الدراسات القرآنية بصيغ الإفراد والجمع ص ١٨ ابن جنى يكشف عن دقائق الفروق بين المفردات وجموعها ص ١٩ جهود المفسرين ص ٢٢ .

الفصل الأول

وضع المفرد موضع الجمع

من ص ٢٦ إلى ص ٨٦

الإفراد فى مقام التعذيب يجسد الإحساس بالوحشة ص ٢٧ التوحيد للدلالة على وحدة الحق ص ٣٢ ـ وحدة الهدف والغاية ص ٤٢ الكفر كله ملة واحدة ص ٤٧ ـ استعارة المفرد للتقليل والتهوين ص ٥٧ الإفراط بالعكس ص ٦٥ ـ التوحيد رمز لعدم التفاوت ص ٦٩ التوحيد رمز للانفراد بالحدث ص ٧٣ ـ الإفراد للتعظيم ص ٧٦ إيثار المفرد لرقته وحسن جرسه ص ٨١ .

الفصل الثانى

وضع الجمع موضع المفرد

من ص ٨٧ إلى ص ١٣٥

إيثار الجمع لخفته وعذوبته ص ٨٩ ـ استعارة الجمع

للتعظيم ص ٩٨ ـ العدول إلى الجمع للمبالغة ص ١٠٧ ـ الدلالة على تمكن الوصف ص ١١٤ ـ تجنب مواجهة المخاطب بما يكره ص ١١٨ الجمع للإبهام ص ١٢٠ ـ الجمع يكشف دخائل النفوس ص ١٢٢ زيادة التشنيع ص ١٢٧ ـ التكثير فى الصفة ص ١٢٩ ـ الاشتغال بالجماعة عن الفرد ص ١٣٢ .

الفصل الثالث

تعاور الجموع مواقعها

من ص ١٣٧ إلى ص ١٩٥

استعارة القلة لكثرة :

الأعين ص ٣٩ ـ الخطيئات ص ١٤١ ـ النبيين ص ١٤٣ الغرفات ص ١٤٥ ـ الأنفس ص ١٤٨ ـ أذلة وأعزة ص ١٥١ أنعم ص ١٥٤ ـ كلمات ص ١٥٦ ـ ساجدين ص ١٥٧ ـ الأموات ص ١٥٩ صلوات ص ١٦١ .

استعارة الكثرة للقلة :

قروء ص ١٦٢ ـ حجج ص ١٦٤ ـ ليال ص ١٦٥ ـ شهداء ص ١٦٦ سنابل ص ١٦٧ ـ فتيان ص ١٧٠ ـ رقود ص ١٧٢ .

تعاور ابنية الكثرة :

عباد وعبيد ص ١٧٣ ـ إخوانا وإخوة ص ١٨٠ ـ أسرى وأسارى ص ١٨٤ ـ ذكور وذكران ص ١٨٥ ـ عمّى وعُميان ص ١٨٧ سجّد وسجود ص ١٨٨ ـ أناس وأناسى ص ١٨٩ ـ ضعفاء وضعاف ص ١٩٠ ـ شهداء وشهود ص ١٩٢ ـ الكفار والكفرة ص ١٩٤ القبور والمقابر ص ١٩٥ .

الفصل الرابع

تناسق الصيغ فى مشتبه النظم

من ص ١٩٨ إلى ص ٢٤٣

السماء والسموات ص ١٩٩ - درجة ودرجات ص ٢٠٤ - ريح ورياح ص ٢٠٧ - العظم والعظام ص ٢١١ - الدار والديار ص ٢١٥ رسالة ورسالات ص ٢٢٠ - معدودة ومعدودات ص ٢٢٢ - آية وآيات ص ٢٢٧ - علقة وعلق ص ٢٢٩ - ذو وجمعها ص ٢٣٣ - خاشعة وخشع ص ٢٣٧ - فاكهة وفواكه ص ٢٣٩ - مشرق ومشارق ص ٢٤١

خاتمة ص ٢٤٥ .

المراجع والمصادر ص ٢٤٧ .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٩٩٣/٥٣٠٧
تحريرا فى ١٩٩٣/١/٧

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون : ٥١٠٦٧٢٤